62

حسن محمد كتبي

هذه حياتي

Twitter: @abdulllah1994
16.5.2018



دار الشروق جدة

حسن محمد كتبي

هٰذِهِ حَيَاتِي

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

Twitter: @abdulllah1994

هذه حياتي

Twitter: @abdulllah1994

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

محرم ١٤٠٣هـ - نوفمبر ١٩٨٢م

دار الشروق جدة

للنشر والتوزيع والطباعة

٨٤٢٨ - تليفون { الادارة : ٦٣١٠٠٣٢ (٠٢) / المكتبة : ٦٤٢٦٦١٠ (٠٢) }

برقيا : مشكاتنا - تلكس SHORCO SJ ٤٠١٢٠٩

ص.ب ٤١٤٦ - جدة - المملكة العربية السعودية

Twitter: @abdulllah1994

بسم الله الرحمن الرحيم

Twitter: @abdulllah1994

الإهداء

إلى الانسان المسلم في كلّ مكان ...

Twitter: @abdulllah1994

دراسة

بقلم الأستاذ محمّد أبو بكر حميد

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

قراءة في حياة وعقل
حسن محمد كتبي
إنساناً وأديباً ومصلحاً إسلامياً

في طريقي إليه كان يزدحم في رأسي العديد من الخواطر التي أريد أن أضعها بين يديه، وفي نفس الوقت تتمثل أمامي صورته التي رأيتها أكثر من مرة في بعض الصحف والمجلات. لكن الخاطر الذي ظل يلح عليّ باستمرار يقول: إن الأستاذ حسن كتبي يعد من القلة القليلة في الجزيرة العربية الذين رفعوا لواء التجديد في أسلوب الحياة وطريقة التفكير ـ بوعي ـ ، وإنه قد وقف على فكر إسلامي نقي من الشوائب، ومن أرضية هذا الفكر رأيناه ينطلق طوال حياته مجاهراً بالكلمة المكتوبة وبالكلمة المسموعة، وبالفعل الذي حققه، وبالفعل الذي دعا إليه، وما زال يسبح في دنيا الأماني العربية الإسلامية. ومع ذلك فهو حين يكتب عن نفسه تراه شديد التواضع، في الوقت الذي لم أره يأخذ فيه حقه كاملاً من الدراسة والتقدير المعنوي.

Twitter: @abdulllah1994

وتوقفت السيارة، وأحسست أنني قد قطعت في خطوات قصيرة ذلك الطريق الطويل، ولم تمض لحظات حتى وجدتني أقف بين يدي «حسن محمد كتبي» بكل استاذيته وجلاله ووقاره، رأيت صاحب الكتب التسعة، وعشرات المحاضرات الإسلامية، وصاحب الصوت الجهير في المواقف الصعبة، الرجل الذي يعمل في صمت وهدوء يرحب بي، ويضعني ـ بسحر ـ في دائرة سحره ولطفه وتواضعه، وذابت ما بيني وبينه من حواجز نفسية نحسها عندما نجلس إلى المشهورين من الناس، وذلك عندما أخذ حديثه العذب بمجامعي، حديث تلتذ به الأذن، ويسري إلى القلب فلا يشفى غليله إلا بطلب المزيد.

وهكذا وجدت نفسي مأخوذاً ليس بسحر «حسن كتبي» الإنسان، وإنما «بحسن كتبي» الإنسان الأديب والمفكر الإسلامي، فلقد خاض الرجل غمار الحياة في شتى الميادين المختلفة، لكنك مع ذلك تجده قطعة حية شفافة رقيقة ينعكس عليها الكثير من الأحداث، وتؤثر في الكثير من الناس، فلقد حمل في داخله روح الأديب وحساسيته فانعكس هذا في رقة مسلكه مع الناس، وحمل في عقله جذوة المفكر الإسلامي الذي لا تنطفىء همته، ولا تفتر عزيمته.

ثقافته وفكــــره

فمن المعروف أنه قد تشبع بروح إسلامي شفيف في رحاب مكة المكرمة، وانه قد ترحل بعد ذلك في العديد من البلدان

Twitter: @abdulllah1994

المتعرف على المزيد من الأفكار على نحو ما نعرف من سفره إلى الأزهر بالقاهرة، ومن اقامته في بمباي بالهند فترة أخرى. وكان في هذا كله يقف في طليعة الصف الأول الذي قاد مسيرة الحياة الأدبية في الجزيرة العربية، ومن الرواد الـذين حملوا المشاعـل ليضيئوا ليلها البهيم، في عصـر ساد فيـه الجهل وتفشت فيـه الخرافات التي روج لها الاستعمار العثماني للمنطقة العربية.

ولما كانت فكرة تنقية الإسلام من الشوائب التي لحقت به عبر العصور قد استولت على أديبنا وعدد من أبناء جيله يقودهم في ذلك هدي استاذهم محمد علي زينل - رائد الحركة التعليمية في المنطقة - فإننا نجده منذ البداية قد نذر نفسه لهذه العملية. مؤمناً بأن التعليم أساس نهوض كل أمة، ولا مجال لزرع الوعي ونشر بذور اليقظة إلا من خلال الأستاذ المثالي الذي يستطيع أن يحفر بذكاء في عقول تلاميذه الكثير من المبادىء والقيم والمثل، ثم يترك هذه الأشياء جميعاً تختلط بعنصرهم النقي وتذوب فيه وتتحد به حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ منه. فلا مجال لنهضة إسلامية جديدة إلا على أيدي الأجيال الجديدة التي إذا ما أضاء نور الإسلام في عقولها وقلوبها استطاعت أن تقود مسيرة المستقبل، وتزيح عن عيني الحاضر ما علق بها من غشاوة. وعلى هذا الطريق كان سير خط التفكير عند الأستاذ «حسن كتبي»، وكان في اتكائه على علوم العربية والشريعة الإسلامية منذ صباه يعد نفسه لمهمة كبيرة يضطلع بها طوال حياته سواء إن استندت إلى توكيل رسمي أو لم

Twitter: @abdulllah1994

تستند، هذه المهمة هي اشتغاله بالقضايا الإسلامية، وتحمسه لنصرتها مما جعله يطوف في العديد من بلدان الشرق والغرب، وبأسلوب التاجر الصدوق الأمين كان يقدم أفكاره للكثير من الشخصيات العالمية في أطباق من النقاء والصدق والطهارة.

ورغم أنه تقلب في العديد من المناصب الرسمية، واشتغل بالأعمال الخاصة، حيث نعرف انه عمل في وزارة المالية ثم أقام في القاهرة فترة حيث أسس فرع البنك الأهلي التجاري السعودي هناك، ثم تولى وزارة الحج والأوقاف سنة ١٣٩٠ هـ، على أنه من خلال هذا كله كان يتحرك حركة حثيثة ليخدم أمته، فإذا ما اعتقد أن هذه الوسيلة أو تلك تستطيع أن تحمله في خطوات قصيرة لتحقيق الأهداف التي نذر نفسه لها سعى إليها، فإذا ما وجدها لا تفي بمتطلباته تجاه أمته وعالمه الإسلامي ابتعد عنها، ولم يرتض لنفسه أن يجلس على كرسي يسبح في الفراغ.

شخصيته ومزاياه

المهم أن «حسن كتبي» الإنسان كان دائمًا وباستمرار في مقدمة «حسن كتبي» الأديب والسياسي والمفكر الإسلامي، لأن هذه الصفات إذا ما انفصلت عن الإنسانية في الإنسان سخرت بلا شك لخدمة الأغراض غير الشريفة، وتحولت إلى شعارات مزيفة تخدع بها الأمة على نحو ما يفعل الكثير من الساسة والأدباء في كل مكان.

Twitter: @abdulllah1994

وبالتالي فإن «حسن كتبي» ومزاياه ليسا وجهين لعملةٍ واحدة وإنما هما عنصر واحد إذا تم تحليله فقد هويته. ذلك لأنك تحس وانت تجلس إليه انه يقدم لك أفكاراً متكاملة، وأنه محدث لبق لا يقدم لك هذه الأفكار دفعة واحدة في وجبة دسمة حتى لا تحس بالتخمة، وإنما يقدمها لك في جمل قصيرة ونفس طويل حتى إذا ما تكاملت هذه الجملة وجدت نفسك أمام صورة تتشكل في ذهنك من تلقاء ذاتها فتحسب أنك قد توصلت إليها لكنك ما تكاد تنظر إلى الرجل الجالس بوقار أمامك وقد ملأت وجهه ابتسامة لا تكاد تفارقه حتى تشعر على الفور أن ذلك هو الرسم البارع، وإذا ما حاولت أن تلوي عنق هذه الصورة التي يقدمها لك حسن كتبي بسؤال أو استفسار لا تجد إلى ذلك ثغرة، ولكنك تجده يقطع الصمت عليك وحيرة المتأمل بكلمة أو جملة يقدمها لك في ابتسامة تحثك على الحديث، وتغرس في نفسك الشجاعة للتبسط والصراحة، فإذا بنفسك تنشرح من تلقاء رحابة صدره، وإذا بك ـ بلا تردد ـ تفرغ ما في هذه النفس فتجد أن الرجل الذي يجلس أمامك منبسط الأسارير قد هش لحديثك، واصغى إليه باهتمام وحماس يشعرانك كأنك تتحدث إليه بما لم يقله أحد له قبلك. فإذا ما فرغت من حديثك تجده يصمت لحظة، ويعتدل في جلسته على مقعده، ويصوِّب إليك نظرة فاحصة ـ ذات مدلول ـ من وراء نظارته، فترتاح نفسك، وتستشعر اجابته قبل أن يبدأ الحديث.

Twitter: @abdulllah1994

ولما كان الحديث مع حسن كتبي يطول، فإنك إذا ما كنت ضيفه لا تشعر أبداً بمرور الزمن فإلى جانب حلاوة هذا الحديث تجده يحرص كل الحرص على تنوعه فإذا ما كان حديثكما عن الأدب تجده يقدم باقة من الورود حين تعيد كل وردة إلى بستانها تجد نفسك أمام أعداد كبيرة من كتب التراث، ويرطب لسانه إذا ما تحدث عن صديق، ويتحول «حسن كتبي» إلى نسمة رقيقة تتسلل إلى قلبك وتثير فيه عواطف الوفاء والأريحية والاخلاص على نحو ما حدثني عن صديقه أديب العروبة والإسلام علي أحمد باكثير .

ويتقـد «حسن كتبي» ويتحـول إلى شعلة تضيء حـولك بالعديد من الأفكار إذا ما عرج بكما الحديث إلى هموم المسلمين في كل مكان، وتحس أن الرجل ـ على هدوئـه ـ قد تـوتر من الداخل، وتحول إلى كتلة من الأعصاب يحكمها الفكر والعاطفة ويملكها الحماس، ولا تواتيه الكلمـات سراعـاً لشدة الانفعـال فيستعين بالاشارة وبحركة يديه ليؤكد على ما يقول، ورغم أنه نادراً ما يغير وضع جلسته إلا أنك تحس أنه في وضع غير مستقر، وفقاً للحالة التي يتحدث عنها.

وفي أثناء ذلك كله تجده متخففاً عن الكثير من اثقال التقاليد التي يؤثر تحملها الكثير من المرموقين، وإنما تجده يتصرف معك سهلاً بسيطاً ويغرقك في تواضعه حيث تسبق أبوته أستـاذيته، وتسبق إنسانيته أدبه وفكره لأنها الاناء الذي انصهرت في بوتقته

Twitter: @abdulllah1994

كل المواهب التي ولدت معه، وكل الخصائص التي اكتسبها في رحلة حياته، والتجارب التي أثرى بها هذه الحياة، وحياة من حوله والأجيال القادمة في العديد من كتبه.

منهجــــه

ففي كتابيه «هذه حياتي» و«أشخاص في حياتي» يقـدم لنا الأستاذ حسن كتبي العديد من تجاربه في الحياة لكن اللافت لنظر قارىء هذين الكتابين أنه سيجدهما يختلفان كل الاختلاف عن ما الفه في كتب السيرة، فلقد نحا أديبنا في كتابيه منحى لا أقول أنه جديد كل الجدة ولكني أقول إنه متميز كل التمييز، وتظل هذه الميزة تخصه وحده،لذلك فهذان الكتابان في حقيقة أمرهما كتاب واحد يعبر خير التعبير عن كاتبه. ذلك لأن منهجه فيه اتجه اتجاهاً نفسياً يكشف عن نفسية صاحبه بمقدار ما يكشف عن نفسيات الآخرين.

وقد اتخذ الأستاذ «حسن كتبي» وسيلة فنية ذكية في كتابة سيرة حياته ذلك لأنه لم يكتبها بالتسلسل التقليدي الذي يورد فيه كاتب السيرة كل صغيرة وكبيرة في حياته، وإنما اتخـذ الأستاذ «حسن كتبي» الحديث عن الآخرين وسيلة غير مباشرة للحديث عن تجاربه في الحياة، ولا يقف من الآخرين مادحاً أو قادحاً ـ كما جرت العادة في العديد من السير الذاتية ـ وإنما نجده يتعامل بموضوعية مع الشخصيـة التي يكتـب عنها، ذلـك من خلال

Twitter: @abdulllah1994

أسلوبه في التعامل الذي يكشف أن الكاتب لا يقدم لنا هذه الشخصية كظاهرة فردية وإنما يقدمها كظاهرة نفسية ـ سواء سلباً أو ايجاباً ـ في قلب الحياة . فعلى عظم اكباره واجلاله لشخصية استاذه الفذ محمد علي زينل يقف منه موقفاً نقدياً ويطرح فيه رأياً لا يعميه الحب عن قوله، حين يقول:

«ولقد لمست أنه رجل اصلاح فذ من الرجال القادرين الممتازين ولكن الشيء الوحيد الذي كنت اتمنى أن يتوفر له هو عدم اصراره على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة معتمداً على طاقته الشخصية الهائلة، وامكانياته المالية لأن طاقة الفرد مهما كانت قوية فإنها لن تستطيع . . . تحويل مجرى التاريخ في حياة أمة استمرت ألف عام تخضعها عوامل مرتبة مجتمعة محبوكة حبكاً محكمًا لتنتكس بها هذه النكسة . . » . .

وهنا نجد أديبنا «حسن كتبي» يطرح رأياً نقدياً للحركات الاصلاحية عموماً في بلادنا العربية، ذلك لأن معظم هذه الحركات تقوم أساساً على عاتق فرد واحد وبالتالي تظل مرهونة بحياة هذا الفرد في الغالب، والأستاذ كتبي يؤكد بأن موت أمة لا يمكن أن يحييه فرد بل لا بد من تكاتف العديد من أيدي هذه الأمة لتبعث وتنهض دوماً وباستمرار.

أستاذيته في التجديد

ونعرف من حياته أنه بدأها بوضع يده على أشق المهن، حين

Twitter: @abdulllah1994

زاول التدريس وأخذ على عاتقه مهمة البعث الجديد والقضاء على الجمود، والتخلف والتقليد في مواد التدريس وأساليبها، وكان في هذا كله يهدف إلى جعل الطالب يشعر بأن العلوم التي يدرسها إنما هي جزء من مقومات حياته:

«فكل قاعدة في اللغة العربية يجب أن يلمس تطبيقها فيما يمارسه من تعبير ليسمو بذوقه وفهمه، وكل صورة من صور السيرة النبوية، والتاريخ العربي، يجب أن يشعر بها كجزء من تراث آبائه، وأجداده، ووطنه، وكذلك بالنسبة لجميع العلوم الأخرى..».

ومضى حسن كتبي يشق طريقه في الصخر ويصطدم بالعواصف فيركبها ولا ينحني لها حين دعا إلى إجراء الكثير من التعديلات في مناهج الكتب الدراسية، وفي أساليب التدريس. كان يريد في هذا كله أن يقفز بالحياة التي يحياها قومه، خطوات طويلة إلى الأمام لترتفع عن مهاوي الجهل الذي تعيش فيه، ومهالك الاعتقادات الباطلة في التماس البركات:

«ولقد جربت الإيمان بتلك البركة، ولم يصرفني عنها إلا أنني وجدتها غير واقعية، ولا تتمشى مع طبيعة الحياة التي نحياها، والأحداث العالمية التي نعيش فيها، ولا بد لأن نكون واقعيين، أن نقتبس من الفلسفة والدراسات والأساليب التربوية الحديثة التي انتهت إليها المدارس في غير محيطنا، وأن نأخذ من الأساليب الغربية ما يتفق وروح ديننا وتقاليدنا وتاريخنا».

Twitter: @abdulllah1994

وكانت نتيجة هذا أن اصطدم أديبنا مع مدير المدرسة، وكان لا بد من هذا الصدام، فما كان من المدير أن يتقبل هذه الأفكار الجديدة عليه وعلى جيله وما كان لحسن كتبي أن يقبل ويخضع ما دام قد آمن بالفكر الذي يحمله وروح التجديد التي يدعو إليها، فأحس أديبنا بنوع من الاحباط وخيبة الأمل التي يحسها كل من يبدو في أفكاره أكثر تطوراً من أفكار مجتمعه.

فما كان من أديبنا إلا أن قابل هذا التحدي بتحد من نوع آخر، قابل تحدي التخلف والجمود والرجعية بتحد حضاري استوحاه من صميم الحياة الإسلامية الأصيلة فغرق في قراءة العديد من الكتب تجيء في مقدمتها كتب التربية الحديثة وعلم النفس ثم خرج من هذه العزلة التي غاضب فيها مجتمعه بتصورات نظرية للرؤية الجديدة التي يحملها ما دام قد حورب عملياً، وعليه كان تفكيره في وضع كتاب يؤلفه عن «المدرسة الفاضلة» كما يتصورها تبدأ برياض الأطفال حيث ينبه إلى دور الغريزة في التحكم في أخلاق الإنسان، ونشأته واتجاهاته، وأنه لا بد أن تقوم رياض الأطفال على أسس سليمة تهذب الغرائز وتوجه الجيل الناشىء الاتجاه السليم.

وفي هذا الخط نجد حسن كتبي يضرب في الصميم فلو قدر لخطته هذه النجاح بالتطبيق الفعلي في حينها لربما رأينا جيلاً أقوى مما هو عليه الآن وركون أديبنا على الاهتمام بالطفولة يدلل على سلامة سير خط التفكير عنده، لأن الطفولة هي الأرض البكر

Twitter: @abdulllah1994

الخصبة التي يمكن فيها زرع أشهى الثمار، وبالتالي فهو يرى أن البعث العربي الإسلامي الجديد لن يتم إلا على يد جيل مسلم تشرب ثقافة عربية إسلامية نقية بعيداً عن موروثات عصور التخلف والجهل القديمة، وبعيداً عن مؤثرات الفكر الغربي المعاصر الذي يعمل على الحط من قدر الحضارة العربية الإسلامية بشتى الوسائل الحديثة.

تصوراتـه التربويـة

وعندما يعين حسن كتبي أستاذاً للقضاء الشرعي في المعهد العلمي السعودي يبدأ يحس بأن الزمن قد بدأ يصالحه، وأن نسمة رقيقة قد هبت في حياته، وانه يستطيع أن يقول كلمة لتلاميذه وللجيل الجديد، وانه يستطيع أن يغرس في قلوبهم العديد من الورود. فبدأ يعد رسم خريطة تعليمية جديدة تتفق مع روح العصر ومتطلباته؛فعاب طريقة تدريس مادة الأدب العربي التي تقتصر على حفظ نماذج الشعر والنثر، ورأى في علم البيان قيداً من القيود التي تعطل ذوق الأديب وتحد من تفكيره وتجعله يعيش في دائرة مغلقة. وحرص على وضع منهج جديد ينمي في نفوس تلاميذه الذوق الأدبي وملكة الابداع تمثل في كتابه «الأدب الفني». وبالمثل نجده يضع فصولاً تصلح لتدريس فن القضاء وأساليبه حين اكتشف أن الموسوعات القضائية لا تصلح لتدريس النشء الجديد بل ترهقه وتنفره من دراسة هذه المادة. لكن اصلاحاته هذه تقابل بالنفور وبحرب جاهلة من القائمين على

Twitter: @abdulllah1994

المعهد فكان ذهابه إلى الطائف وادارته لمدرسة هناك، وفيها أحس بشيء من الاطمئنان، أحس أنه يستطيع أن يزرع شيئاً في قلوب الطلبة النقية الخصبة كأرضهم، وكانت فرصة رائعة ليزرع حديقةً خضراء في نفوس أبناء الأرض الخضراء حين عمل على بث روح المثابرة في نفوس الطلبة وفي نفوس آبائهم من الفلاحين ليستمروا في الدراسة، ودفعهم بالأمل لئلا يقنعوا بأضعف الإيمان، فلقد كانت هذه الفترة على حد تعبيره:

«أسعد فترة في حياتي أذكرها لأنني كنت أشعر بأنني أعمل عملاً مثمراً يتفق مع طبيعتي، والعهد الذي قطعته على نفسي، والمبادىء التي أوصى بها إلي الحاج محمد علي زينل، وآمنت بها إيماناً عميقاً..».

فلقد أدرك حسن كتبي ومن قبله أستاذه محمد علي زينل الأهمية القصوى للوسيلة التعليمية على اعتبارها الأساس المتين لأي نهوض حضاري لهذه الأمة. ولما كانوا قد نفروا من الطرق التعسفية التي تتم بها العملية التعليمية فقد جاهدا على محاربتها واستبدالها بالاصلح، وأديبنا ينقل إلينا وصفاً حياً لصورة التعليم في عهده حين يقول:

«لقد كانت الدراسة في عهدنا علمًا ينقل نقلاً من ذهن إلى ذهن، ومن قلب إلى قلب كما ينقل أي شيء محسوس من وعاء إلى وعاء فإذا لم تتم عملية النقل بيسر وسهولة فلا بد أن تتم بأي

Twitter: @abdulllah1994

لون من ألوان العنف، ولو انكسر الوعاء وتلف ولم يبق صالحـاً للاستعمال».

وبمقدار جمال هذه الصورة التعبيرية نتعرف على مدى القسوة التي يتم بها تلقي العلم على أيدي أساتذة جفاة غلاظ، وهذا يؤكد على أن الجيل الذي أفرزته هذه الفترة لا يمكن أن يبعث ولا يمكن أن يحث على النهوض وبالتالي فعلينا أن نتدارك الجيل الجديد قبل أن يتردى في مهاوي الموروث الطالح.

وظل إحساس «حسن كتبي» بالعبء يتزايد كلما أحس بوطأة الصدام، وبالبون الشاسع بين ما يريده وبين ما يريده الواقع التربوي المرير في مدارس الفلاح التي انحرف بها الجامدون عن الطريق الذي اختطه رائدها الحاج محمد علي زينل، إنها معركة التطور والتخلف، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون كل محاولة للتطور والخروج عن الوسائل الموروثة في الـدراسة مـروقاً عن الـدين ومكابرة لبركة العلم ونوره التي لا تتجمع وتتم إلا إذا استمرت الدراسة في فهم ما سجله السلف في كتبهم، وانقطعت الجهود عند مناقشته وفهمه، أما أن يكون للتعليم أثر في بناء المجتمع وصنع الحياة فذلك ما لا يخطر لهم ببال.

وأمام هذا الواقع يحس «حسن كتبي» بنفسه تنصهر، وقلبه يحترق، وروحه تشتاق لتحقيق المبادىء العليا التي عاش لها لكنه لا يزال ظمئاً حين يقول:

Twitter: @abdulllah1994

«أحسست بنداء الأعماق يزلزل كياني، نداء الفرد الذي ورث شعور الجماعة نداء التاريخ الذي تضج به آثار الدعوة الإسلامية، والفتح الإسلامي المحيط بي، نداء تلك الشعلة التي أوقدها الحاج محمد علي زينل في قلوبنا، وعلق أمانتها في أعناقنا» . .

أسلوبه :

ويتميز «حسن كتبي» بأسلوب طلي سهل بارع يمكنه من التعبير عن أدق الحقائق النفسية، وقد يتحول هذا الأسلوب إلى مجهر يلتقط أبسط الصور للنفس البشرية، ويقدمها في ثوب قشيب تتلقاه روح القارىء فتسعد به، ويتلقاه عقله فيركن إلى التأمل والتدبر على نحو ما نجده في حديثه عن جده السيد عبد الهادىء كتبي الذي يتخذ من الحديث عنه مناسبة لمناقشة قضية التقاليد الاجتماعية في يسر ولين حين يقول:

«إن المجتمعات قد تتطلب تحرراً من كل هذه القيود، فهو كما ورثنا التقيد بها لم يعلمنا الانطلاق منها متى استوجبت الحياة ذلك، وقد وجدنا أن المجتمعات تضيق ذرعاً بهذه القيود، ولا تطيقها إلا في حدود ضيقة معينة، وبذلك فقد ترك في نفوسنا عقدة بالنسبة لهذه الفضائل التي إذا لم تجد مجالها فإنها تؤدي إلى عكس النتيجة، كما ترك بتلك التربية ذات الوجه الواحد فجوةً واضحة بيننا، وبين كثير من الأوساط، وفي حالات كثيرة من ظروف المعيشة . .» .

Twitter: @abdulllah1994

هكذا يضع أديبنا في هذا الهدوء عاصفة تزلـزل أساليب التربية، وتنتقد العادات والتقاليد التي تتوارث عبر العصور دون أن تتمشى مع روح العصر وتطوراته، ورغم أنه يتحدث عن جده إلا أنه يقف موضوعياً من حالة اجتماعية يحذر الجيل الجديد من السير فيها.

وقد يتحول أسلوبه إلى عاطفة خالصة صادقة عندما يتحدث عن الذين يحبهم، وتحس أنك في إهاب شاعرية متدفقة تتحول فيها الصور الحسية إلى مسارب القلب وتشعره بجمال الروابط بين الناس على نحو ما يتحدث عن أخيه سامي، ويرسم لنا صورة رائعة للأخوة تدفع القارىء إلى الاشتيـاق لمثل هـذه الأخوة، وتذكي فيه حب الناس:

«ولقد احببته حبـاً طغى على قلبي حتى غلب عـلى حبي لنفسي، ولست أعرف أي تأثير لإنسان في الحياة يفوق تأثيره عليّ،وسيطرته على مسارب تفكيري، وطرائق حسي، وهو في حياتي كالقوة الخفية التي تسيرها على القرب والبعد، ولا تستطيع الافلات منها، ولقد وجدت في إخائه فضـل الأخوة وكـرامتها وجمالها وقوتهـا. . ».

وتتحول كلمات أديبنا إلى عاطفة خالصة مشبعة بمـوسيقى شاعرية حزينة عندما يتحدث عن زوجه التي وجد فيها عوضاً عن كل ما فقده في الحياة حين حرم من عاطفة الأمومة منذ طفولته،

Twitter: @abdulllah1994

وحين اختطف الموت أخته في شرخ الشباب فروّع قلبه بهذه الفاجعة واترع حزناً وأسى في وقت مبكر من شبابه لكن هذه التجربة القاسية قد رسمت في وجدانه صورة رائعة للمرأة ودورها في الحياة، وعلى هذا الأساس استقبل الحياة مع زوجه، ونظر إلى الدنيا من نافذة مشرقة، ومن زواية ايجابية، وصنع من آلامه الشخصية سلمًا يسمو به إلى المفاهيم الإنسانية، والتفاني في خدمتها، على نحو ما يقول عن زوجه:

«وقد شعرت بأن قلبي يترع بالسعادة، وان هناك أهدافاً يعيش لها المرء هي أسمى بكثير من نفسه».

لكنه يشتط في الرأي حين يقول:

«وقد وجدت زوجتي في الكتاب غريماً يجب القضاء عليه، فأعنتها عليه، ووجدت فيها خير عوض عنه. ولقد كنت وما زلت أعتقد أن المرأة والحياة أوسع كتاب يغني المرء دون أن يتم درسه أو يفرغ من معرفة حقائقه».

أما أن تكون المرأة والحياة أوسع كتاب يقرأ المرء فيه مدى الدهر فهذا صحيح وأما أن تكون المرأة عوضاً عن الكتاب والمكتبة فإني لا اتفق مع أديبنا في هذا الرأي لأن المرأة إذا كانت كتاباً مليئاً بالأسرار فإن الحياة بلا شك تحوي أكثر من كتاب، ولا اعتقد أن الأستاذ حسن كتبي يعني حرفياً ما يقول، لأن حياته الأدبية والعامة تشهد له بغير ذلك، تشهد له بأنه لم يهجر الكتاب،

Twitter: @abdulllah1994

وتشهد له بأنه قد أضاف إلى الحياة أكثر من كتاب بعد أن طرح هذا الرأي، ولا مجال للشك في أن هذا الرأي لا يعد إلا تعبيراً مجازياً لأثر المرأة الزوجة في حياته وهذا ليس بغريب لـــدى أديب شاعري مرهف الاحساس للناس والحيـــاة.

ومما يؤكد هذا أن حياة حسن كتبي قد تحولت إلى موسوعة عن الكثـير من الناس وللكثـير من الأحداث، وان نفســه قد انطبعت فيها الصور كما تنطبع النقوش في الحجر، وبالتالي يظل أثر الناس في حياته أثراً باقياً لا يمحي، ويتحول هذا الأثر إلى تجربة تطل بالعديد من المصابيح التي تضيء للسائرين من بعده في دروب الحياة. لهذا نجده يتحدث عن أثر الناس في حياته بعمق، ويحتشد عاطفيــاً ووجدانيــاً احتشاداً يـرتسم في أسلوبه وطريقة تصويره وكلماته حين يؤكد على الصلات بين الطبيعة والإنسان وبين الإنسان والإنسان حين يقول في عبـارة شفافـة موجزة:

«.. إذا كانت البيئة الطبيعية تترك أثرها الظاهر على من يعيش في أحضانها، فإن الصلات المكينة بين الأفراد تترك بدون شك أثراً واسعاً وقوياً مهما كان خفياً وغير محسوس».

ولعل خير أثر في حياة حسن كتبي يأتي مصداقاً لهذه العبارة، ذلك الأثر الذي تركه محمد علـي زينل في نفســه، وحفزه إلى

Twitter: @abdulllah1994

الحديث عنه بدقة ورسمه بتصور لا يتأتى إلا لروح قدرت هذا «الأستاذ» حق قدره وتشربت تعاليمه، واحبته حباً لا حدود له كما نرى في هذه الصورة:

«والحاج محمد علي زينل رضا. هذه الشخصية التي كنت وما زلت انظر فلا أجد حداً تنتهي عنده إلا إذا كان للزعامات البناءة حدود وللعبقريات رسوم، ولرسالة المصلحين العاملين المضحين غاية تنتهي عنده».

ومن هذه الصورة التي تقدمها لنا ريشة حسن كتبي نتعرف على الخلفية التي استند إليها في رسمها، ذلك لأنه لا ينظر إلى محمد علي زينل نظرةً عاطفية من زاوية شخصية، وإنما نظر إليه نظرةً موضوعية، فهو عنده لا يمثل ذاته فحسب، بل يمثل فكرة مستمرة سواء إن عاش زينل أو لم يعش، فالفكرة دائمًا باقية، لأنها رسالة تجد الكثير من معتنقيها، ومن القادرين على حملها، وبالتالي فغايتها لا تنتهـي.

إحســاسه المـرهـف

ويمتلك الأستاذ حسن كتبي مقدرةً فائقة على استحضار تجاربه وتمثل الأشخاص الذين التقى بهم في حياته تمثلاً كاملاً حسياً ومعنوياً. وهذا يؤكد على مقدرته البارعة في الملاحظة، وهي مقدرة لا يمتلكها إلا الأديب المرهف الاحساس، وقد جعله هذا يرسم صوراً فنية درامية ـ تقريباً ـ للأشخاص الذين عرفهم تجتمع فيهم كافة ملامح الحياة، ذلك لأنه في حديثه عنهم لا يكتفي

Twitter: @abdulllah1994

بتصويرهم من الناحية المعنوية، واستخلاص تجربته الشخصية معهم، فهذه مهمة يسهل على الإنسان العادي القيام بها، وإنما يركز أديبنا على الخصائص الجسمية والاوصاف الخارجية لهذه الشخصية ليقدمها لنا في صورة حية متحركة أمامنا، أفعالها تدل عليها، وتستبطن حقيقتها النفسية. وهو لا يقدم هذه الصورة بالأبيض أو الأسود فحسب بل يقدمها في مزيج بين اللونين ليس وفقاً لانطباعه الشخصي عنها وإنما حسب طبيعتها التي فطرت عليها ما أمكن على نحو ما نجد في رسمه لصورة مدرس له تحت عنوان «أنا هكذا» فيصف غروره في صورة حركية:

«... يتحدث بأسلوب خطابي عنيف حتى في المجاملات، وحتى إذا كان يعبر لك عن عواطفه نحوك، ويصحب حديثه دائماً بحركات عنيفة من يديه ورجليه وكل جسمه. أما أسارير وجهه فإنها تعبِّر تعبيرات أشد وأقوى عن ذات نفسه، يذكرني دائماً بعازف السيمفونيات القوية في حركاته وانفعالاته إذا امتزج بألحانه، وكانت تصور من قلبه».

لكنه يعطيه حقه من الجوانب الايجابية فيه، حين يؤكد بأن هذه الجوانب في شخصيته قد ساعدتهم لحد ما على تفهم درسه اضافة إلى امتلاكه المقدرة على تفهيم الدروس التي يقوم بها لتلاميذه من خلال ظرفه وحركاته وانفعالاته التي تجدد اقبالهم على الدروس بروح طيبة على أنه يختم حديثه عن تلك الشخصية بقوله:

Twitter: @abdulllah1994

«ولقد كان في وسع ذلك الشاب أن يكون أستاذاً ناجحاً لو خلت طباعه من ذلك الغرور».

قصصيــة أسلـوبـه

ويتحول الأستاذ حسن كتبي إلى قصاص بارع عندما يكتب عن الشيخ محمد صالح جمجوم وإيمانـه برسـالة العلم الخـالدة وحرصه عليها ثم يرسمه في لوحة قلمية نابضة بالحياة وبالحركة حتى ليظن القارىء نفسه يجلس إلى الشيخ جمجوم وهو يتحدث بمكنونات نفسه، لأنه كان مؤمناً إيماناً قوياً كاملاً برسالة العلم، رسالة مدارس الفلاح، رسالة محاربة الجهل والتخلف والجمود، وبمقدار الروح التي بثها الشيخ جمجوم في تلاميذه ونفخها في العديد من محبيه وعارفيه، يصوره أديبنـا في هذه اللوحـة القلمية الخـالدة ويجعلك:

« . . . تشعر في حديثه دائماً بروح الاشفاق على هذه الشعلة أن تنطفىء، وكان اشفاقه هذا لا يظهر فقط في طريقة تعبيره، ولا في مجرد حديثه ولكنه تعبير جارف قوي تشترك فيه جميع عضلات جسمه ـ وقد أوتي بسطة فيه ـ اشتراكاً عصبياً عنيفاً فترى نظراته معبِّرة اكمل تعبير وحواجبه وملامح وجهه حتى لون سحنته فإنه إذا تحدث في هذا الصدد تشعر بأن سحنته اخذت تحتقن، ويكاد الدم ينفر من مسامها وتبدأ يده تحمل عمامته من رأسه، وتطوح بها مع حركاتها يمنةً ويسرة وإلى أعلى وأسفل، ولا يلبث أن يعيدها إلى رأسه ليختطفها مرة أخرى، وكأنما لهذه العمامة

Twitter: @abdulllah1994

المباركة دور خاص في الاعراب عن ذات نفسه».

هذه الصور القصصية التي يقدمها أديبنا في مذكراته تؤكد على أنه يمتلك حس القاص الماهر الذكي الذي يراقب الحياة حوله، ويختزن منها أدق الصور، واعتقد أن الأستاذ حسن كتبي او وجّه مواهبه لكتابة القصة أو المسرحية لاستطاع أن يثري الحياة الأدبية في الجزيرة العربية بأعمال جيدة في فنين جديدين لم تعرفهما تربة المنطقة الأدبية. ولكن اتجاه الداعية صاحب الرسالة فيه غلب على اتجاه الفن عنده، وإن كنا نرى الفنان عنده يتغلغل في روحه وفي لا شعوره، ويظهر في أسلوب تفكيره وطريقة كتابته، حين يتجه إلى التعبير بالأسلوب القصصي أو البلاغي عن أفكاره، وذلك على اعتبار أن الروح الأدبية في أسلوبها وشكلها أكثر على القارىء أكثر من الأسلوب المباشر الجاف. فهو بدلاً من أن يقدم حديثه عن الشخصية الوصولية والانتهازية بصورة تقريرية مباشرة لا تثير ذهن القارىء ولا تشغل تفكيره، يقدمها في هذه الصورة التشبيهية ليعمق المعنى، ويثري المدلول، حين يقول:

«... تراه دائمًا كالحشرات التي تعيش عند أقدام الأشجار المثمرة تتخذ منها سكناً ورزقاً حسناً، فهي تسطو على الثمار، فإذا لم تصل إليها سطت على الورق أو اللحي والجذوع فإذا لم تتمكن من شيء من كل ذلك، وجهت سطوها إلى أعماق الأرض حيث الجذور فهي لا بد وأن تبلغ غايتها، ومن غريب

Twitter: @abdulllah1994

الطباع في هذه الحشرات الآدمية أنها تتجاهل حقيقتها فتريد أن تظهر بمظهر المخلوقات ذات الحول والطول والسلطان..».

على هذا نستطيع أن نقول ان الأستاذ حسن كتبي كان في كتابة السيرة فناناً ومفكراً، ذلك لأنه لم يقدم لنا حياته في قالب سردي ممل، بل لم يقدم لنا حياته كلها، وإنما قدم ما يراه يخدم هذا الجيل في مسيرته ثم إنه قدم هذه الجواهر الثمينة من تجاربه في الحياة والناس في أشكال فنية متعددة، فتجده في العديد من الأحوال لا يعني بالحديث عن الشخصية نفسها وإنما يعنى بالظروف والملابسات التي وجدت فيها هذه الشخصية، أو يتحدث عن هذه الشخصية كحالة نفسية أو اجتماعية، فكل ما يهمه هو «المبادىء» وصراع هذه الشخصيات مع المبادىء أو عليها، وبالتالي فإن حديثه عن الناس الذين عرفهم يتحول إلى صور من الاحتدام والتوتر، ولكن كثيراً ما يتحول إلى معركة موضوعية، لذلك نرى حياته في النهاية عبارة عن ملحمة تموج بالصراع، الصراع الذي خلقه حسن كتبي في سبيل المبادىء التي عانقها منذ صباه، والتي وعد أستاذه محمد علي زينل، بالعض عليها بالنواجذ، ولكن هذا الوعد كان بمثابة الجذوة التي اشعلت النار في نفس أديبنا، هذه النار التي نراها في حياته تتحول إلى طاقة قوية لا تعرف اليأس والكلل والملل في سبيل الجهاد من أجل الغايات النبيلة التي نذر نفسه لها، لتحرق أعداء الحياة لكنها تنزل برداً وسلاماً على الذين يعانقون كل نبيل وجميل ورائع في الحياة،

Twitter: @abdulllah1994

والذين يخدمون المبادىء العليا للإنسانية، وفي مقدمتها هذا «الدين» ، «الإسلام» .

ومما يؤكد أيضاً أن أديبنا كان يحرص كل الحرص على نقاء حياته، وبالتالي رسالته في هذه الحياة حين نجده يسخر معظم طاقاته في سبيلها، ورغم غنى تجاربه في الحياة إلا أنه تواضع في تقديمها، ولم يقدمها بالفعل إلا عندما طلب منه ذلك وألح عليه فيها المدير العام للصحافة والنشر السابق الأستاذ عبد الله بلخير.
ثم نجد أديبنا يؤكد في كتاب حياته الثاني على موقفه مما كتب:

«بهذه الصور لست أترجم لأحد بعينه، وإنما أعبر عن ذات نفسي، عن مشاعري، عن الاصداء التي أثرت في مجرى حياتي كفرد يعيش في مجموعة، وينفعل بها، وتتحول اتجاهاته بما تترك تلك الانفعالات في حياته من آثار. . » .

في الدائرة العالميــة

وإذا كان أديبنا قد تنقل في عددٍ كبير من دوائر الكفاح، فإن دائرته الأولى والأساسية حقل التعليم، وعرفنا ما ناله في معركته مع الجامدين وأعداء التطور. فإنه لم يرفع جناحيه عن حقل التعليم إلا ليحلَق في فضاء أوسع وأرحب حين رأى دائرة التعليم تتسع ، وان سنة التطور ـ بحكم الزمن ـ تفرض نفسها على أعدائها ، وان الظلام ـ بلا شك ـ بدأ يفرّ متراجعاً أمام أنوار الصباح، لأن العديد من الأيدي الأمينة قد بدأت تتحرك.

Twitter: @abdulllah1994

ترك أديبنا الأستاذ حسن كتبي هذا كله، ليتحرك برسالته في دائرة عالمية يلتقي بالعديد من الناس ويزور العديد من البلاد في الشرق والغرب يحمل في قلبه نور الإيمان وفي عقله فكرة الإسلام داعياً بالتي هي أحسن، تاركاً خلفه عقولاً تتأمل وتتدبر، وتسعى من بعده سعياً حثيثاً للتعرف على «الإسلام» وللتشوق «للعروبة».

وهو بهذا يقدم «الإسلام» في صورته الخالدة في كل زمان ومكان، وعلى اعتباره ملجأ الإنسانية الأخير وملاذها في محنتها المعاصرة، فهو البديل الوحيد للمد الحضاري المادي المخيف الذي يبتلع القيم الإنسانية ويهدرها تحت العديد من العناوين والشعارات الزائفة.

لذلك نجد أديبنا الداعية يحلل أسباب القلق الروحي الذي يعيشه الإنسان المعاصر، ويرجعه إلى ما يسميه «جاهلية العلم»، ويقف في المؤتمر الإسلامي في باكستان في سنة ١٣٩٦ هـ، يقول بثقة:

«إننا نعيش فترةً جاهلية ليست ناشئة عن انغلاق العقول، وانتشار الأمية، وانعدام المعرفة... ولكنها جاهلية ناشئة عن التوسع في العلوم المادية والطبيعية والتكنولوجية والكونية مع التنكر لأهم شيء يجب أن يصاحب المعرفة وهو الإيمان «بالغيب»، ذلك الإيمان الذي يمثل القاعدة الروحية التي تقوم عليها مقومات العقيدة، وينطلق منها النور الهادي للعلم، وأي اكتشاف علمي لم

Twitter: @abdulllah1994

يكن غيباً من غيب الله قبل معرفة قوانينه والوصول إلى كنهه ؟! »..

هكذا يقدم حسن كتبي الدليل على فساد الحضارة المعاصرة، ويستمد هذا الدليل من صميم عقيدته الإسلامية، وروحه العربية الأصيلة مؤمناً بأن الأمة التي حملت المشاعل في ظلام العالم لن تتوقف عن السير حتى يضاء الكون كله برسالة محمد ﷺ ، التي هي رسالة الأمة العربية تجاه الإنسانية جمعاء،

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾
صدق الله العظيم

خاتمة :

وفي الأخير، فإني أرجو أن يسمح لي «الرجل» الذي عمل في صمت وترك أعماله تحدث الجيل العربي عنه، فليسمح لي أن أتحدث عنه ـ هنا ـ كأحد أبناء هذا الجيل المسلم الذين تشرّبوا تجربته الرائدة، ومع ذلك لا أعتقد أني قد تحدثت عن «حسن كتبي» كفرد، ولكني تحدثت عن «حسن كتبي» كثروة أدبية، وقيمة فكرية ثمينة، ومجموعة من المبادىء التي لا تلين أمام الصعاب.

محمد أبو بكر حميد — **في ٦ / ٢ / ١٤٠٢ هـ**
جـدة — **الموافق ١ / ١٢ / ١٩٨١ م**

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

ذكرياتُ صَديق

Twitter: @abdulllah1994

إنها للفتة كريمة تلك التي أوحت إلى صاحب هذه الترجمة أن يختارني ثاني اثنين ليعلقا عليها ويضيفا إليها ما لديهما من ذكريات.

أما صديقي الأستاذ عبد الله بلخير فحري بأن يختاره صاحب الترجمة لأدبه وفضله ولما بينهما من طويل المعاشرة ومديد الصحبة ما لم يتح لي مثله.

أجل إني أعلم أن صاحب الترجمة ينزلني من نفسه منزلة المحب المكرم وإني لأعتز بذلك وأعده من نعم الله علي. وأعلم كذلك أن له في نفسي منزلة كريمة قلما يسمو إليها صديق من أصدقائي على قصر المدة التي تلاقينا فيها تحت سماء (الطائف) عند مروري بالحجاز في طريقي إلى مصر منذ أكثر من عشرين عاماً. إذ كانت أياماً معدودة ثم فرق الدهر بيننا أمداً طويلاً إلى أن قدر لنا أن نجتمع مرة أخرى في القاهرة. وقد شغلته شواغل التجارة فلم تدع له فرصة للقاء صديقه القديم إلا سويعات تختلسُ اختلاساً.

أتراه قد استشف تلك الحقيقة التي كنت أظنها مستترة في أعماق نفسي لا يعلمها غيري ولم أفض بها إلى أحد إذ لم تعن

Twitter: @abdulllah1994

لي مناسبة لذلك. تلك الحقيقة هي أن الأثر الذي تركه في نفسي في صحبتي القصيرة له في ربوع الطائف كان من العمق بحيث لا تستطيع السنون الطويلة أن تبليه أو تنال منه.

إني في العادة ضعيف الذاكرة وقد صحبت كثيراً من الناس صحبة تطول وتقصر فلا ألبث أن أنسى الكثير من ذكرياتي معهم إذا ما بعدت الشقة بيني وبينهم ولكن «حسن كتبي» ذلك الشاب الأديب المتوثب، ذو الحماسة المتقدة، والحركة الدائبة في التحصيل والاطلاع، والعين الفاحصة لكل ما يعرض له من شؤون الحياة في الناس وفي الكتب، في جد يشبه اللهو لفرط استمتاعه واستمرائه إياه ـ قد بقي رغم الفراق الطويل وبعد الشقة وانقطاع أسباب الاتصال من مكاتبة أو مراسلة، ماثلاً في قلبي على الدوام، شاخصاً أمام عيني لا تبرحني صورته واضحة قوية كأنما لم افترق عنه إلا منذ ليال.

تعرفت إلى الأستاذ حسن كتبي في الطائف كما قدمت ولا اتذكر الآن كيف التقينا أول مرة ولكني أذكر أني أحببته وقدرته من أول تعارف بيننا وشعرت كأنما كنت أعرفه من قديم.

كنت إذ ذاك شديد التعطش للقاء الأدباء عظيم الحرص على اجتلاء ما يكون لديهم من لون جديد من ألوان الأدب فسرعان ما اكتشفت أني بين يدي أديب يختلف مفهوم الأدب عنده عن مفهومه عند الكثير، فهو يرى الأدب جداً لا لهواً، ويرى الأدب

Twitter: @abdulllah1994

ضرورة لا ترفاً، وهو يزاوله لا على أنه حرفة من الحرف بل على أنه رسالة يضطلع بها نحو وطنه وقومه وملته وهو يندفع اندفاعاً جامحاً في سبيل أداء هذه الرسالة بحماسة تملأ أقطار نفسه وتلتهب حتى انها لتلفح بحرارتها وجه جليسه.

ووجدت كذلك أن له اتجاهاً في نقد الأدب وتقويمه يقوم على اسس علمية ويعتمد على الاستيعاب الشامل والاستقراء الدقيق والاستبطان العميق. وكان ذلك جديداً عليّ إذ ذاك فاشتد تعلقي به. وكنت أجد في الجلوس إليه متعة ذهنية لا توصف، فكانت الساعات تمر علينا دون أن نشعر.

وكان الحديث يتشعب بنا في أفانين شتى من الأدب والشعر. وكنت ربما اختلف معه في بعض الرأي فما يزال يدلي بحجة بعد حجة في منطق متسلسل حتى يقنعني في أكثر الأحيان.

وأتذكر الآن من وجوه اختلافنا في الرأي أنه كان يفضّل أبا العلاء المعري، وكنت أميل إلى تفضيل أبي الطيب المتنبي ولم يستطع هو أن يزحزحني عن رأيي كما لم استطع أن أزحزحه عن رايه وأنا اورد هذا لأوضح به الآن جانباً من جوانب تفكير صاحب الترجمة يتفق مع ما اشرت إليه آنفاً من أن مفهوم الأدب عنده كان متقدماً على مفهوم الأدب عندي، فلا ريب أن شعر أبي العلاء الذي لم يتكسب بشعره بل اتخذه مرآة تعكس نظرته إلى الحياة والأحياء وعبر به عن عاطفته الإنسانية الغامرة لكل ما في

Twitter: @abdulllah1994

الكون من حيوان وجماد أشرف وأثمن وأحق بالدرس والاهتمام من أشعار المديح والهجاء.

وأحب أن أسجل هنا أيضاً مثلاً من تواضع صاحب الترجمة وخلوص مودته ونبل عاطفته أنه احتفى بما عرضت عليه من شعري إذ ذاك. واهتم به اهتماماً عظيمًا حتى انه كتب دراسة نفيسة عنه. ثم إنه شجعني على اتمام ما بدأته هناك من المسرحية الشعرية التي نشرت بعد ذلك باسم (همام أو في عاصمة الاحقاف) واعترف أني ما كنت لاتمها لولا ما لقيت من تشجيع هذا الصديق الكريم.

وبعد فهذه لمعة يسيرة عن صاحب الترجمة ربما لا تزيد القارىء علمًا به، بعد أن يقرأ هذه الترجمة الدقيقة الصادقة التي خطها بقلمه واستطاع أن يفلسف الأحداث التي مرت به فلسفة حية موحية.

وماذا عساي أن اعلق عليها؟ إنها تشرح نفسها بنفسها بما يغني عن كل تعليق. وقصارى ما يمكنني قوله أن الأستاذ «حسن كتبي» قد استطاع بقلمه السيال وأسلوبه البارع أن يصوغ من وقائع حياته قصة إنسانية جليلة تنبض بالحياة وتتسم بالصدق، وتجمع بين البساطة والعمق، وتزخر بالعبرة، وتفيض بشتى الأحاسيس والانفعالات، وتقف بالقارىء وجهاً لوجه أمام ذلك المجهول الرهيب الذي يدعى (القدر) والذي يتسلل إلى غايته

Twitter: @abdulllah1994

المرسومة من ألف طريق وطريق ولكنها بعد لا تدعو القارىء إلى التواكل والاستسلام، بل تهيب به أن امض قدماً في طريقك نحو الغاية الشريفة التي تقصدها بكل ما لديك من عزم وقوة، وقدرة وعلم. ولا عليك بعد ذلك أن تبلغ تلك الغاية أو يعدل بك القدر الغالب إلى غاية أخرى عسى أن تكون خيراً لك من الأولى ﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾.

إنها قصة نفس مكافحة مؤمنة صابرة شعارها أن الحياة جهاد، وان السير في الطريق السوي وصول، وإن الأمر لله من قبل ومن بعد، فما أحراها أن يهديها صاحبها إلى كل طالب في المدرسة، وفي الحياة.

علي أحمد باكثير

القاهرة

١٨ ربيع الثاني ١٣٧٦.

٢١ نوفمبر ١٩٥٦.

Twitter: @abdulllah1994

حضرة الأستاذ الفاضل السيد حسن كتبي القاهرة.

بعد التحية.. يسرنا أن نشعركم أن هذه المديرية سوف تفرد في أرشيفها قسمًا خاصاً للأدباء والصحفيين السعوديين، وبما أن هذا القسم في حاجة إلى كثير من الصور المشار إليها لحفظها في الأرشيف المذكور لهذا نأمل منكم موافاتنا إما بالفيلم الأصلي لصورة من صوركم لكي نستطيع أن نطبع منه المقادير التي نريدها لشتى المناسبات، وفي حالة تعذر ذلك، أرجو ارسال صورة لكم لنضمها إلى سجلاتنا مع كلمة عن تاريخ حياتكم والمدارس التي تلقيتم العلم بها والنشاط الأدبي والثقافي الذي لكم أو المؤلفات التي قمتم بكتابتها والوظائف التي شغلتموها سابقاً والوظيفة الحالية التي تضطلعون بأعبائها.

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم للأخ الكريم تحياتي وشكري..

عبد الله بلخير

المدير العام للإذاعة والصحافة والنشر

Twitter: @abdulllah1994

أخي الكريم عبد الله بلخيـــر.

تحية واحتراماً ـ وبعد:

تلقيت رسالتكم الكريمة التي تنوه عن المشروع الكريم الذي اعتزمتم تنفيذه وهو ايجاد مجموعة تراجم الأدباء السعوديين وصورهم والاحتفاظ بها في مديرية الاذاعة والنشر، ولا شك أن هذا مشروع يستحق التقدير والثناء والاعجاب فإن كل جيل في كل أمة له طابعه ومتى انتهى ولم يترك صدى واضحاً وأثراً ملموساً يكون كالحلقة المفقودة من سلسلة التاريخ لتلك الأمة وحياتها وتطوراتها.

ولقد تقبلت الدعوة بهذا الشعور وبدأت أضع خلاصة لما اردت ولكني حين بدأت أستعرض حياتي التي نبهتني بفضل خطابكم لأسجل بعض صورها لم أتمالك إعادة الصمام إلى موضعه فانطلقت الخواطر مزمجرة من وراء الماضي وتدفقت. وكأنما عرفت نفسي اليوم والساعة ووجدتني تحت تأثير فيض من العوامل والمؤثرات كل ينادي بنصيبه في تكوين هذا الكائن الحي الذي يسمونه «حسن كتبي» وكل يلوح بأثره في تركيبه العاطفي والأخلاقي ونجاحه واخفاقه، وبدأت أسجل وأسجل وانشغلت

Twitter: @abdulllah1994

بهذه المهمة انشغالاً تاماً على كثرة مسؤولياتي وضيق وقتي ولكني بدأت ألبي طلبك ولعلك، لا تحتاج في سجلك لكثير مما سجلت ولكني اعتزمت أن أحاول طبع حياتي في كراس أوزعه على مواطني وأرجو أن يكون فيه عبرة في كثير من النواحي الدراسية والاجتماعية وليكون فكرة عن ما يعتري المرء في اتجاه حياته من تحويل ينقله من العكس إلى العكس.

ولك من أخيك أطيب التحية.

المخلص

حسن محمد كتبي

تمهيد

إلى كل طالب في مدرسة الحياة أقدم قصة إنسان يصف لهم الطريق الذي مر فيه، ويصف لهم ما صادفه من حيرة واطمئنان، وتردد وإيمان، وكيف بدأ حياته في اتجاه وانتهى في اتجاه معاكس، كيف بدأ متحمساً للعلوم الدينية وكرس حياته لدراسة الشريعة الإسلامية وعلومها واللغة العربية وآدابها وقام بتدريس القضاء والأدب العربي، وقد كان راضياً كل الرضى بالاتجاه الذي يسير فيه والخطى التي يترسمها ومتحمساً لمبادئه تحمس المؤمن لعقيدته، ولقد أخذت الأحداث تقفز قفزاً سريعاً على مركبة سحرية ترتفع به حيناً وتهوي به حيناً وهي مسرعة تلف الفضاء اللانهائي وقد استمات في التمسك بحلقاتها خشية أن ترمي به وهي مسرعة سرعتها الجنونية في الفضاء المجهول الذي لا تعرف له غاية ولا نستبين له نهاية.

وبدلاً من أن يكتب هذه الحياة وهو جالس على مقعد وثير، إلى جانبه محبرة ضخمة وبين يديه كراريس العلم وهو يلبس الرداء الفضفاض ويكور العمة على رأسه كورة بعد كورة ولا يفكر إلا فيما أورده المفسرون ونقله المحشون واعترض به

Twitter: @abdulllah1994

المعترضون ودفع عنه المجتهدون وكانت تلك أمنيتـه المثلى ومثله الأعلى.

يكتبها وهو لابس بدلة افرنجية وجالس على مكتب حديث وبقلم يغذيه حبـره من جوفـه وليس يكتب ما أورده الشـراح والمفسرون ولكنه يكتب ما أملته عليه الحياة وتياراتها وعواصفها التي ألقت به بعيداً عن نطاق الشروح والحواشي وطوفت به في شتى فنونها وشجونها ونقلته من مجهول إلى معلوم ومن معلوم إلى مجهول ومن حيرة إلى بصيرة ومن بصيرة إلى حيرة ومن أحزان إلى مسرة ومن مسرة إلى أحزان.

فإلى أبنائي الطلبة في المدراس...
وإلى كل طالب.. في مدرسة الحياة.

أهدي حياتي هذه ليأنسوا بما فيها من حيرة في حيرتهم وما فيها من بصيرة لبصيرتهم.

وإني أرجو أن يعرف الكل بأنني أقدم لهم وصفاً صادقاً أميناً للحياة العامة ينبض بالحياة ويفيض بالعبرة.

وصفاً حياً دقيقاً لمشاعر وإحساسات لم تزل تعـالج الحيـاة وتتشبث بأهدابها وآمل أن يستفيـد الإنسان المسلم من خيـرها وشرها من غير أن يكلف نفسه عناء التجربة ولا أن يذوق مرارتها أو يتلوع بلوعتها.

Twitter: @abdulllah1994

والحياة كتاب مهما قرأه الإنسان فإنه ليس يحلو له إلا أن يجرب حقائقه بنفسه لأن لذة الحياة في آلامها وكما قال المتنبي:

وبضدهـا تتميز الأشيـاء

ولكن الحقائق التي يجد مجربها علامة قائمة على رأسها يأنس عند تجربته إذا كانت قاسية ـ بتلك العلامة ويشعر بأن أرواح جميع من مروا قبله بتلك التجربة متمثلة في تلك العلامة التي تشير إلى أن هذا الطريق ـ على وحشته ـ مطروق وان أصداء من طرقوه وأنفاسهم لم تزل محيطة به فينفي شعوره بمن حوله من أرواح مؤانسة ـ الوحشة والهلع الناجمين عن مخاطراته في التجربة، وستبقى الدنيا على حالها وتستمر الحياة في تقلباتها ـ سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فإذا كان سعيد الحظ ميمون الطالع وجد ماء ولكنه يشرب منه فلا يرتوي وكلما استمر في شرابه تضاعف ظمأه ويترك دنياه سليباً كما دخلها بغروره وتدفق حيويته سالباً. وقد ترك المتنبي على ناصية هذا الطريق علامة يأنس بها من بعده إذ يقول:

سبقنا إلى الدنيا فلو عـاش أهلهـا
منعنـا بهـا من جيئة وذهـوب
تملكهـا الآتي تملك سـالـب
وفـارقهـا المـاضي فـراق سليب

Twitter: @abdulllah1994

ولا خــير فيهــا للشجــاعــة والنــدى

وصبــر الفــتى لــولا لقــاء شعــوب

فإذا تملك الإنسان غرور الشباب الذي يصحب الحياة المبكرة دائمًا ورسم في خاطره الطريق الذي سيسلكه والغايات التي يصبو إليها والآفاق التي يغزوها ويحلق في سمائها وقرر في نشوة غروره المصير الذي يرسمه لنفسه فإني أرجو أن يتطامن قليلاً ويحني رأسه للآية الكريمة:

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله، واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾.

فحياة الفرد مخلوقة بيد القدرة وليس بإرادة الفرد ولكن أجمل ما في الحياة غرورها وأزهى ما فيها الخيال الذي يحلق المرء على أجنحته، وكل من حرم نعمة الغـرور ولذة الخيـال فقد حـرم الشخصية وحرم لذة الكفاح وحرم لذة النصر.

وما دامت الحياة مخلوقة بخالقها وليست مصنوعة بصانعها وما دامت لذتها وجمالها وفرحتها في أن يتصور الفرد أن له القدرة على تكييفها فليس عليه إلا أن يمشي في الطريق الذي رسمته له يد القدرة في أعماق الغيب وينحدر في منحدراتها حتى إذا ارتفع به الطريق ارتفع معه في مرتفعاته فإذا مال به يميناً تبعـه ويمضي كذلك مع طريقه قدماً إلى الغاية المرسومة بقدرة قادر حكيم ولكن

Twitter: @abdulllah1994

يجب أن لا يفقد شعوره بذاتيته وأن يحاول معالجة الشؤون التي تمر به أو يمر بها في طريقه بثقة نفسية عالية، وإحساس كامل بوجوده، وإحساس كامل بجميع صفات هذا الوجود من قدرة واختيار وعلم وطموح واصرار وعناد وخير وشر ورأي واستقلال.

ومتى استطاع الفرد أن ينسق بين غرائزه الفطرية والحقائق العليا في هذا الكون فقد استطاع أن يجد السعادة في قرارة نفسه، سعادة الرضى بالمكروه كسعادة الرضى بالمحبوب فإذا أفضت به المقدمات التي جاهد في ترتيبها إلى عكس النتيجة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر شعر بالرضى لهذه النتيجة ولو أنها جاءت على عكس مقدماتها وعلى عكس ما يريد فليست هي النتائج التي شذت على مقدماتها ولا المسببات خرجت على أسبابها ولكنها الطريق المرسومة انحرفت بها يميناً أو شمالاً بقدرة قادر حكيم وعلى أسلوب محكم دقيق عظيم.

﴿واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

هٰذِهِ حَيَاتِي

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

١

ولدت في شهر شعبان سنة ١٣٢٩ هجرية بمدينة الطائف من والدين كل منهما ابن عم للآخر، وأعني بهذا اننا درجنا في بيت يسوده الوفاق والتفاهم والمشاعر الطيبة المتبادلة وتوفيت والدتي قبل أن أفقه معاني الحياة وكنت أحد ثلاثة اخوة فكانت وفاة والدتنا حادث له أثر كبير في أن يضم قلب كل واحد منا إلى أخيه بلون من التعاطف والتراحم الفطري الساذج وكان لهذا الامتزاج العاطفي في فجر حياتي باخواني أثر كبير في تكوين كثير من النواحي النفسية والفكرية في مزاجي، فقد نشأت معي إحساسات داخلية تدفعني إلى الحاجة الدائمة لأن تغمرني عاطفة وان تجد هذه العاطفة مجالاً خارجياً تعلق به وتتجه إليه. وفي كثير من الأحيان كانت هذه الغريزة مثار شقاء نفسي حين تتوفر العواطف ولا توفق في اختيار مجالها إذ تكبدني في اندفاعها إلى المبالغة في الشعور بإحساسات الآخرين والتخيل في تصوير مشاعرهم وتزجني بحماس إلى تحمل أعبائهم حتى ليلذ لي أن اشقى ليسعدوا وأتعب لأشعر براحتهم، ولقد أودت بي هذه الغريزة مرة إلى نتائج أوشكت أن تقضي على حياتي. وكما كان لهذه الغريزة أثرها السيء في مجرى حياتي، فإنها كثيراً ما وفرت لي ألواناً من السعادة والغبطة متى توفقت في اختيار مجالها،

Twitter: @abdulllah1994

ولست أبالغ إذا قلت أنها أساس لكل نجاح صادفني في حياتي حيث قدر لي أن أوفق وأنجح.

* * *

ونشأت في وسط محافظ على التقاليد العريقة ذات الطابع الأصيل في البيوت الحجازية، تقاليد حساسة حتى ليشعر الخارج على شيء منها أن الاستنكار يلاحقه من أعماق نفسه ومن الخارج ثم هي تقاليد شاملة في المأكل والملبس والكلام والحركات وبحسب درجات العشراء والخلطاء. ثم هي تقاليد مصبوغة بصبغة يتحكم فيها سلطان الأخلاق وسلطان الدين وسلطان البيت المشبع بهذه الروح، وسلطان المدرسة ـ مدرسة الفلاح ـ الذي يتولى تفسير جميع هذه المعاني وتركيزها وربطها برباط قوي من المشاعر الفطرية والاحساسات اللاشعورية، وكان على رأس هذه المدرسة في الدور الذي عاشرناه شخصية جامعة لكل هذه المعاني ويوشك أن يكون مثلاً حياً لمجموعها، والمعاني التي عنيت هي ـ التقاليد العريقة في أقوى سلطانها مصحوبة بالانطباعات الدينية والأخلاقية، ذلك هو المغفور له الشيخ عبد الله حمدوه وهو رجل سوداني طويل القامة، معروق السحنة، حادّ النظرات، غائر الابتسامة، عميق الصوت، جاد كل الجد إلى حد الصرامة في حديثه ونبرات صوته، يحمل روحاً طاهرة مؤمنة بالله مؤمنة بالخير، فكان سلطانه على الأسرة المدرسية جميعها من أساتيذ وطلبة سلطاناً شاملاً لا ينفذ منه صغير ولا كبير وكان سلطانه

Twitter: @abdulllah1994

بصور الحلقة الواسعة التي تلتقي فيها جميع السلطات التي سبق التنويه عنها والتي كانت تحيط بنشأتي، ولا شك أن هذه العوامل جميعها تركت أعظم الأثر في أسلوب تفكيري وعلاقاتي الخارجية وطريقة استقبالي لشؤون الحياة العامة والخاصة.

* * *

وكانت العلوم التي تدرس لنا في مدرسة الفلاح لا تخرج عن نطاق اللغة العربية والدين فصادفت تجاوباً من التربية المنزلية التي تربيتها والبيئة التي نشأت في وسطها.

حفظت القرآن ودرست تفسيره والأحاديث النبوية والفقه وأصوله على أساتيذ تقمصت فيهم أرواح قدماء المؤلفين فهم وإن كانوا يعيشون في هذا الجيل بأشباحهم ولكن أرواحهم منطبعة إلى حد كبير بالطابع التقليدي الذي درسوه عن شيوخهم ووجدوا من الاخلاص والوفاء لهم أن يتشبهوا بهم فحبسوا أرواحهم وعقولهم في أقفاص من أصداء الأجيال الماضية لأنهم آمنوا بالعلماء الذين ورثوا عنهم العلم وتعدى إيمانهم بعلومهم إلى الإيمان بشخصياتهم ووجدوا أن من تعظيم العلم وتقدير العلماء التشبه بأساليب معاشهم فأطلقوا أعنة خيالهم في تصور مجالس هذا السلف ومعاشهم وغدواتهم وروحاتهم ومخالطاتهم وتقشفهم في معاشهم وأساليبهم في الدرس والتفكير ومعالجة المواضيع واتخذوا من التراجم المنقولة عنهم مادة غنية تغذي تلك العاطفة الجامحة في تقليد الشيوخ.

Twitter: @abdulllah1994

وكان ذلك التجاوب بين فطرتي ومواضيع الدراسة يساعد على إقبالي على هذا النوع من الدروس وعلى نفس الطريقة التي كنت أرى أساتيذي يتقيدون بها ويحرصون على تقليدها، وزادني إمعاناً في هذا السبيل ما كنت أسمعه عن سيرة أجدادي الذين كانوا يتمتعون بشهرة واسعة في العلوم الدينية وكيف كانوا بحوراً في العلم والمعرفة وكيف كانوا يزهدون في الاقبال على الدنيا ويعفون عن زخرفها وما لهم من صلة وثيقة بالتصوف والأخذ بمذاهب المتصوفين في حياتهم الخاصة ونكران أنفسهم وابتعادهم عن ميادين الصراع والتزاحم التي يلتقي الأحياء في حومتها.

لقد اكتملت هذه الأحاسيس في روحي ونضجت في وقت مبكر جداً من عمري حتى لقد كانت تدفعني لاستباق الزمن، وأذكر كيف كنت في سن الثامنة عشرة من عمري أعتكف في غرفة لا يعرف الضوء منفذاً إلى قلبها إلا من خصاص بابها الصغير وإلا من كوة وضعت كعلامة تميز ذلك الباب في أعلاه وتنبه إلى وجوده لأكد ذهني في حفظ كتاب من الغاز كتب أصول الفقه اسمه «جمع الجوامع»، وكنت أبذل مجهوداً عنيفاً حتى أتمكن من القدرة على قراءة عبارات ذلك اللغز المعقد قراءة صحيحة وكنت أشعر بمنتهى الغبطة إذا استطاعت ذاكرتي الضعيفة المكدودة أن تعي بعض جمل منه ويتمكن لساني من ترديدها ولو عن غير فهم أشعر في قرارة نفسي بمنتهى الغبطة والرضى إذ أحس بأن نفحة من روح المؤلف رحمه الله قد حلت في جسمي الصغير

Twitter: @abdulllah1994

ورفعت من معنويتي حتى لأشعر أني بهذه النفحة المباركة قد وضعت في صفوف العلماء الأعلام أو في طرف من أطراف تلك الصفوف على أقل تقدير، وكان اسمى أمل لي في الحياة أن أجدني في يوم من الأيام في المسجد الحرام وحولي هالة من الطلبة الذين يخطئهم العدد في أيديهم كراريس العلوم التي كنت أدرسها وكأنما على رؤوسهم الطير وأنا أنثر عليهم العلم والمعرفة كما كان يفعل أساتيذي وكما انطبع في نفسي من صور وأخيلة للقدماء من أساتيذهم، ولقد كان معيار النجاح لدي هو مقدار ما أشعر به من توغل في هذا الطريق الموحش الطويل، وأعظم لذة هو ما أبذله من جهد وعناء في ادراك تلك الغاية المجهولة، وليست الغاية هي العلم فقط ولكن شخصيات العلماء وكيف كانوا لنكون على شاكلتهم. ولقد كانت تتضاءل في عيني جميع المثل الحية والغايات الواضحة بينما تدفعني تلك العوامل الصاخبة المتفاعلة إلى دياجر من المجهول.

ما هو؟

وأين هو؟

وما هي غاياته؟

لم أسأل نفسي عن شيء من ذلك لأنني لم أجد ما ينبهني الشيء من هذه الأسئلة، لقد كانت تلك الشخصيات المعروفة اللامعة في محيط العلم والعلماء والمجهولة في الواقع والحقيقة التي يدخلها أساتيذنا إلى روعنا بما يشبه الايحاء، يدخلونها إلى أخيلتنا

Twitter: @abdulllah1994

في صور من الأشباح المتحركة •التي تحاول أن تنفذ إلى وصفها ومعالمها فتغيب عنك حتى إذا ما ارتحت لحظة من التفكير فيها بدت لك ثانية تدعوك وتهتف بك على اعتبارها المثل العليا التي يجب الاحتذاء بها في الحياة.

ولقد كانت الدعوة متصلة في غير نتيجة، وكلما نفخ الأستاذ في روح صورة من تلك الصور ظهرت قريبة إلى الخيال حتى إذا حاول الإنسان تلمسها وجد نفسه يسير في عماء متصل، وكانت النتيجة لهذه العملية أن شعرت في تلك الفترة من حياتي أنني أعيش دائمًا في المجهول.

في صحبة من حملة مصابيح العلم والمعرفة أبحث عن صورهم في نفسي فلا استوضحها وكلما زاد تعلقي بهم واستكناهي لحقيقة حياتهم بعدت عن الواقع، عن الحياة المرحة المحسوسة الملموسة، ولكني كنت سعيداً راضياً في أحلامي مؤمناً كل الايمان بهذه الصحبة المجهولة والصحاب الخياليين الذين أعيش في أطراف مجالسهم في حالة من الخشوع والتقدير والاعجاب والاقتداء.

وقد شعر أساتيذي باخلاصي العميق لهذه المثل التي نصبوها بين أعيننا، فمنا من آمن بها ومنا من لم يأخذ نفسه بشدة وحرص للاقتداء بها فكانوا يغذون حماسي ببعض عبارات الاطراء والتقدير التي تدفعني قدماً إلى الامام.

Twitter: @abdulllah1994

حتى كان عام ١٣٤٨ حين وفد إلى مكة المكرمة مؤسس مدارس الفلاح الحاج محمد علي زينل رضا وهو شخص بالنسبة للجيل الذي نعيش فيه وبالنسبة لبلادنا يعتبر (المنقذ) لها بحق.
المنقذ الذي اقتحم عرين الأسد المتوحش لينقذ الفريسة من بين براثنه. فقد كانت الحكومة العثمانية تقضي في إصرار وخبث على جميع مقومات الشخصية الاجتماعية لسكان هذا البلد بالجهل والخرافات وتبث في الروح العامة المتخبطة في الجهالة سموماً فتاكة تصوغها في عبارات دينية خلابة، البركة، وأهل الحرمين وجيران بيت الله. وتعني بهذا أن لهم أن يرتكبوا ما يرتكبون من مآثم وجهل وتأخر وبعد ذلك هم في حمى من البركات التي صبت في أرواحهم وحصانة من الجوار الكريم الـذي اختصهم الله به.
وكانت تحارب المتعلمين وتجتهد أن يعيش هذا الشعب بل الشعب العربي أجمع في سبات وغفلة وجهل لتمكن لخلافتها أن تدوم ويدوم على عرشها خادم الحرمين الشريفـين وخاقـان المشرقـين والمغربين السلطان ابن السلطان إلى غير ذلك من سخافات الحكام الظالمين التي ترتكز على ضعف الشعوب وجهلها وسخفها فأورى ذلك المنقذ شعلة الحرب على تلك السياسة الغـاشمة وفضـح أساليبها وصمد في أداء رسالته في صبر المؤمنين وجلد الصابرين حتى بلغ غايته في تأسيس مدارس الفلاح في جدة ومكة والبحرين ودبي ومهد الطريق للنهضة العلمية الشاملة الكبرى التي أرسى قواعدها العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز في جميع أنحاء

Twitter: @abdulllah1994

المملكة العربية السعودية ورعاها جلالة الملك سعود بالتنمية والتوجيه.

وقد كانت زيارة الحاج محمد علي زينل لمدارس مكة وجدة في عام ١٩٤٨ بقصد أن يأخذ نخبة مختارة من متخرجي هذه المدارس ليؤلف منهم بعثة تدرس تحت نظره في بمباي بالهند حيث مركز تجارته ومقامه وليشرف على توجيهها توجيها يتمشى مع الواجبات والمسؤوليات التي كان يحس بأنها ستواجه أفرادها في حياتهم الاجتماعية، وكنت أحد أفراد هذه البعثة.

ولم تطل فترة اختيار المبعوثين وسفرهم ولم تتخذ ترتيبات ذات بال لذلك ولم تتوفر فرصة كافية لنتصور الأمر تصوراً كافياً ونحلم به وينتقل إلى عقلنا الباطن وإحساسنا ومشاعرنا. وكلما استطعنا أن نحسه في قرارة نفوسنا أننا ننتقل من مجهول نعيش بين أحضانه إلى مجهول لا نعرف عنه شيئاً.

وقبل سفرنا بيوم واحد استدعانا الرجل الحديدي الصامت الشيخ عبد الله حمدوه وسجل على قسمات محياه ابتسامة صنعها خصيصاً لتلك المناسبة فقط ليزودنا بها مصحوبة بنصائحه الغالية بحق وارشاداته الثمينة بحق وقد كان رجلًا اجتمعت له جميع معاني الرجولة في صرامة وحزم. وكان بالنسبة للحاج محمد علي زينل في حملته العلمية التي قادها ضد سياسة الافناء بالجهل وفقدان الشخصية، يقوم بدور القائد المحنك العظيم الذي

Twitter: @abdulllah1994

استطاع كسب المعركة.

لقد ودعنا أطيب وداع وأقام لنا حفلاً سمعنا فيه لأول مرة نغمات جديدة لم أعرف كيف استقبلها كل واحد منا وماذا فهم منها وإلى أي مدى انطلق خياله في متابعة أطيافها وصورها.

لقد قال الخطباء المودعون في وصفنا أننا رواد العلم والمعرفة أو أول بعثة تهاجر وطننا لتنهل من مناهل العلم الصافية وتعود مزودة بالقدرة والكفاية لخدمة وطنها. وحملنا الخطباء مسؤولية اسموها - مسؤولية رفع رأس الوطن والمواطنين عالياً.

لم نكن بحق ندرك ماذا يعنون بذلك ولا بالعلوم التي سنسافر في طلبها وهل تختلف كثيراً عن العلوم التي كنا ندرسها في بلدنا وقد أخلصنا لها ولناقليها كل الاخلاص، ومع ذلك لم يكن هذا الأمر يشغل بالنا بأكثر من خطرات عابرة لا تلبث أن تظهر حتى تمحي من ذاتها لأنه لم يكن لها ما يربطها بعقلنا الباطن وتفكيرنا.

وتمت المعجزة وها نحن على ظهر الباخرة علوي تمخر بنا عباب البحر الأحمر ثم الميحط الهندي، وليس يربط كل واحد منا بهذا الكون إلا نفسه الغائرة بين جنبيه وحقيبة وضع فيها ملابسه وشعر لأول مرة في حياته أنه مسؤول عن المحافظة عليها والعناية بها وسرير من القماش تشده قواعد خشبية ينام فوقه. وإلا مصير مجهول تحمله هذه الباخرة المزمجرة في عباب البحر إليه لم تبق هناك

Twitter: @abdulllah1994

فكرة مركزة ولم يظهر أي شبح لتلك الأشباح الخالدة التي عشت معها ردحاً من عمري، الفتى القصير، لا بل شعرت بأنه قد انقضى ما بيني وبينها ولم أعد أحس بوجودها، واستمرت بنا تلك الحال أياماً طوالاً بين الماء والسماء غرقت فيها تلك الشخصية الحالمة العالمة التي كانت تشدها إلى أعماق التاريخ أواصر عريقة وتصل بينها وبين أساطين العلم والمعرفة من القدماء أسباب متينة، وقد كانت فترة الرحلة كافية ليفيق الحالم من سباته فيجد نفسه في وسط مدينة ضخمة كبيرة تعج بمداخن المصانع وضجيج المواصلات وتزاحم الأحياء وصراعهم على الحياة والرزق - حياة تقف الفتاة فيها إلى جانب الفتى، ويأخذ الرجل فيها بيد المرأة، وتسير القافلة في جد وتزاحم ومرح وصخب.

لقد اختلطت هذه المرئيات في نفس الفتى الساذج وبهرت أضواء المدينة الصاخبة نفسه الحائرة المبهورة.

Twitter: @abdulllah1994

فِي بُمْبَاي

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

ولم يفت الحاج محمد علي زينل أن يحاول خلق جو خاص نعيش فيه أشبه بالجو والبيئة التي خلفناها وراءنا فوضع جميع الترتيبات المنزلية التي تصنع ذلك الجو صنعاً محكمًا وثيقاً.

فالزي ـ يجب أن يكون زياً يفيض بالهيبة والكمال، ويحدد حركات صاحبه، كما يحدد له روحاته وغدواته والأماكن التي يرتادها، ويتألف من الثوب ومن فوقه الجبة ـ ذلك اللباس الفضفاض الذي يشغل لابسه بأن يحافظ باستمرار ليرد أحد طرفيه على الطرف الآخر وإلا فإنه يمثل أجنحة مبسوطة إن لم ترتفع بلابسها في الهواء فإنها تطيح بمن يعثر بأطرافها إلى الأرض، أما الرأس فلا بد من تغطيتها بقلنسوة معمولة من شبكة من الخيزران مغطاة بقطع صغيرة من القماش الملون مجموعة بدقة بعضها إلى بعض وملفوف عليها قطعة طويلة من القماش الأبيض الناصع لفاً مهذباً فيه كثير من الجمال. وفي مجموعها ما يوحي بالوقار واصطناع الرزانة.

وهناك برنامج دقيق يحدد مواعيد الطعام وأنواعه والفسح وأماكنها ومواعيد النوم بحيث لا يجوز لواحد من أفراد البعثة الاخلال بشيء من نظام هذا البرنامج.

* * *

Twitter: @abdulllah1994

وحين بدأت الدراسة لم يجد الفتى أمراً من الأمور قد تغير عليه إلا نفسه التي بين جنبيه وإلا طريقة استقباله لتلك الدروس وإلا محبته لتلك الأطياف التي عاش في أحلامها ردحاً طويلاً يمارس التآلف بها والتقرب إليها.

ولقد كان البرنامج مقصوراً على اللغة العربية والعلوم الدينية مع حصص ليست ذات بال في اللغة الإنجليزية والأردواللغة السائدة في الهند ولكنه كان برنامجاً يعالج تلك المواضيع على مستوى عالٍ فالكتب المقررة للدرس والاختبار من الكتب التي لا يدرسها إلا المتضلعون بنوع عالٍ من المعرفة والكفاءة في هذه الفنون وكان الغرض من ذلك كما ذكر الحاج محمد علي زينل عندما كان يفسر لنا مبادئه وأهدافه، هو النفاذ إلى صميم روح التعاليم الإسلامية ليتمكن أفراد البعثة من ادراكها وفهمها وصيانة العلوم الدينية من الضياع في بلد خرج الدين منه إلى أطراف الدنيا ودخل فيه الناس أفواجاً. ولقد كان هذا هو الفصل الختامي الذي قدر ذلك الرجل المحسن أن يختم به جهاده الطويل العنيف. ومتى حفظ للدين علومه في أشخاص أفراد من أهل البلد المقدس، فقد اطمأن على حفظ الأمانة من الضياع، ويأتي بعد ذلك دور التمرس بالعلوم الدنيوية بواسطة البعوث الأخرى التي كان ابتعاثها جزءاً مكملاً لبرنامجه.

ولما كاشفنا الحاج محمد علي زينل ببرنامجه هذا استقبله بعض أفراد البعثة بفتور كما استقبله البعض الآخر بتمرد ونفور لأنهم

Twitter: @abdulllah1994

كانوا يرجون دراسة في حقول المعرفة العامة كالطب والهندسة وغيرهما، أما أنا فقد كان البرنامج يتفق مع فطرتي والبيئة الروحية التي عشت فيها. فاندمجت فيه ولكني في هذ الفترة كنت أدرس مواضيع علمية بحتة أما مشاعري واحساساتي فقد انصرفت إلى آفاق أوسع. إلى آفاق الحياة التي كانت تمر تحت نظرنا من وراء النافذة لأن البرنامج الموضوع لنا كما ذكرت يحول بيننا وبين الولوج في صميمها.

لقد أخذت أفكر في حقيقة الإيمان والكفر، وتعدد الأديان، وعبادة الأوثان وكيف تهضمها العقول المثقفة المستنيرة، ووجدتني في هذه الفترة ألتقي بأبي العلاء المعري وآنس بصحبته، ولذ لي أن أشاركه التغلغل في كشف مساوىء الحياة ومتناقضاتها وتوحش الأحياء وظلمهم ووجدتني غارقاً معه في الحيرة التي عمل جاهداً أن يوقع نفسه في شراكها وأن يسلم روحه تتخبط في أعماقها وبعد أن سمعت منه أناته المتقطعة المنبعثة من أعماق روحه وأحسست بآلامه المريرة وجروحه الغائرة وعجزه التام في أن يبدي أو يعيد عن أحاجي هذا الكون العظيم شعرت بالوحشة والخوف من هذا المصير مكبراً لنفسيته العالية وعقليته الراجحة وعلمه الغزير وعاطفته الإنسانية الفذة التي لم يبخل بها على حيوان ولا نبات ولا جماد.

* * *

رحم الله أبا العلاء المعري فلقد أفزعني وأخافني بعد فترة

Twitter: @abdulllah1994

طويلة من صحبته ولكنه كان صاحب الفضل في ربط عرى الصداقة بيني وبين أبي الطيب المتنبي وابن الرومي أما الأخير فلم ينصح لي به ولكني التقيت معه في طريقي إلى المعري للتشاؤم الذي يجمع بينهما وإن كان أبو العلاء يمتاز بعقل جبار يحاول اجتياز حجب الغيب والتسرب إلى كنه نظام الكون ومعرفة أسراره فإذا ما عجز وتحطمت جهوده على صخرة الغيب لجأ إلى التشاؤم. أما ابن الرومي فكان اجتماعياً ظريفاً وصافاً غزلاً رقيقاً يؤانس جليسه، ولكنه مريض بانهيار عصبي من نوع يجعله يترقب الشر من كل حي ومن كل أسباب الحياة فهو يتشاءم إذا رأى أحول أو أعور أو سمع كلمة تنم في جملتها أو تفصيلها إلى شر ويكفي للتأكد من مرضه أنه أقفل الباب على نفسه وذويه أياماً عديدة ليصد هذا الشر الداهم له حتى اضطرت زوجته أن تستغيث بجيرانها ليمدوهم بشيء من الطعام والشراب.

وأما المتنبي فقد صحبته بفضل حب المعري له وتفضيله على سائر شعراء العرب.

وكانت صحبتي لأساطين الأدب الثلاثة لوناً جديداً من التوجيه قد وصل إلى مداركي ولعلني شعرت بروح المتنبي تنسجم مع احساساتي وطبيعتي أكثر من غيره فحفظت له قدراً كبيراً من الشعر واستفدت من إيمانه بنفسه إيماناً بالنفس كما انطبعت بكثير من انطباعاته النافعة والضارة وليس هنا مجال لايضاح ذلك وإلا فإن الحديث عن المتنبي وتلميذه سيبعد بنا عن الموضوع الذي

Twitter: @abdulllah1994

نحن الآن بصدده.

وكانت هناك ناحية أخرى دخلت على نفسي دخولاً عميقاً مؤثراً فلقد كان أستاذنا الشيخ أمين السويد الذي اختاره الحاج محمد علي زينل مدرساً لجميع العلوم الدينية من كبار المتصوفة وكنا ندرس فيها ندرس كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

وتصوف الغزالي من نوع التصوف الذي يخضع جميع ألوان الحياة وشؤونها لفلسفته فهو لا يقتصر على علاقة الإنسان بربه وعلاقة الروح بالجسد مثلاً وإنما يتناول العشرة الزوجية والملبس والمأكل والسكن والنظافة وقص الأظافر وحلق الشعر إلى أن ينتقل إلى الطبيعة وما وراء الطبيعة، وقد أحببت الغزالي وتصوفه وفلسفته لما لمست فيها من قدرة على تنظيم أفكار الإنسان وعلاقاته الاجتماعية وعلاقاته بنفسه وربه فدرسته دراسة إيمان وحب واقتناع. وكان لا بد لمن يعيش في عصرنا الحاضر إذا درس الغزالي ومر بمرحلة تشككه أن يلم ولو بعض الشيء «بديكارت» وفلسفته في التشكك ومن حسن حظي أنه لم تعلق بي أي شائبة من هذه النزعة التي لا تعرف حداً وسطاً فإما أن تكون وسيلة لبلوغ غايات تغير مجرى الحياة البشرية أو أنها تقوض حياة الفرد تقويضاً كاملاً وتضيفه إلى مستشفى الأمراض العصبية.

* * *

ولقد انقطعت للدرس طوال ثلاث سنوات لم يكن يشغلني

Twitter: @abdulllah1994

فيها أي شاغل ولم يكن لي أي هدف من وراء ذلك المجهود. وكنت ألمس من أحاديث الحاج محمد علي زينل الذي كان يهيء الفرص المناسبة لبذرها في عقولنا على طريقة الايحاء وإخضاع الأفكار لاتجاه معين. أن برنامجه طويل وأنه كان يهدف إلى بناء وطن وأمة على طريقة مثالية من العلم والقدرة بحيث تتوفر لها جميع كفاياتها وبحيث تكون مثلاً أعلى للشعوب الإسلامية والعربية جمعاء. ولقد لمست أنه رجل اصلاح فذ من الرجال القادرين الممتازين ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أتمنى أن يتوفر له هو عدم اصراره على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة معتمداً على طاقته الشخصية الهائلة وامكانيته المالية الواسعة لأن طاقة الفرد مهما كانت قوية وامكانياته المالية مهما اتسعت فإنها لن تستطيع إيفاء مشروع كهذا حقه لأنه تحويل في مجرى التاريخ في حياة أمة استمرت ألف عام تخضعها عوامل مرتبة مجتمعة محبوكة حبكاً محكمًا لتنتكس بها هذه النكسة وتعودها على الخمول والجبن وفقدان الشخصية وفقدان الهدف كمجتمع صالح للحياة.

* * *

وفي عام ١٣٥٠ هجرية ابتدأت الأزمة التي سبقت الحرب الأخيرة ولحق بتجارته تدهور عظيم وأحس أنه ليس في وسعه أن يستمر في تحقيق برنامجه ولا بد من أن يستجم مدة من عناء ذلك الجهد حتى يتمكن من أن يعيد الكرة مرة أخرى. وانتهى بذلك أجل ابقاء البعثة في الدرس وتقرر اعادتها ووجد الحاج محمد علي

Twitter: @abdulllah1994

زينل أنه جاء الوقت ليضع لنا فيه النقط على الحروف وأن يحدد الأهداف تحديداً كاملاً. فكان الهدف هو نشر العلم. والعلم الديني خاصة لأن العلم هو النور الذي يضيء لنا مسارب الحياة ويصحح أوضاعها ويمكننا من بناء حياتنا ومجتمعنا على أسس سليمة قوية ويخص العلم الديني بالذكر لتستمر البلاد المقدسة ملجأ لكل من أراد أن يأخذ الدين واضحاً صافياً من منبعه ويميزه عن الخلط الذي بدأ يلحق التعاليم الدينية من المدنية الأوربية والنزعات الالحادية الحديثة التي مردها الاستهتار والخلط بين التقاليد الاجتماعية والتعاليم الدينية وتفسير هذه التعاليم تفسيراً يسلب منها قداستها وأسرارها الروحانية.

وتشغل هذه الظاهرة من نفس هذا الرجل المؤمن المجاهد مركزاً مهما حتى ليعتبرها السموم الفتاكة التي دسها المستشرقون والمبشرون في عقول الطلبة الذين أنجبتهم المدارس الأجنبية فقضت على مشاعرهم الدينية وجعلت منهم أشخاصاً لا دينيين وأعداء من المسلمين يفتكون بالدعوة الدينية الخالصة ويشوهون حقائقها. ولقد كلف نفسه في محاربة هذه النزعة أن زار الأقطار الإسلامية قطراً قطراً يتحسس أثار هذه الفتنة ويدرس الوسائل لمقاومتها، وله في هذا الموضوع آراء ليس هنا مجال عرضها ولكنها بالغة الأهمية يشعر بها من كان يحمل قلباً كبيراً مثل قلبه وغيرة على الدين الإسلامي مثل غيرته.

* * *

Twitter: @abdulllah1994

وبدأت الأيام القليلة الباقية من مقامنا في بمباي تتتابع بسرعة وكان الحاج محمد علي زينل يعير موضوع سفرنا أهمية عظيمة ويفسح لنا من صدره ويغمرنا بعطفه فوق ما يفعله أعظم الآباء براً بأحب أبنائه إليه حتى كانت الأيام الأخيرة التي لا تتكرر وفيها اختصني وأخي سامي بحديث لست أدري ما إذا كان أعاده على بقية زملائنا وبنفس اللهجة والأسلوب أم أنه اختصنا به موضوعاً وأسلوباً، وقد شرح لنا صورة كاملة من جهاده منذ أن استولت عليه فكرة القيام بدعوته هذه وما صادفه من متاعب وحرب أعصاب وتدخل الحكومة التركية للقضاء على دعوته وما صادفه من أزمات مادية أوشكت أن تجعل نجاحه مستحيلاً. ولقد وعينا كل كلمة قالها وشعرنا بأنه ينقل إلينا مسؤولية عظمى وأنه فتح أعيننا على المكاره والصعاب التي تحف طرقات الخير وأنه ليس يكفي الإنسان أن ينوي الخير ويسعى إليه فيجد الطريق إلى غايته ممهداً ميسوراً، وأن ما يعانيه المصلحون في سبيل الصالح العام من أذى الناس وشرورهم أضعاف ما يجده الهدامون والمفسدون وغيرهم من دعاة الشر والفساد.

وكان فصل الخطاب في جميع ما تقدم أن أخذ عهداً مني بأن اشتغل بالتعليم وأن لا أنفك عنه ولم أملك إلا أن عاهدته على ذلك.

* * *

وفي اليوم الثاني من هذا الاجتماع بدأت المرحلة الثانية.

Twitter: @abdulllah1994

مرحلة العمل وها أنذا مرة أخرى تقلني الباخرة علوي بين السماء والماء ولم يكن معي في هذه المرة إلا زميل كريم واحد هو السيد إسحاق عزوز وقد كانت هناك أسباب عائلية اقتضت سبقنا لزملائنا بالسفر وكانت خواطري في هذه الرحلة تختلف تماماً عن سابقتها فقد جدت أمور كثيرة خلال هذه السنوات الثلاث التي قضيناها بعيداً عن الأهل والوطن، حولت أفكاري تحويلاً تاماً وشعرت بأن مسؤولية العلم لا تنحصر في قراءة الكتب وفهمها والتشبه بأصحابها ولكنها مسؤولية الحياة وليس العلم إلا السلاح الذي يتقلده المحارب عند خروجه للمعركة وفي ميدان المعركة تتجلى قدرته على استعماله كما تتحدد أهمية السلاح الذي يحمله وغناءه وكما تتجلى مواهبه الشخصية وشجاعته الأدبية. وبدأت أشعر بما يشعر به المجاهد عندما يقرب من حومة الوغى - أفكار مشردة. وثقة بالنفس مضعضعة ومصير مجهول وغاية غير واضحة. إنها الحياة الواسعة الصاخبة العميقة بخيرها وشرها بتناحر الاحياء وتنافسهم عليها بكل ما فيها من خير وشر، إنها البحر الهائج المتلاطم الأمواج موج يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وما هي قيمة هذا الكائن الحي الصغير في محيطها الواسع وما هو أثره، وإذا كان الحاج محمد علي زينل العملاق الذي كنا نؤمن بعبقريته وقوته وقدرته الفائقة حين كشف لنا عن صدره انكشف عن هذا القدر من المآسي التي لحقت به والسيئات التي قوبلت بها حسناته والكفران والجحود

Twitter: @abdulllah1994

الذي كان جزاءه على أعماله المجيدة فويل لهذه الحملان الصغيرة من ذئاب الحياة. وعلى العموم فلقد كنت أشعر بثقة نفسية وشجاعة أدبية حينما بدأت هذه الرحلة لم أجد شيئاً منها أثناء عودتي، وكان المفروض بالعكس وذلك لأن الأهداف قد تغيرت وتغيرت معها احساساتي وأفكاري ونظرتي للحياة. فقبل أن تبدأ الرحلة كنت مقتنعاً أتم الاقتناع بالمثل التي احتذيت بها، وقانعاً كل القناعة بالواقع الذي ينتهي بي إليه تيار الحياة، ومؤمناً كل الإيمان بالقناعة ـ ذلك الكنز الذي لا يفنى. وهذه القناعة إنما تعني العيش على هامش الحياة، والرضى بالقليل الميسور، وهو خير من الكثير المعسور، وكل هذه المعاني تدعو إلى القاء سلاح التنازع على البقاء، والمقام في منطقة آمنة بعيدة عن التيارات المتعاكسة، وهذا الأمن هو مبعث تلك الثقة النفسية. وهي على الأصح ثقة سلبية، وشعور سلبي، ورضى بوضع لا مجال للتنازع عليه.

أما الحالة عندما عدت، وبعد كل ما رأيت في أضيق الحدود التي قدر لنا أن نراها، وما سمعت مما لم نكن نسمعه إلا عن طريق الحاج محمد علي زينل، أو من البيئة التي تحيط بنا وكانت في مجموعها إنما تنقل صدى أفكاره وآرائه وتجاربه، وشيء آخر كنا نحس به إحساساً ينتقل إلينا من آفاق الظروف العامة التي كانت تحيط بالهند وتتمثل في مدينتها الكبرى (بمباي) ذلك هو الصراع الدقيق الحاد القائم بين المسلمين والهندوس، وما فيه من

Twitter: @abdulllah1994

مظاهرات وصراع كنا نرى فيه الإنسان يغمد سلاحه في قلب أخيه الإنسان من غير مبرر إلا صراع العقيدة، وصراع السياسة الاستعمارية الغاشمة، وصراع الفتن والدسائس تبذرها أرواح الشر بين المواطن وأخيه والجار وجاره فتحول الحياة الهادئة المسالمة إلى مجزرة بشرية وتذيع الرعب، والهلع، وتعطل الحياة المنتظمة.

لقد كانت تلك الأحاسيس التي تنتقل إلينا من المحيط العام، والأحاديث التي نسمعها صدى لتلك الأقوال تنطبع في نفوسنا الفتية الصغيرة، وآرائنا الساذجة بانطباعات قلقة قاتمة تقضي على الثقة وتصور لنا الحياة وكأنها ميدان صراع دائم يختطف الإنسان من أخيه الإنسان لقمة العيش فإذا استطاع أن يختطف روحه لم يتردد في ذلك. وتجلت مع هذه المشاعر تلك الصور التي أبدع تصويرها أبو العلاء المعري فكانت تمثل مجموعة من شياطين البشرية واضحة المعالم، بينة الأثر، ذات صدى وسلطان.

لقد زعزعت كل تلك العوامل ثقتي في نفسي وفي الآخرين. وبذلك كنت. وهكذا رجعت. وشتان ما بين الصورتين.

وانقضت الرحلة في سلام وفي اليوم الذي كان مقدراً أن نصل فيه إلى جده، ونرى أرض الوطن الحبيب، نشأت عاصفة شديدة أوشكت أن تلقي بنا وبالباخرة في غمار البحر لولا أن تداركنا الله بلطفه، وتأخر وصولنا إلى اليوم الذي بعده، وما أن وطئت أقدامنا أرض الوطن الصلبة حتى وجدنا وفود المستقبلين

Twitter: @abdulllah1994

من الأهل والصحاب. وكانت نظراتهم إلينا نظرات اشفاق لما لحقنا في تلك العاصفة. أما نظرتنا إليهم فكانت نظرة حائرة لا تنم عن أي شيء.

* * *

عدت إلى الوطن، وعدت إلى الدار التي خرجت منها. فلم أجد شيئاً مما تركت ورائي، فلست أنا الذي عرفته في هذه الدار - بعد ما لحق بتصوراتي من تغيير - وليس جو هذه الدار ذلك الجو السعيد الهاني الذي خلفته يوم أن سافرت - فقد توفي جدي، وتوفيت شقيقتي، وكان كل منهما يملأ الدار سعادة وغبطة.

فقد كان جدي السيد عبد الهادي كتبي شخصية قوية رضية حبيبة إلى نفوس عارفيها، يفيض بالتقى والصلاح والبشر، ولم تكن تفارق وجهه اشراقة محببة، ولا ثغره ابتسامة رضية، وكان ذكره الطيب على كل لسان، وكان مؤمناً بنفسه، مؤمناً بربه، يعالج الحياة في أناة ورضى حتى لكأن حياته من نسيج يديه، فلا يكون فيها إلا ما يحب وكأن كل ما يحب طوع ارادته.

أما شقيقتي فكانت فرحة النفس، فرحة القلب، وكنت أجد فيها حنان الأم التي افتقدناها، وكانت بالنسبة لنا هي السعادة والحياة والأمل. وقد انطفأت هذه المصابيح فلم يبق في هذه الدار سوى وحشة مخيمة، وظلال من ظلال الموت الثقيلة الصامتة.

Twitter: @abdulllah1994

الجامدة. ولم تخفف فرحة الأوبة - أوبة الغائب - من وطأة الوحشة التي أخذت بمجامع قلبي، وكانت هذه هي نقطة البداية.

بداية الحياة.

بداية الشعور بالمسؤولية.

بداية البحث عن موطىء قدم بين الصفوف.

Twitter: @abdulllah1994

الأَخْذُ بالعَهْدِ

Twitter: @abdulllah1994

وكان لا بد أن نسقط من الحسبان بضعة أيام مرت خالية من كل شيء، خالية من العمل خالية من التفكير، خالية حتى من الاحساس بها كأيام من العمر، لأنها لغو تافه، لا تشير إلى مكان، ولا زمان، ولا أي شيء بعينه، وبعدها ذكرت ما قطعته على نفسي من عهد بالانصراف للتعليم، وكان عليّ أن أعود للمدرسة التي خرجت منها طالباً، وأنا أحمل للعمل فيها مسؤولية كبرى. أعطيت العهد على أدائها، والقيام بها، فلم تكن المدرسة أحسن حالاً من المنزل، فلقد انتقل الرجل الحديدي الذي كان يسير الأمور فيها بعزيمة صادقة وروح حاكمة ـ انتقل إلى رحمة الله، وانتقلت الادراة إلى أيـد سهلة، وبدأت تتخبطها الأغراض والأهواء من كل جانب، ومن حسن الحظ أنها لم تكن أهواء وأغراضاً مدمرة للروح والمبدأ، وإنما كانت في حدود التنافس على الإدارة والرئاسة، وظهر أثـر ذلك جلياً في سلوك الأساتيـذ، والطلبة، وحتى الخدم وتدخل أولياء الطلبة في الأمر، وبدا ذلك الصرح الشامخ هزيلاً مهلهلاً. ولقد جربت أن أقوم بدور ـ أي دور كان ـ بروح من الاخلاص المستمد من روح الحاج محمد علي زينل، وبوحي من صدى أفكاره التي لم تزل ترن في أذني، وتأخذ طريقها إلى عزيمتي وقلبي، وسددت خطاي إلى الموضوع وليس إلى

Twitter: @abdulllah1994

ما يحيط به - إلى الفنون التي تدرس، وإلى الطريقة التي ينبغي أن تدرس بها، وكانت محاولتي موجهة إلى جعل الطالب يشعر بأن العلوم التي يدرسها إنما هي جزء من مقومات حياته، فكل قاعدة في اللغة العربية يجب أن يلمس أثر تطبيقها فيما يمارسه من تعبير ليسمو بذوقه وفهمه، وكل صورة من صور السيرة النبوية، والتاريخ العربي، يجب أن يشعر بها كجزء من تراث آبائه وأجداده، ووطنه، وكذلك بالنسبة لجميع العلوم الأخرى، وكان لا بد لتطبيق هذه الطريقة من ادخال كثير من التعديلات بالنسبة للكتب المقررة للدراسة، والطريقة المتبعة فيها، فاصطدمت بمدير المدرسة الذي كان يحرص على أن تدرس الكتب التي كان متبعاً تدريسها من قديم الزمن لما تحتوي عليه من بركة مؤلفيها، وشارحيها، والمحشين عليها، وكل من أضاف كلمة إليها. ولقد جربت الإيمان بتلك البركة ولم يصرفني عنها إلا أنني وجدتها غير واقعية، ولا تتمشى مع طبيعة الحياة التي نحياها، والأحداث العالمية التي نعيش فيها، ولا بد لأن نكون واقعيين أن نقتبس من الفلسفة والدراسات والأساليب التربوية الحديثة التي انتهت إليها المدارس في غير محيطنا من البلاد الشرقية والإسلامية الأخرى، وأن نأخذ من الأساليب الغربية ما يتفق وروح ديننا وتقاليدنا وتاريخنا. وقد شعرت أن الاختلاف بيني وبين مدير المدرسة خلاف جوهري، وقد بدأ ينظر إلي كما ينظر المؤمن المتحنث إلى ملحد أغواه الشيطان وهوى به إلى مكان سحيق، وبدا لي أنه أخذ

Twitter: @abdulllah1994

يؤلب عليّ جميع المؤمنين بهذا النوع من البركة، وأنه ستسوء سمعتي من البداية فانكمشت إلى المنزل ثانية واحتجبت عن المدرسة، وشعرت بالعجز عن انفاذ العهد الذي أخذت على نفسي القيام به، ووجدت أن الشقة بعيدة جداً بين ما يهدف إليه مؤسس هذه المدارس وما انتهى إليه أمرها. فقد أرادها للحياة فانتهوا بها إلى جمود أشبه ما يكون بالموت.

* * *

انطويت على نفسي في حجرة من حجر المنزل، وانصرفت للكتابة والقراءة. لقد قرأت كل ما وصلت إليه يدي من كتب التربية وعلم النفس، وبدت لي فكرة براقة لامعة هي أن أضع كتاباً عن (المدرسة الفاضلة) كما كنت أتصور أن تكون، وبدأته من - روضة الأطفال - وحرصت أن أنبه إلى دور الغريزة في التحكم في أخلاق الإنسان، ونشأته، واتجاهاته، وأنه لا بد أن تقوم رياض الأطفال على أسس صحيحة تشذب من الغرائز وتقويها وتوجهها التوجيه السليم الذي يمكن الطفل من النجاح في الاتجاه الذي تتوفر فيه مواهبه الفطرية. ولم أكمل من هذا المشروع سوى القسم الأول منه. ونازعتني في الاستمرار في إكماله عوامل عدة - الكتابة في جريدة صوت الحجاز وقد زج بي فيها مديرها حين زارني في يوم من الأيام يحمل في يده كتاب (قلب جزيرة العرب) لمؤلفه المرحوم السيد فؤاد حمزة وطلب مني أن أقدم دراسات عنه للقراء. وقد فعلت.

Twitter: @abdulllah1994

ودراسات أخرى قمت بها على أثر قراءتي لكتاب الأمير - لميكيافيللي - دستور الاستعمار والسياسة الغاشمة وقد قدمه إليّ الصديق محمد سعيد العامودي، وحين انتهيت من دراسته انصرف ذهني إلى ما قرأته في مقدمة ابن خلدون وقد كانت هذه المقدمة مقررة للمطالعة في برنامج دراساتي في بمباي، وتبين لي إلى أي حد كان ابن خلدون عظيمًا وحكيمًا وبارعاً في جميع ما قرره عن طريقة نشأة الشعوب وحياتها الاجتماعية، والاقتصادية، وطرق الحكم فيها، وأساليبه، وأحسست أن - ميكيافيللي - يصدر عن منبع خبيث في أفكاره وآرائه، منبع الحكم الغاشم المستبد الذي يوزع البشرية إلى طبقة من السادة، وأخرى من العبيد، ولطبقة السادة ما شاءت من سلطان مهما كان طائشاً وغاشمًا ومهما كانت نسبته لشريعة الغاب، وليس للعبيد إلا الخضوع والخنوع، والتسليم لكل ما يراد بهم من جور وظلم واستعباد.

أما ابن خلدون فمنبعه صافٍ يمت إلى الشرائع السماوية، والقوانين الدينية، والفطرة الإنسانية السليمة بأقوى الأسباب. وقد أخذت أسجل خواطري هذه في دراسات أسميتها - السياسة - علم وفن وأدب.

ولم تطل فترة اعتكافي على القراءة والدرس والكتابة، فقد طلبت لأكون رئيس تحرير لجريدة صوت الحجاز فأقبلت على العمل فيها بهواية واخلاص، وقدرت أن الصحافة ميدان من الميادين الصالحة للتلاقي بالرأي العام مباشرة، وأنها ميدان من

ميادين المعرفة بالحياة، والتعارف بالأحياء، وأن من يزاول العمل فيها يتسلط إلى المواضيع العامة ليلقي عليها ضوءاً فيكشف حقيقتها ويقدمها سافرة مكشوفة للجماهير. واعتبرتها فرصة لأقوم بأي محاولة مخلصة في هذا الميدان للصالح العام. تصورت كل هذا وأغفلت أثر ادارة الجريدة في أدائها رسالتها وقدرتها على القيام بواجبها، وأن رسالة كل صحيفة رهينة بطريقة ادارتها، ومتى كانت سياسة الإدارة على وجه معين فلا بد من أن تخضع الصحيفة لطريقة الإدارة، وإلا فإنها لا يمكن أن تبقى. لذلك لم تطل مدة قيامي على هذه الجريدة لما لمسته في ادارتها من جو خانق يتنافى مع طبيعتي فتركت العمل فيها.

وعندئذ عرض عليّ السيد صالح شطا العمل بالمعهد العلمي السعودي أستاذاً لقسم التخصص في القضاء الشرعي.

والسيد صالح شطا رحمه الله كان شخصية ذكية لامعة قوية طيبة متألقة ولكنه كان عصبي المزاج معتداً برأيه اعتداداً عظيمًا وكان وطنياً صادقاً في وطنيته، وكانت شخصيته من الشخصيات القوية التي تحس بوجودها إحساساً كاملًا مستقلًا، ولذلك فإنه كان يملي رغبته إملاء ولم أستطع التردد في قبول تكليفه على أنه كان تكليفاً يتفق واستعدادي ودراساتي. وبدون تعميد رسمي ولا روتين حكومي وإنما بمحادثة تليفونية مع وكيل المعارف الذي كان مديراً للمعهد العلمي السعودي تم أمر تعييني ومباشرتي للعمل، ولقد تهيبت الأمر في البداية ـ أستاذاً للتخصص في القضاء

Twitter: @abdulllah1994

الشرعي!! وما هي جميع ثروتي العلمية التي استطيع بها مواجهة هذا التكليف العظيم، إن دراساتي الدينية عامة، أما مقدار ثباتها أمام اختصاص بعينه وغنائها فيه فذلك ما لم أحسب له حساباً، ودخلت المعهد، وقابلت مديره الذي لقيني متحفزاً للقائي لأن هذا التعيين جاء على خلاف رأيه، وقد أثار لقاؤه شعوري ونشبت بيننا تحية من نوع معين من الصراع الخفي ضاعت في تضاعيفها أساليب اللباقة والمجاملة، وكانت كافية ليعرف كل منا قدر صاحبه وقد أضيف إلى عملي المتخصص في تدريس القضاء الشرعي تدريس الأدب العربي في هذا المعهد، وتضاعف بذلك سروري لأني في هذا الدرس أستطيع أن أجتلي أحاسيسي وأنقلها إلى تلك البراعم الغضة المتفتحة للحياة. وكنت أشعر بمنتهى الغبطة حين وجدت أن من بين تلاميذي طالبين ينمان على الذكاء والنباهة وتوفر الاستعداد في الأدب وهما الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار الذي أصبح لامع الاسم في محيط اللغة العربية وفقهها وأدبها وتراجم أصحابها، والاستاذ حسين عرب الشاعر الرقيق الاحساس الواسع الأفق. أما في قسم القضاء فلم يكن بين الطلبة من يستحق الذكر سوى الأستاذ حمد الجاسر الذي أصبح عمدة في التاريخ العربي والأدب العربي واللغة العربية. ولست أنسب لنفسي فضل تبريزهم وإنما ذلك يرجع لاستعدادهم، ودرسهم المتواصل، وذكائهم، ولكن لعلني قد أوريت قبساً في طريقهم الطويل استحال بفضل فطرتهم السليمة، وجهدهم

Twitter: @abdulllah1994

المستمر إلى هذا القدر من المعرفة الواسعة. وقد لفت نظري في هذه المرحلة أن دراسة الأدب العربي تقتصر على حفظ نماذج من شعره ونثره وفهمها ودراسة علم البيان الذي اعتقد أنه أبعد ما يكون عن اصلاح ذوق الأديب، وتوجيه تفكيره، واستقامة أسلوبه البياني، ولكنه مثل المعادلات الجبرية التي تختبر صحة العمليات ولكن لا تؤثر في وجودها. وحرصت في هذه الفترة أن اضع شيئاً - أي شيء كان - أتفاهم فيه مع طلابي لأنمي في نفوسهم الذوق الأدبي، وملكة الكتابة، وتعالج على أساسه الموضوعات والأساليب، وقد وضعت فصولاً قصيرة في ذلك اسميتها (الأدب الفني) جمعتها في أوراق بسيطة بعد أن عالجتها كموضوع دراسي تولتها المطبعة الماجدية بالنشر والتوزيع.

وفي القضاء لفت نظري أن جميع كتب الأحكام الشرعية اما كتباً انشائية كجميع الكتب الفقهية التي تعالج مواضيع الفقه معالجة واسعة لا يمكن معها تحديد الموضوع والحكم فيه وأسبابه. واما أن تكون موسوعات قضائية لا تصلح للتدريس للطلبة في المدارس - كمجلة الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية. ووجدتني كذلك مضطراً لوضع فصول تصلح للتدريس بحيث تمكن الطالب من أخذ فكرة عن فن القضاء وأساليبه وتحدد الناحية الموضوعية في هذا الفن.

ولقد بذلت مجهوداً ظننت أنني به أتقدم بخطوات واسعة إلى الأهداف والمثل المرسومة بين عيني، ولكني فتحت عيني على

Twitter: @abdulllah1994

الحقيقة المحزنة وهي أنه كانت هناك مؤامرات خفية تجعل من كل ما زرعت هشيمًا تذروه الرياح، وأحسست أن القائمين على هذا المعهد قد مسخوا أغراضه حتى لم يبق من حقيقته إلا الاسم لا العلم، والدعاية وليست الغاية، وشعرت بوطأة الصدمة قوية على نفسي، فقررت السفر إلى جنوب أفريقيا لأسباب كانت تقتضيها الظروف آنئذ. وكل ما كان يهمني في هذه الرحلة أن أطلب جواً أعيش فيه من غير غاية، جـوا لا يربط بيني وبينه أي عامل من عوامل المسؤولية، وقد وطدت لهذه الغاية بطلب اجازة من العمل وإذن للسفر فلم أوفق للحصول على ذلك. فسافرت إلى الطائف عنوة وأملاً في أن يكون هذا سبباً في فصلي من الوظيفة، ولكن الأمر جاء على عكس ما توقعت، فقد تلقيت أمراً بتعييني مديراً لمدرسة الطائف، وتدخل السيد صالح شطا مرة أخرى، ونصح لي بالقبول، وبدأت العمل في إدارة هذه المدرسة، وشعرت بلذة لذلك. فقد وجدت أنني أستـطيع أن أعمـل شيئاً أرضي بـه ضميري، وكنت أشعر بمنتهى الغبـطة إذ تصورت أن معـظم الطلبة في هذه المدرسة يأتون من الحقل في الصباح ويعودون إليه في المساء.

فالطائف مدينة لم تغزها الحضارة، وحياة المدن، غزواً كاملاً. والمزارع تنتشر في جوانبها من كل صوب، ومعظم أهلها فلاحون يحسون باحساسات الطبيعة، كما يتمتعون بفطرة سليمة ذكية، فإذا قدموا أبناءهم للتعليم في المدارس فإنما يضحون بجزء من راحتهم

Twitter: @abdulllah1994

ومصلحتهم لافتقارهم لمساعدة أولادهم. وهذا هو أفضل شعور بالمسؤولية كما أن هؤلاء الأطفال إنما يتعلمون رغبة في العلم وليس تحصنا للوظائف. وكان هدفي في هذه الفترة هو بث روح المثابرة في نفوس الطلبة وأوليائهم حتى يستمروا في الدراسة ولا ينقطعوا عند حد القدرة على القراءة والكتابة وفهم الواجبات الدينية. وعلى العموم فلقد كانت هذه الفترة أسعد فترة أذكرها في حياتي لأنني كنت أشعر بأنني أعمل عملاً مثمراً يتفق مع طبيعتي، والعهد الذي قطعته على نفسي، والمبادىء التي أوصى بها إليّ الحاج محمد علي زينل، وآمنت بها إيماناً عميقاً.

وفي هذه الفترة نفسها تعرفت إلى رجل لا يشبهه في خيالي إلا الماء الضحل الرقراق يجري في لطف وهوادة على أرض بيضاء مشرقة فيجمع للنفس الشعور بكل معاني الصفاء.

وإلا تلك الزهرة البيضاء الناصعة البياض تظهر على جذر رقيق بين الرمال الممتدة والصحارى المنثورة فتوحي بالحياة الطيبة حيث ينعدم الشعور بالحياة - ذلك هو الشريف علي عدنان.

جميل الخلقة. كريم الروح، يفيض بالطيبة، والسماحة، وحسن الأخلاق، ودفعتني هذه الصفات التي لمستها فيه إلى حب التعرف إليه والامتزاج به، فخطبت إحدى كريماته. ولم يخيب ظني فيه، وكان زواجاً موفقاً فتح آفاق نفسي على حب الحياة والاعتزاز بها، وشعرت بعد هذا الزواج الموفق أن الحياة شيء ثمين تستحق

Twitter: @abdulllah1994

الحرص عليها، وان السعادة ليست كلها في الأهداف التي يكدح المرء في سبيل تحقيقها، وإنما البيت سعادة تطغى على كل متاعب الحياة، ونكدها، وفشلها، وبؤسها، وشقائها، وكذلك امتدت السعادة المنزلية إلى العمل فجعلت منه شيئاً محبباً، وضاعفت من رغبتي في الاقبال عليه.

وفي هذه الأثناء تعين السيد طاهر الدباغ مديراً للمعارف وقد شعرت لذلك بمنتهى الغبطة لأنه مواطن كريم سمعت بشجاعته الأدبية، وكفاءته العلمية، وخلقه الاجتماعي. ولكن مع الأسف لم تطل صحبتي له لأسباب حساسة وجوهرية فقد قررت بعد مدة قصيرة من توليه ادارة المعارف أن انتقل إلى وزارة المالية.

وكان على رأس إدارتها الشيخ محمد سرور الصبان وهو من الشخصيات التي آمن بها كل فرد من مواطنيه، وشاع أثرها بين الجميع.

عرف بالذكاء، والحصافة، والشجاعة الأدبية، واللباقة، والكياسة، كما عرف بالوطنية، وقد عرفته مما قرأت من أدبه قبل أن أعرفه بمخالطتي له، وعرفته بحديث الناس عنه فزاد ذلك في معرفتي بروحه الطيبة الكريمة. ولم أتجاوز في اعلان ما قررته أن كتبت إليه جواباً بذلك فكان فوق ما تصورت نبلاً وأريحية، فلم يمض يوم على كتابي إليه حتى أخذت جواباً منه بقبول إلحاقي في وزارة المالية. فذهبت لشكره على ما تفضل فكان لقاؤه أفضل مما كتب. ورجوته أن لا يكلفني بتقديم استقالة للمعارف لأنني

Twitter: @abdulllah1994

شعرت أن ذلك كفران بمبادىء وجحود مني للمعاني السامية التي أخلصت لها كل الأخلاص ـ فحقق رجائي.

وبينما كنت في اليوم الأول أقف بين طلابي الذين كنت أحلهم من نفسي أكرمْ محل، وجدتني في اليوم الثاني قاعداً على مكتب في وزارة المالية. وقد تغير المنظر تماماً، وتغير معه الموضوع، فليس هنا غاية ولا هدف، وإنما هو عمل آلي يؤدى على وتيرة معينة. عمل متقطع لا تربط بين حلقة منه وأخرى أية رابطة، ومن حسن حظي أن جميع زملائي كانوا من نفس البيئة التي آلفها وأركن إليها، تربطني بهم صداقة صميمة، وهواية في الأدب، فكنا إذا فرغنا من العمل عقدنا حلقات نتدارس فيها الأدب، ونتناقل الشعر، ونتنافس في المواضيع العامة. وكانت هذه الفرص هي المتعة الوحيدة التي استمتع بها في حياتي الجديدة.

واستمرت الأيام تنقضي تباعاً سهلة رخيصة محدودة ليس فيها أي عمل إنشائي، أو غاية تطمح النفس إلى تحقيقها، وخلدت نفسي إلى السكون والراحة، حتى لقد افتقدت لذة القراءة والكتابة والشوق إليهما، وبدأت أشعر بالكسل يدب إلى حواسي، وأصبحت أميل إلى الراحة السلبية، راحة العاطلين التي لا تنتهي عند حد ولا تجد لها أي أثر.

وفي بداية عام ١٣٥٦ رزقت بابني عدنان، وشعرت

Twitter: @abdulllah1994

مع مولده بأن حياتي تتكرر مرة أخرى، وقد داخلني لهذا الحادث السعيد لون من العزة والغبطة والسرور، كما شعرت بأن غاية جديدة وأملاً حياً قد فتحت أبوابها بين عيني. وكلما كبر عدنان يوماً كبرت معه الغاية، وانفسح الأمل، وتجسمت أمامي الحقيقة التي خلفتها وراء ظهري. حقيقة خداع الحياة وحيرتها، وصورها المتلاحقة المتناقضة، وتصورت المجهول الذي ينتظر ابني والذي صادفته في طريقي وأحسست بأن عليّ مسؤولية يجب أن أعمل لها ـ وهي أن أمهد الطريق ليبدأ دراسته في جو واقعي، في الجو الذي سيعيش فيه، وبالأسلوب الذي يمكنه من فهم الحياة فهمًا واقعياً، وكأنما كنت على موعد مع المفاجأة التي كانت تنتظرني.

فلقد فوجئت في تلك الآونة بشخص غريب عني لست أعرفه ولم أسمع به قط، قدم من مصر يطلب زيارتي، ويحدثني منذ أول لقاء عن نفسي. يحدثني أنه قرأ ما كانت تنشره جريدة صوت الحجاز من أدبي وأعجب به، وقد حدا به إعجابه إلى حرصه على لقائي بأي وسيلة، وقد اتخذ سبباً لذلك أن رشحني لأحفاد الشريف عون لإدارة أملاكهم في الحجاز، وقد حمل إليّ موافقتهم على ذلك مصحوبة بتقديره الشخصي لأدبي وما تركه من أثر في نفسه، وبدا لي لأول وهلة أنني أمام مجموعة من المفاجآت...

أن يجد أدبي قراء في مصر التي تفيض بما ينشره أساتيذ الأدب العربي من أدب عالٍ. ولو كان على حد هذا القارىء. وأن

Twitter: @abdulllah1994

يرتفع به إعجابه إلى مثل هذه النتائج بأن يتعصب لي، ويتودد إلي، ويقرب مني عملاً كان يطمح إليه الكثيرون، ولم أتنبأ بأن كل هذه الظواهر كانت تحمل في غضونها نكبة وعثرة كادت تطيح برأسي.

ولم أعجب بنفسي إعجاب ذلك القارىء، ولم يهمني أمره إن كان صادقاً أو مجاملاً، ولكن الذي حدا بي إلى الاستجابة لرغبته، هي الحالة النفسية التي كنت أعيش تحت تأثيرها في تلك الفترة. فلقد فكرت أن هذا العمل سيتيح لي فرصة التحرر من الوظيفة الحكومية، وقد ييسر لي القرب من أصحاب هذه الأملاك أن أنتقل على رأس ادارة أملاكهم إلى مصر، واستقر بها، مما ييسر لي أسباب العيش فيها، فأدخل عدنان في مدرسة مختارة، وأشرف على تعليمه تحت نظري، وفي موجة من هذا الخيال السعيد وافقت على العرض الذي قدمه إليّ ذلك الزائر الطارق. وتوليت ادارة هذه الأملاك ولم أكن أعلم أنني بإدارتها قد جمعت الشقاء بكلتا يدي وأدخلته إلى بيتي.

لقد كانت ادارة مكبلة بالمشاكل، والفوضى، والضياع، فبدأت أواجه مشاكلها بجلد مسرف وصبر شديد، وأكد نفسي في تنظيم العمل واستخلاص الحقوق لأصحابها، وجمعت من جراء ذلك عداوات وحزازات وضغائن لا قبل لإنسان بها، ولم أعد أعرف من أمر نفسي ولا زوجتي ولا ولدي الحبيب شيئاً، وقد سبب هذا رد فعل في حياتي المنزلية حتى استحال ذلك البيت

Twitter: @abdulllah1994

الهادىء السعيد إلى صراع دائم وجحيم من التهم السوداء البغيضة.

وتضاعفت المشاكل بحضور أصحاب هذه الأملاك إلى الحجاز منقسمين على بعضهم، وكل فريق منهم يحمل اللعنة للفريق الآخر، وكان لا بد لي من الوقوف بجانب الفريق الذي يمثل مصلحة المالك الأصلي. ومرت بي فترة من الأيام الطويلة القاسية لم أعرف خلالها طعمًا للراحة النفسية ولا البدنية. وكنت أعاني صراعاً فوق طاقتي وأكثر من عدتي واحتمالي، وقد تفاقم أمر هذا الصراع، واتسعت حلبته، ودخلت فيه عناصر لم يكن في الحسبان مشاركتها فيه. وانتهى الأمر في هذا النزاع إلى اتهام الضيوف الكرام بتهمة خطيرة أطاحت برأس الحلقة الأولى من هذه الرواية القاسية وهو ذلك الشخص الذي أعجب بأدبي وأقحمني في قلب العاصفة.

وعندما استقرت تلك العاصفة الهوجاء الطائشة وجدت نفسي سجيناً بين أربعة جدران صم لا ينفذ الهواء والنور إلا من منفذها المتطامن الحقير، وحولي شلة من الأحياء الأموات الذين قادتهم خطاياهم إلى المقر الذي يجمعني وإياهم. فلم أعد حراً بالاتصال بزوجتي ولا ولدي. وقد تنبهت بعد هدوء هذه العاصفة إلى أنني قد رزقت بولد آخر - إبراهيم - وكان مولده في نفس الفترة التي اكتسحتني فيها تلك الزوبعة حتى لم أكد أحس بوجوده ولا بوجود عائلتي، وأخذت أحاسب نفسي على ما اقترفت ولم

أقترف شيئاً، ولكنها تلك العاطفة الجامحة التي نبهت إليها في أول فقرة من هذه الحياة «العاطفة» التي تزج بي في مشاكل الآخرين وتجعلني أحس بها أكثر من احساسهم وأعالجها بحماس يفوق حماسهم. ولقد حمدت الله على حسن المصير وسلامة العاقبة فقد كان حظي أفضل من حظ غيري ممن حلت بهم تلك الكارثة.

ولن أنسى في هذا المقام أن شخصاً، عظيمًا، كريماً، يفيض قلبه بالنبل، والإنسانية، والرحمة، قد مد إلي يده في السر فانتشلني من الهوة السحيقة التي كنت سأتردى فيها. وأنني مدين له بحياتي، وسأبقى مديناً لشكره ما حييت، ذلك هو سمو الأمير فيصل ـ الشخصية التي تفوق القدرة على وصف فضائلها.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

في غيابة السجن

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

رواية دامية، محزنة، قاسية.

من الذي ألفها؟ وما هي فصولها؟ لست أدري.
ومن هم أبطالها؟ لست أدري.

فإذا كان أبطالها هم الذين ظهروا على الشاشة، فتلك مصيبة، وإن كان أبطال الرواية غيرهم وكان حظهم منها فقط شرف انتسابها إليهم، فالمصيبة أعظم. وإذا كانت الرواية غير ذات موضوع، فإنها لون من سخرية القدر.

رواية غريبة في منتهى الغرابة. وإذا قلت أنها غريبة ـ فإن هذا الوصف مني بحق أحق من يصفها به ـ لأنني كنت أحد من ظهروا على تلك الشاشة، أما كيف ظهرت، ومن الذي وضعني في أدوارها، وما هو الدور الذي ظهرت فيه؟ فإني لست أدري كذلك. ولكني فتحت عيني بين جدران السجن الذي يعلم الله أني لم أفكر في يوم من أيام حياتي أين مقره من البلدة، ولا من أين الطريق إليه.

وإنني حتى الآن إذا ذكرت هذه الرواية ومرت بخاطري ظروفها أشعر بدوار يلف برأسي، وأشعر بأن الفرد في حياته الاجتماعية تمر عليه مفاجآت مرعبة قاسية أشبه بالمفاجآت الطبيعية

Twitter: @abdulllah1994

كالزلازل والعواصف، فبينما هو يسير على أرض صلدة ممهدة إذا بها تنشق تحت قدميه فإذا لم تطبق عليه يكون سعيد الحظ سليم العثرة. أما كيف انشقت الأرض من تحت أقدامه، وكيف ربطت الأقدار بين هذا الحادث وظروفه فذلك لغز قد يظل مجهولاً إلى الأبد وقد تصحبه بعض التفسيرات ولكنها لن تخفف من أثره إن لم تضاعف من عمائه وغموضه.

وكذلك كانت تلك الرواية.

* * *

سيدة، وأربعة رجال!!...

أما السيدة فإنها في الحلقة الرابعة من عمرها، رائعة الجمال، حساسة، شاعرية الاحساس، تدل على كرم المنبت، وقوة الذكاء، والمبالغة في الشعور بالكرامة، والاعتزاز بالنفس، وثلاثة أخوة لم أعرف أحدهم وكان خصماً للآخرين، ولكني سمعت عنه أنه جشع مادياً يحرص على جمع المال من أي الوجوه، أما الآخران فكان أحدهما وهو زوج السيدة الفاضلة مغلوباً على أمره بالمرض والشهوات، يضاعف كل من هذين العنصرين وطأة العنصر الآخر على جسمه المكدود المنهوك، فهو يعيش في ظلام دامس، ومعزول عن الحياة والأحياء، والأخ الثاني وجيه، لطيف، حسن المعشر، ولكنه مبتلٍ باليأس، والتشاؤم، والوسوسة، فهو مشغول

Twitter: @abdulllah1994

بالتفكير في سوء طالعه، وفي معاكسة الحظ له، ومشغول بالجرائيم المنتشرة في الفضاء التي تهدد صحته بالغزو، وتوشك أن تندس في طعامه أو شرابه أو ثيابه أو سرير نومه. فهو مشغول دائمًا أبداً، ويائس دائمًا أبداً، وليس لديه جزء من الوقت ليفكر في غير محيطه الخاص وعالمه التعس المضطرب. أما الشخص الرابع فهو شخص تابع لهم جميعاً فقير يتمنى أن يجد عملاً - أي عمل كان - ليعيش في ظله ويصون وجهه من الحاجة.

هؤلاء هم أبطال هذه الرواية. أما أنا فكما ذكرت سابقاً رشحت للقيام على ادارة عقار والد هذه الجماعة. وهو رجل محجور عليه، وله أملاك في مصر، وفي الحجاز، وعليه قيم يدير جميع أملاكه، وكنت وكيلاً عن ذلك القيم بالنسبة لإدارة أملاك الحجاز فقط، وكنت أطمع في الحياة بمصر، وأملت بما أبذله من جهد أن أشق طريقي لكسب رضاء أبناء المحجور عليه جميعاً فأصبح مديراً لهذا العقار في مصر التي أطمع في الاقامة فيها لتعليم أولادي، وحين حضر أبناء المحجور عليه إلى المملكة السعودية كان حضورهم بعد التنافس على إرث جدتهم والدة المحجور عليه من جدهم فالأخ الذي لم أكن أعرفه يدعي أنها وهبت له حصتها من ذلك الميراث، وينافسه بقية الأخوة، وقد أثبت حقه في الهبة بالنسبة لعقار مصر، وجاء إلى الحجاز ليثبت الباقي، وجاء بقية إخوانه يدفعون مطالبته معتمدين على عطف جلالة الملك عبد العزيز وحرصه على إقامة العدل والشريعة،

Twitter: @abdulllah1994

وكنت بصفتي وكيل القيم على هذا العقار مسؤولاً عن الدفاع في هذه القضية لمصلحة المحجور عليه، وبالتالي لمصلحة أبنائه الآخرين. ولم تكن القضية عبارة عن دعوى تجري في المحكمة وتأخذ سمتها من العدالة، ولكنها كانت زوبعة بحكم كثرة المتدخلين في هذا الموضوع، وانشقاق الرأي بخصوصه، والمساعدات التي كان يقدمها أنصار كل فريق ضد الفريق الآخر، وكانت تلتقي أطراف تلك الزوبعة حتى تدور حولي وتلفني في غمارها، وكان من نتائجها أنها انستني نفسي، وأهلي، وولدي، وحاضري، ومستقبلي، وزجت بي في لجة من الدراسات القانونية والاستشارات القضائية، وجمع الوثائق، ولعبت تلك العاطفة التي تملكتني منذ الطفولة دورها حتى لم يعد أصحاب القضية يشعرون بها مثل شعوري، ولا يتحمسون لها مثل حماسي، وانني لأذكر في هذ المناسبة نصيحة أسداها إليّ رجل عظيم، استنزل على روحه الكريمة كل رحمة ورضوان، ذلك الرجل الذي منحه جلالة الملك عبد العزيز لقباً يتفق مع حقيقته كل الاتفاق، هو مهدي مدير الأمن العام آنئذ، وقد لقبه جلالة الملك عبد العزيز (المصلح).

لقد قال لي في يوم من هذه الأيام وقد كنت متحمساً في هذه القضية: إنني أحبك، وأنصح لك بأن لا تندفع وراء عاطفتك، فإنني أخشى أن يلحقك من وراء هؤلاء القوم أذى. ولم يكن يخطر على بالي ما هو نوع ذلك الأذى. إنني أدافع عن حق، وإن الطريق واضح أمامي إلى غايات لا غبار عليها، فما هو ذلك

Twitter: @abdulllah1994

الأذى! ومن كان يظن مهما أوتي من الذكاء الذي يستشف به كنه الحقائق والأحداث أن ذلك الأذى هو من النوع الذي لحق بي وبهم! لقد استمرت الدعوى حتى كسبتها لصالح المالك الأصلي وضد ولده المغتصب وفي غمرة الفرحة جاءت النذر.

النذر بالشر المستطير. النذر التي لم أستطع فهمها وما زلت بعد كل ما مضى من الزمن لم أزد علمًا بها.

كنت في الطائف ونزلت إلى مكة بعائلتي في الأيام الأخيرة من شهر رمضان لنستقبل العيد في جو هادىء وفرحة بأيامه السعيدة، وفرحة بالبعد عن تلك القضايا الشائكة التي أفسدت عليّ حياتي، وفي اليوم الثاني من أيام العيد، ذهبت إلى المسجد الحرام، في طمأنينة المؤمنين، وخشوع الشاكرين، ومعي ابني عدنان، وأديت صلاة المغرب، وحين عدت إلى داري مغتبطاً، تفيض نفسي بفرحة الهدوء، والراحة، والبعد عن الجو المزعج الذي كان يحيط بي، وجدت أمامي نبأ مقلقاً - ذلك أن مدير الأمن العام قد حضر إلى داري، وقضى فترة من الزمن ينتظرني، ثم غادر الدار، وترك أمراً بأن أذهب إليه فور وصولي، فعدت إلى لقائه كما أمر، فاستقبلني متجهمًا محنقاً، وبمقدار ما كان يظهر من الغيظ والسخط، كنت أقابل ذلك منه ببساطة الجاهل بحقيقة الأمر، المستغرب لتلك المظاهر فلم يكن في عقيدتي ما يستوجب لهذا اللقاء.

وأخيراً تبينت أن الأمر ليس هو قضية النزاع على الأملاك

Twitter: @abdulllah1994

الموروثة، وإنما هناك ما هو أخطر من ذلك، وتبين مدير الأمن العام جهلي بكل شيء في هذا الصدد، ففضل أن يبقي على نعمة الجهل بما يدور حولي فترة من الزمن حتى يستكمل الترتيبات التي تحيط به.

وبدأت الاشاعات تعم البلد ولم أشعر بالرغم من كل ما سمعت - أنها أدخلت على نفسي مقدار ذرة من القلق، لأنني كنت أتحدى صدق هذا الأمر تحدي العارف بحقائق الأمور.

لقد نمي إلى هذه الشلة المفككة الفقيرة من كل شيء - من الشخصية، والمال، والاتصال، وحتى من القدرة على التفكير بصورة جدية ومنتجة في أي أمر من الأمور. نمي إليها أنها تنوي قلب نظام الحكم في البلاد، فهل كان نظام الحكم وعاءاً في متناول كل يد أن تقلبه ظهراً لبطن أو بطناً لظهر! لذلك لم أكن آبه لما أسمع حتى استدعيت للتحقيق معي. وعندئذ تبينت أن لهذه الإشاعة صدى في الواقع والحقيقة، وتتابعت الأحداث في غموض وقلق حتى حلت الكارثة، وفتحت عيني لأجد نفسي بين وجوه لم آلفها من قبل، وفي مكان لم يخطر لي على بال أمر زيارته..

وحضر إليّ أخي سامي من جده ملتاعاً هلعاً ليسألني الحقيقة! فقلت له ليس المسؤول بأعلم من السائل، ولكن يمكنكم الاتصال بولاة الأمر لمعرفة حقيقتها. فاتصل هو بالشيخ عبد الله السليمان، كما اتصل خالي السيد علي كتبي، الذي وقع

Twitter: @abdulllah1994

النبأ عليه وقع الصاعقة، بسمو الأمير فيصل، فكان سموّه كريماً وعظيمًا، إذ بسط رداء عطفه ولطفه على السيد علي كتبي، وأدخل الطمأنينة إلى أعماق قلبه، وقال له من ضمن حديثه الكريم أن من يجاور الحداد ينكوي بناره ـ وأمنه على ابنه حاضراً ومستقبلاً ـ وأكد له أنها أزمة مؤقتة ومحنة لا تطول. وكان جواب الشيخ عبد الله السليمان كذلك دمثاً لطيفاً، وشعرت أن الأمر كله قضاء وقدر لا مفر منه، وتذكرت الدوافع التي دفعت بي إلى قبول هذا العمل والاخلاص فيه، وتباين النتائج التي انتهى بي ذلك الجد المخلص إليها، فبدلاً من النزوح إلى القاهرة نزحت إلى السجن، وتمثلت لي روعة المعنى الشعري

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجني عليه اجتهاده

ولقد كان المرحوم مهدي مدير الأمن العام كريماً حين تلطف بنقلي إلى ذلك المصير الكالح محمولاً في سيارة وأوصى بي مدير السجن خيراً، وسمح لي بالحصول على الكتب التي أحب قراءتها، وكان لا يدخر وسعاً في ادخال الطمأنينة والسكون إلى روعي.

وحينما استقر بي المقام وراء تلك الأسوار الحديدية أحسست أنه قد انقطعت بي أسباب الاتصال بالدنيا، بالحرية، بالمشاركة العامة، وتبينت لي الحياة الإنسانية على حقيقتها ـ فهي تجاوب

روحي يحس فيه الفرد بالأنس والطمأنينة التي تنتقل إليه من أرواح الآخرين الذين يألفهم ويألفونه، وإن الروح تأنس بالمناظر المتجددة والانطلاق، ومتى حرمت من ذلك فإنها تصفق كما يصفق الطائر بأجنحته بين جدران القفص الذي حبس فيه.

ولقد حاولت أن أتجاوب مع البيئة التي وجدت فيها وأصغي إلى أرواح أولئك البائسين الذين جمعني القدر بهم في ذلك الفناء الفسيح، والأروقة المطلة عليه، حتى لكأنه جزيرة منعزلة عن الكون، تقوم وسط بحار من الوحشة واليأس والقنوط. وكان مدير السجن يمثل الحاكم بأمره، عملاق بين أقزام، وسيد بين عبيد، وحاكم مطلق بين محكومين، وكنت أحس في أعماق نفسي أنه لا بد وأن أضع حداً من اللحظة الأولى للعلاقة بيني وبين هذا الحاكم المستبد، فتبادلنا عنفاً بعنف، ولقاء صارماً بمثله، حتى كان يوم زارني فيه مدير الأمن العام زيارة مجاملة ليطمئن على صحتي، ويشعرني باحساساته الرقيقة نحوي، وبعدها تغيرت معاملة ذلك الحاكم بأمره، وبدأت المجاملات تقوم على ساقيها بيننا، وأصبحت آنس بوجوده، بل اجتمع أنسي بالأحياء جميعاً فيه، وتكشف لي بعد ذلك عن طيبة مختبئة وراء ذلك المظهر الخشن الذي فرضته عليه طبيعة عمله. وقد بدأت أتقرب إلى نفوس ذلك الجمع الذي يحيط بي من سوقة وعامة دفع بهم الجهل وضيق التفكير والفقر إلى ارتكاب جرائم صغيرة حقيرة، فهذا سكران قبض عليه وهو يغرق آلامه في كأسه، وذلك اعتدى على

Twitter: @abdulllah1994

رفيق له في قارعة الطريق، وآخر دفعته الحاجة إلى مد شباك الحيلة ليقتنص مال غيره بغير وجه مشروع، وتبين لي أن وراء هذه النفوس الصغيرة عالماً مشرقاً بالطيبة الأصيلة والأحلام السعيدة وتوطين النفس على أعباء الحياة ومكارهها بصبر، وأن هذا الوسط من الناس يمكنه بقليل من التوجيه الصالح أن يؤدي أفضل دور في الحياة العامة لأن عليه أعظم مسؤوليات الحياة، فهو الذي يكدح حين ينام المترفون، وهو الذي يصنع برد الحياة القشيبة الناعمة التي يسعد بها المسعدون، واعتقدت أن السجن قد يؤدي دوراً أفضل مما تؤديه المدرسة لو وضع له برنامج دقيق يتسلط على مواهب المسجونين فينميها، وعقولهم فيصقلها وأرواحهم فيهذبها ويطهرها حتى إذا خرجوا إلى الدنيا مرة أخرى يخرجون إليها بالخير، والكرامة، والفضيلة.

كانت أيام السجن بطيئة ضيقة، لا تفنيها قراءة ولا نوم ولا حديث، وكأن الساعة الواحدة كألف ساعة، واليوم من أيامه كألف يوم، وكان الشيء الوحيد الذي يجدد من أيامه هو دخول ضيف جديد على أضيافه، إذ انه ينشر في الفترة الأولى من مقامه بينهم ألواناً جديدة من المواضيع، والحديث، والنكات، حتى إذا أدركه القدم انضم إلى سلة المهملات التي لا تلفت نظراً ولا تعير اهتماماً.

وبعد أربعة شهور تفوق الوصف سأماً ومللاً واستطالة، وفي مساء يوم من أيام ذلك التاريخ الميت في دنيا الأحياء، سمعت

Twitter: @abdulllah1994

منادياً يهتف باسمي! ورأيت من وراء الأسوار الحديدية السيد مهدي ومعه صديق كريم هو الدكتور محمد خاشقجي، جاءا ليبشراني بالعودة إلى الحياة وقد كان مهدي كريماً حين قال لي لقد كان يجب أن يحمل إليك هذه البشرى واحد من أهلك، ولكني وقد بلغتك ما تكره، فقد احتفظت لنفسي بأن أنقل إليك ما يسر، وخرجت من السجن بين عاصفة من ولاء وحب وعواطف زملاء تلك الفترة البائسة اليائسة، وقد كنت أبادلهم ولاء بولاء وعطفاً بعطف. وحين خرجت من السجن لم يكن سيده موجوداً، ومن غريب الصدف إذ لقيني سائراً في الطريق بالقرب من داري فبدت الحيرة على وجهه، ولم يكن يعلم سر هذه المفاجأة، فصاحبني إلى داري في لطف وحذر، وهو يحاول أن يفهم سر هذه المفاجأة، ولقد وجدتها فرصة ممتعة كي أداوره وأحاوره وأبتعد عن تفسير الموقف تفسيراً يطمئنه أنني لست هارباً، وحين علم الحقيقة بدت عليه علائم الغبطة المضاعفة، الغبطة للخير الذي لحقني، والغبطة لسلامته من مسؤولية سجين يتركه قبل ساعة بين أسوار السجن ثم يراه يمرح خارجه بعد ذلك.

وقد شعرت بعد انطلاقي بفرحة لكل شيء، فرحة لا يدركها إلا من حرم نعمة الحرية ثم ردت إليه فجأة.

لقد أحسست بأن الحياة جميلة، وكل ما فيها جميل أحسست بجمال نور الشمس، وظلام الليل، ورؤية الناس، وقدرتي على الذهاب حيثما أردت، والاتصال بمن أحب.

Twitter: @abdulllah1994

أحسست بنعمة البيت الذي حرمت منه، وسعـادة الأهل والأولاد، وكانت كل دقيقة بعد الحرية مشحونة بالسعادة مثلما كانت كل دقيقة في السجن مشحونة بالقنوط.

وانقضت فترة من الزمن كلها أعياد وغبطة وسرور، وبدأت أبحث عن شخصيتي الاجتماعية، شخصية العمل الذي اندمج فيه، والوسط الذي أعيش بين أفراده وشعرت بأن أثر تلك التهمة لم يزل يلاحقني، وأحسست بأن الناس ينظرون إلي نظرة اشفاق قاسية مزرية ونفور!

وكـان علي أن أصحـح خطأ هـذه النظرة، وأقـاوم ذلـك الاحساس العام، وأثبت أنني مواطن صالح قبل الحادث وبعده، وان ما لحقني لم يكن من كسبي، وليس له أي أثر فـي حياتي.

وفي هذه الفترة أيضاً امتدت إلي تلك اليد البيضاء الكريمة، يد سمو الأمير فيصل، فأزاحت عني تلك الغشاوة، ورفعتني إلى مستوى الثقة الحكومية التي يتمتع بها جميع المواطنين الصالحين.

وتدخل في ذلك الوقت السيد نجيب صالحة، وقد كان مديراً عاماً لمكتب المعادن والأشغال العمومية، وكرر رغبته التي أفضى بها إلي قبل هذا الحادث ـ بأن أنضم للعمل معه ـ وقد أسدى إلي في فترة هذه المحنة معروفاً يستحق الشكر والذكر، ولكني فضلت ـ رغم حرصه واصراره عليّ ـ أن أبدأ من النقطـة التي انتهيت إليها لأربط أطراف الـزمن قبل الحـادث وبعده، فعــدت إلى

Twitter: @abdulllah1994

وظيفتي نفسها في وزارة المالية.

* * *

ومضت الأيام والسنون سراعاً، وأخذ أولادي يكثرون ويكبرون، وعادت إلي فكرة العناية بتعليمهم، وعاودتني رغبة النزوح إلى مصر لادخالهم بالمدراس والعناية بهم ووجدت أن هذه الرسالة تستحق التضحية فأخذت أرتب أمري خارج حدود الوظيفة واشتغلت بالتجارة، وأخذ الله بيدي ويسر لي النجاح في هذا الميدان.

وفي عام **١٣٦٩** جئت إلى مصر، وأدخلت أبنائي في المدارس وبقيت إلى جانبهم ألاحظ توجيههم، وأجنبهم العثار، وأحرص على تنشئتهم نشأة كريمة صالحة لأقدمهم أعضاء عاملين نافعين للمجتمع.

* * *

وفي عام **١٣٧٥** بدا للسادة أصحاب البنك الأهلي التجاري فكرة فتح فرع لمؤسستهم في القاهرة فرشحوني لإدارته والقيام عليه، وقد كانت تربط بيني وبينهم صداقة متينة وصلات كريمة، فقبلت القيام بهذه المهمة لما لها من أثر واسع في خدمة الاقتصاد العربي، ودعم أواصر الصداقة بين الشعبين السعودي والمصري بالصلات المالية التي يهيئها وجود هذا الفرع، وقد أقبلت على هذا العمل بضمير راضٍ، ورغبة مضاعفة لأنني أحسست بأنني

Twitter: @abdulllah1994

أؤدي خدمة لبلدي، ومواطني وللبلاد التي لها فضل علي ـ مصر الشقيقة التي أتمتع بخيراتها، وأقضي فترة من عمري بين ربوعها المشرقة الزاهية، وأثقف أولادي في مدارسها.

* * *

هذه هي حياتي حتى الآن، ولست أدري بما يأتي به الغد، وآمل أن يأتي بكل خير، والغيب أفق زاخر بالمفاجآت والأحداث، تحملنا إليها مركبة الزمن من أيام وليالٍ، وكلما قربنا من حلقة من حلقاته عرفنا ما تكنه من غيب مسطور وقدر مقدور.

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

أُشخاصٌ في حياتي

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

الهَدَفْ

ذلك أنني وجدت حياة الفرد خاضعة دائمًا للمؤثرات الخارجية التي توجهها طواعية أو كراهية، وبحالة شعورية أو غير شعورية، وأن شخصاً واحداً يدخل في حياة شخص آخر أو في حياة جماعة يحولها تحويلاً تاماً في الموضوع والأسلوب، يحولها في أهدافها كما يحولها في اتجاهها وقل بين الناس من لم يتأثر بشخصية أو شخصيات دخلت في حياته.

وأرى أن من حق كل إنسان أن يبحث عن أثر البيئة الاجتماعية التي يعيش بينها ويتأثر بها في حياته فإن ذلك يسهل على المرء فهم نفسه ومعرفة البداية التي ابتدأ منها والنهاية التي انتهى إليها وقربه من محوره الأصلي أو بعده عنه.

ولست أعترف بأن ما سأسجله عن كثير من هذه الشخصيات هو تسجيل لها، ولكنه وصف لمشاعري وإحساساتي المستمدة منها، والتي تركت أثراً في حياتي الخاصة، وكل من ظن أن وصفاً لشخصية من الشخصيات ينطبق عليه أو يقصد به فإنني

Twitter: @abdulllah1994

أعتذر إليه - فإنه لا يوجد لأي أحد معين صورة محددة فيما كتبت.

ولكنها انطباعات خاصة في نفسي وقد يكون تجاوبها في إحساساتي ومشاعري أبعد ما يكون عن حقيقتها بالنسبة لأصحابها ولذلك فإنها جزء من نفسي أكثر ما تكون ترجمة لأشخاص بعينهم.

ولهذا فإنني لم أترجم لأحد وإنما ترجمت التجاوب الذي تم في نفسي وتأثرت به حياتي من ملابساتي لبعض الشخصيات.

Twitter: @abdulllah1994

أشخاص في حياتي

حين قدمت ـ حياتي ـ مرسومة في سطور لم أشعر بأنني أديت عملاً ذا بال أو أهمية بالنسبة لغيري. لأن الفرد ما لم تكن شخصيته ذات أثر واسع، ويتصل أثرها بحياة الآخرين بحيث ترتبط به آمالهم أو آلامهم أو تتشبع به أحاسيسهم من حب أو بغض أو استظراف أو استنكار أو خشية أو رجاء أو تقدير لصفات تجتمع عليها القلوب. فإن حياته تمثل نقطة في بحر تتجمع فيه ملايين النقط ولا تميز واحدة منها عن الأخرى أي صفة تشير إلى وجود مستقل وهو نوع من الوجود غير المحسوس، ولقد تنبه المتنبي بفطرته إلى النوع الأول من الحياة فوصفه بقوله:

وتركك في الدنيا دويا كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

وهذا النوع من الحياة هو ما تتنبه له الأذهان وتتفتح له القلوب وتلتقي عنده العواطف لا بالحب والثناء ونثر الزهور، وإنما يكون

Twitter: @abdulllah1994

أحياناً بالنقد اللاذع والتجريح المرير وكلا الأسلوبين يشير إلى أن هناك حياة صاخبة ذات أثر امتد إلى حياة الآخرين فأطلق بعضها بالثناء وطلق المجامر كما امتد إلى بعضها بما أثار أحقادها وسخطها وهي حياة فعالة في الحالين وذات وجود محسوس.

أما حياتي فقد ضربت لها مثلاً بالنقطة التي تختلط بين مجموعة من ملايين النقط في وجود غير محسوس وكل ما فعلته بالنسبة لها انني وجهت مرآة صغيرة إلى جانب من جوانبها فظهر له عكس محدود، ولكني شعرت بمنتهى الغبطة لرجع صدى ذلك العمل من بعض أصدقائي. ومن أشخاص آخرين لم أكن أتوقع أن تجد تلك الصورة مجالاً في نفوسهم.

لقد قال لي صديق - إنك وفقت كل التوفيق.

وقال لي أديب حر - لقد سجلت لنا فترة أوشكت أن تنقرض.

وقال لي رجل مسؤول كبير - يضن بثنائه أكثر مما يضن بماله - لقد قرأت كتابك رغم مشاغلي الكثيرة وضيق وقتي، وإنه بمثابة الرائد للشباب ولكني أعتقد أنك أخطأت فيما سجلته بصدد كذا. . . لأنني أعلم عن حقيقة الأمر ما يخالف ما ذكرت.

وتلطف أحد الرجال المسؤولين فوجه من الثناء على الكتاب أكثر مما يستحق وهو في ذلك إنما يعبر عن طيبة كمينة في نفسه.

Twitter: @abdulllah1994

وعتب عليّ بعض الأصدقاء ما أهملته من نواحٍ كان يجب أن تستوفى لتتم الصورة ولم يجدوا في الملابسات التي تحيط بالفرد مبرراً لهذا النقص، ولقد وجدت أنني مدين بالشكر لمن تلقى هذه الصورة بشعور طيب لأنه بذلك قد أسدى إلي معروفاً يستحق الشكر.

أما الذين طالبوني باكمال ما انتقص منها فإني رأيت أن أعوضهم بما أعتقد أنه أفضل وأقرب إلى تحقيق رغباتهم.

ذلك أنني وجدت أن حياة الفرد خاضعة دائمًا للمؤثرات الخارجية التي توجهها طواعية أو كراهية وبحالة شعورية أو غير شعورية، وأن شخصاً واحداً يدخل في حياة شخص آخر أو في حياة جماعة يحولها تحويلاً تاماً في الموضوع والأسلوب يحولها في أهدافها كما يحولها في اتجاهها، وقل بين الناس من لم يتأثر بشخصية أو شخصيات دخلت في حياته.

وسأحاول أن أكتب عن أثر هذه الشخصيات في حياتي لأن ذلك أجدى من استيفاء ما أهملت فيها، وسأحرص أن أستعرض هذه الشخصيات بأوصافها وآثارها لا بأسمائها إلا من لا يكون لذكر اسمه أي مانع، وسأحرص في وصفها بأمانة كما هي في نفسي وكما ترتب عليه أثرها في حياتي وليس هذا يعني الحقيقة كاملة لأن كل شخصية لها جوانب وكل إنسان يراها من الجانب الذي يتيسر له أن يعرفها به، وإنني أذكر بهذه المناسبة أن مؤرخاً

Twitter: @abdulllah1994

أراد أن يكتب ترجمة لرجل فذهب إلى داره يسأل زوجته عن أخلاقه في منزله ومعاملته مع خدمه وأولاده وجيرانه وفسر تصرفه ذلك بأنه أراد أن يسجل ترجمة لشخصيته حسب الفطرة وكما تظهر على حقيقتها لا كما يتصنع المتظاهر به أمام الناس فيعرفهم عنه ما يشاء ولو كان زيفاً ويخفي ما يشاء ولو كان حقيقة.

وإنني لست أسجل عن الفطرة والطبيعة ولكني أسجل أثر هذه الشخصيات بالنسبة إليَّ. وقد لابستها في حياة عامة خاضعة لكل ما تخضع له الحياة من بهرج وألوان فإن كان لذلك أي أثر من الحقيقة فهو توفيق لم أتعمده وإن كان بعيداً عنها فذلك لأن طبيعة الحياة تفرض على الأحياء تصرفات ليست في طبيعتهم فكم من يد رحيمة وراءها قلب أثيم وكم من جلاد ينفذ أمر مولاه وقلبه يتفطر حناناً وشفقة.

ولست أعترف بأن ما سأسجله عن كثير من هذه الشخصيات هو تسجيل لها. ولكنه وصف لمشاعري وإحساساتي المستمدة منها والتي تركت أثراً في حياتي الخاصة. وكل من ظن أن وصفاً لشخصية من الشخصيات ينطبق عليه أو يقصد به فإنني أعتذر إليه فإنه لا يوجد لأي أحد معين صورة محددة فيما كتبت ولكنها انطباعات قامت في نفسي وقد يكون تجاوبها في إحساساتي ومشاعري أبعد ما تكون عن حقيقتها بالنسبة لأصحابها ولذلك فإنها جزء من نفسي أكثر ما تكون ترجمة لأشخاص بعينهم، ولهذا فإنني لم أترجم لأحد وإنما ترجمت التجاوب الذي تم في نفسي

Twitter: @abdulllah1994

وتأثرت به حياتي من ملابساتي لبعض الشخصيــات.

إنني قد أكون مخطئاً أو مصيباً في ذلك التجاوب،وقد تكون انفعالاتي الخارجية بتلك الشخصيات متأثرة بـأفكاري الخـاصة ومزاجي الخاص لكن ذلك هو ما يهمني تسجيله،لأن هذه المعاني هي ما يهمني أمرها وليس يهمني تصحيح الوضع والبحث عن حقائق الأشياء فإنني إنما أبحث عن مدى ما تلونت به حياتي وتأثرت به اتجاهـاتي بسبب تلك الاتصالات،ولـذلك فـإنني لم أتعرض لأحد بمدح أو ذم، وأعتقد أن كل إنسان خاضع لهذه العوامل في حياته،وأرى أن من حق كل إنسان أن يبحث عن أثر البيئة الاجتماعية التي يعيش بينها ويتأثر بها في حياته،فإن ذلك يسهل على المرء فهم نفسه ومعرفة البداية التي ابتدأ منها والنهاية التي انتهى إليها وقربه من محوره الأصلي أو بعده عنه.

Twitter: @abdulllah1994

في المنزل

والدتي ...
ذكاء قلب ...

لم أعرف شيئاً عن والدتي إلا بطريق السماع فقد توفيت وتركتنا صغاراً لا ندرك شيئاً عن حياتها ولكني سمعت عنها صفات جمة تنم عن ذكاء قلب، وصفاء نفس وكسب لحب جميع عارفيها وقد أوصت والدي عند وفاتها أن يحرص على إكمال تعليمنا وأن يهيئنا لحياة كريمة.

Twitter: @abdulllah1994

شَقيقَتي

حنان ... وتوجيه ...

فلقد عرفت شقيقتي التي كانت تكبرني سناً؛ فملأت برحمتها فراغ يتمنا وكانت تثير في روحنا العزة والكرامة والترفع عن الشعور بضعف اليتامى وحاجتهم إلى عطف الآخرين فكانت أول من بذر في روحنا الاعتداد بالنفس والترفع على استجداء العطف كما يفعل الأطفال، بل لقد كان يذهب بها إحساسها المرهف إلى القسوة علينا إذا ما تعرضنا بأنفسنا أو تعرض لنا الغير بلون من ألوان العطف.

ولقد أحببناها حباً جعلها تتسلط به على أفكارنا وقلوبنا فتوجهنا توجيهاً صالحاً يتفق مع طفولتنا وقد شمل هذا التوجيه الحث على النجاح في الدراسة، والمحافظة على النظافة وحب النظام والشفقة على كل من خالطنا.

Twitter: @abdulllah1994

وَالِدِي

حامل رسالة

أما والدي فكان كمن يحمل رسالة يشفق أن تفوته الفرصة دون أدائها حق الأداء ولذلك فقد جعل لنا من المنزل مدرسة أقسى من المدرسة التي ندرس فيها فهو لا يتحدث معنا إلا في شؤون الدراسة وما أدركنا وما لم ندرك ويرافقنا الساعات الطوال في المذاكرة حتى ترك في نفسنا عقدة الشعور بالمسؤولية وقضى على روح الطفولة في نفوسنا وجعلنا نشعر بأن الحياة كلها واجبات لا هوادة فيها ولكنه بعد أن تخطينا مرحلة الطفولة المبكرة كان لنا بمثابة حامل المشعل يضيء الطريق ولا يلزم على اتباعه وقد ربى فينا حرية الإرادة والرأي والتفكير وكان يفضل أن نتعلم من أخطائنا أكثر مما نتعلم من إلزامه وتوجيهه وكان يردد على أسماعنا الكلمة المأثورة ـ الدهر نعم المربي.

Twitter: @abdulllah1994

جَدّي

حياته وفق إرادته

والشخصية القوية الرضية التي كانت تيهمن على مشاعرنا وإحساساتنا هو جدي السيد عبد الهادي كتبي فقد كان منبسط الأسارير دائمًا رضي الخلق مثلاً على الصلاح والتقوى وكان يصوغ توجيهاته في أسلوب من القصص والنكات اللطيفة، وكان له في حياته أسلوب لا يشذ عنه يجمع به بين رضاء ربه وإرضاء أهله وكان مؤمناً شديد الإيمان شديد التمسك بهذا الأسلوب في الحياة. ومؤمناً شديد الإيمان والتمسك بما ينطوي عليه من مبادىء سليمة.

نشأ في ظل والده وقد كان من أكابر العلماء في الفقه وزامل مشيخة من أساطين العلم الديني الذين كان لهم سلطان في بيئتهم الاجتماعية وكانت لهم القدرة على توجيه الحياة فيما حولهم، ولقد ألفنا فيه شخصاً يصرف حياته وفقاً لإرادته ولا يتطور مع الأحداث كما تكون، وكان دمثاً في معالجته للأمور فلا يصطرع مع المشاكل التي تمر به أياً كان نوعها ولكنه يسوسها برفق حتى

Twitter: @abdulllah1994

تلين وتفنى وفقاً لمشيئته من غير أن يحدث ضجة أو يشرك أحداً في أموره. لم يكن غنياً ولكنه كان مدبراً وقانعاً وبذلك أضفى على عائلته بحبوحة من العيش الرغد اليسير الذي كان يدعوه «بالستر الجميل» ولذا فقد كان متهمًا بالغنى واليسار. وكان جامعة لعائلة كبيرة تحترم رأيه وتفنى في إرضائه وتحوطه بهالة من التقدير والاحترام والحب ولا تصدر في أمر من أمورها إلا بعد مشورته كما كان مرجعاً لجميع عارفيه في جميع شؤونهم. ورثنا تقاليد من الأخلاق والعادات لم نستطع التحلل منها طيلة حياتنا كاحترام الكبير. وعدم تفنيد أي رأي في مواجهة صاحبه والرضاء بالواقع وعدم اللغو والمزاح والرزانة في الحركات والأعمال والأقوال، وألا نكلف الحياة غير طباعها وكان يصدر في توجيهه لهذا الأسلوب عن إيمان به فكان يلزم نفسه ذلك وينقله إلينا بطريق من الإيحاء والقصص والنصيحة والمصاحبة الدائمة له ولا شك أن كل تلك الصفات فضائل ما لم تبلغ الحد الذي انتهى بنا إليه **فإن المجتمعات قد تتطلب تحرراً من كل هذه القيود فهو كما ورثنا التقيد بها لم يعلمنا الانطلاق منها متى استوجبت الحياة ذلك، وقد وجدنا أن المجتمعات تضيق ذرعاً بهذه القيود أحياناً ولا تطيقها إلا في حدود ضيقة معينة وبذلك فقد ترك في نفوسنا عقدة بالنسبة لهذه الفضائل التي إذا لم تجد مجالها فإنها تؤدي إلى عكس النتيجة كما ترك بتلك التربية ذات الوجه الواحد فجوة واضحة بيننا وبين كثير من الأوساط وفي حالات كثيرة من ظروف**

Twitter: @abdulllah1994

المعيشة. وإنني لأذكر بهذه المناسبة كلمة حكيمة لحكيم من حكماء العرب إذ يقول: ـ لا تقسروا أبناءكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم.

ولقد كان بحكم اتجاهه الديني الموروث يوجهنا في نفس الطريق فألزمنا حفظ القرآن وحبب إلينا الانصراف كل الانصراف للعلوم الدينية وركز في أذهاننا أن هناك رسالة اضطلع بها أجدادنا وأنها تنتظر منا القيام بها وكان يتخذ من كل مناسبة سانحة أو أحوال طارئة أو مقالة عابرة وسيلة لتأكيد هذا المعنى في أذهاننا حتى لقد كنا نشعر بشيخوخة مبكرة في أرواحنا ورزانة ثقيلة في طفولتنا تنفرنا من أترابنا ولداتنا من الأطفال وتجعلنا نستنكر أفعالهم ونتظاهر برجاحة الرأي وسعة العقل والظهور بالحكمة في وقت كان فيه طيش الطفولة ومرحها وانطلاقها أليق بنا وأنفع لنا من تقليد الكبار ورزانتهم والتشبه بهم في أفعالهم وأقوالهم وآدابهم. ولكنه رغم حرصه على توجيهنا هذه الوجهة حال دون معارضة والدنا لسفرنا إلى الهند في البعثة التي اختارها الحاج محمد علي زينل رضا للدراسة في بمباي وكان رأيه في ذلك أن هذا السفر سيفتح عيوننا على آفاق من التجارب تهيئنا لحياة أفضل وأرشد، وإنني لأشعر في قرارة نفسي بالإيمان بمبادئه وأسلوبه في الحياة وأنها أفضل مبادىء وأقوم أساليب وإن كنت أعجز عن اتباعها لأن المبادىء كلما سمت كانت بحاجة إلى ضبط كامل

Twitter: @abdulllah1994

للنفس واعتداد شديد بالرأي وحساب دقيق لكل ما يأتيه الإنسان ويذره من التصرفات ولكنه على العموم كان صاحب ألفضل الأول والأثر الأكبر في توجيهي من الناحية النفسية والفكرية، وإنني لأشعر في كثير من الشؤون العامة وقد انصرف ذهني بصورة لا إرادية إلى المقارنة بين ما كان يتبعه في مثل هذه الشؤون وأناقش على ضوء ذلك تصرفاتي وكثيراً ما وجدت في هذه المناقشة هدياً وتوفيقاً يضاعف من احترامي لشخصيته الفاضلة ويزيدها حيوية في روحي رحمه الله جداً محسناً وزاد في رحمته مربياً ومرشداً.

Twitter: @abdulllah1994

السَيّدعَلي كتُبيْ

جـــرأة ...

واعتـــداد ...

وكنت أعجب بخالي السيد عـلي كتبي في تناسق مـظهره وترتيبه وتنميقه لحديثه وكياسته في مجالسه واعتداده بنفسه وكان يسرني الإصغاء إليه ولا سيما إذا استعرض تجاربه في الحياة وكان يدهشني منه جلده وصبره على تحمل الأحداث ومغالبة الأمـور والجرأة في المواقف التي يتوارى عنها كثير من الناس.

وحين بدأت في دراسة الأدب كنت معجباً بأسلوبه في الكتابة على طريقة الهمذاني وابن المقفع وقد اختلطت كل هذه المعاني في نفسي الصغيرة وكنت أحاول الاقتداء بها والأخذ بغرارها ولكن فترة انتقالي إلى الهند للدراسة طوت أثر ذلك من نفسي وقد بقي الإعجاب ولو لم يتحقق الاقتداء.

Twitter: @abdulllah1994

أخي سامي

قوة خفية ... وروح متحدة ...

أما أخي سامي فكان صدى لإحساساتي ومرآة لنفسي عشنا معاً ولم نفترق لحظة واحدة في طفولتنا وقد وحدت بين قلبينا جميع أسباب الحياة فلقد كنا نأكل معاً ونلبس كذلك وندرس ونفكر ونعمل أي عمل مشتركين كما لو كنا شخصاً واحداً وقد أمضينا الفترة الأولى من عمرنا على هذه الحال حتى خرجنا إلى الحياة الكادحة العاملة وفي هذا الميدان تجلت وحدة أرواحنا ومشاعرنا وأصبحت أشعر بأن شخصيتي لا تتم إلا به وأنه لا بد لي إذا أردت أن أبدي في أمر من الأمور أو أعيد أن أطمئن إلى رأيه أولاً، وكل عمل يتنافى مع أفكاره وشعوره أنبذه ولو كان بعكس ذلك عندي. وهكذا فقد غلبت روحه على روحي واتحدت إرادتنا وأفكارنا في الحياة العامة كما كنا في عهد الطفولة ومراحل الدراسة. ولقد أحببته حباً طغى على قلبي حتى غلب على حبي لنفسي ولست أعرف أي تأثير لإنسان في الحياة يفوق تأثيره عليّ وسيطرته على مسارب تفكيري وطرائق حسي. وهو في حياتي كالقوة الخفية التي تسيرها على القرب والبعد. ولا تستطيع الإفلات منها ولقد وجدت في إخائه فضل الأخوة وكرامتها وجمالها وقوتها..

Twitter: @abdulllah1994

زَوْجَتِي

بعث عاطفي ... وحرب على الكتاب

وهناك شخص آخر من أسرة المنزل كان له أثر أي أثر في توجيه حياتي تلك هي زوجتي فقد نشأت محروماً من عطف الأمومة وعوضت ذلك في حنان أختي التي كانت كالزهرة لم تلبث بعد تفتحها أن ذبلت في أقصر عمر وذهبت قبل أن تذهب بهجتها وجمالها من العين فكانت فاجعة روعت قلبي وأترعته حزناً وأسى في وقت مبكر من شبابي وقد تركت بفضل عطفها وكرم أخلاقها في نفسي إيماناً عميقاً بالمرأة ودورها في الحياة، بل لقد جعلتني أؤمن بأن المرأة هي سحر الحياة وجمالها وأحلامها السعيدة وقد بدأت أتخيل كل ذلك في الزوجة التي تشاركني حياتي وأسلم لها زمام نفسي وأجد في مشاركتها الحياة كل آمالي وأحلامي.

وحين كانت المرأة التي ستدخل في حياتي حلمًا من الأحلام كنت أملأ فراغ نفسي بالمطالعة والكتابة والدرس فكنت أحيا في جو مكبوت العاطفة غائر الحس حتى تحقق الحلم السعيد ودخل هذا الشخص المنتظر في حياتي فبعث في نفسي ذلك الإيمان

Twitter: @abdulllah1994

الكامل بالمرأة وأثرها في الحياة وقد شعرت بأن قلبي يترع بالسعادة وأن هناك أهدافاً يعيش لها المرء هي أسمى بكثير من نفسه، ولقد تعلقت آمالي بالحياة الرغدة والثراء وتفتحت عزيمتي لتحمل المسؤولية والنهوض بها ووجدت العاطفة التي أخذت تتدفق في روحي تشد عزيمتي وتيسر لي الصعاب في طريقي وعند هذه المرحلة بدأت حياتي الحقيقية وانتهى دور الدرس والكتابة وانقطعت صحبتي لمكتبى وكتبي.

وقد وجدت زوجتي في الكتاب غريماً يجب القضاء عليه فأعنتها عليه ووجدت فيها خير عوض عنه. ولقد كنت وما زلت أعتقد أن المرأة والحياة أوسع كتاب يفني المرء دون أن يتم درسه أو يفرغ من معرفة حقائقه، وعندئذ بدأت أتأثر بالحياة العامة وأشق طريقي فيها وقد صادفني فيها أشخاص سأوضح أثرهم في حياتي بعد أن استوفي ما كان من الأثر للأشخاص الذين تأثرت بهم في مرحلة الدراسة.

Twitter: @abdulllah1994

في المدرسة

أسَاتذة أذكِيَاء ...
جُنودٌ مَجْهُولون ...
وَجهُودٌ موفّقَة ...

لقد كانت الدراسة في عهدنا علمًا ينقل نقلاً من ذهن إلى ذهن ومن قلب إلى قلب كما ينقل أي شيء محسوس من وعاء إلى وعاء فإذا لم تتم عملية النقل بيسر وسهولة فلا بد من أن تتم بأي لون من ألوان العنف ولو انكسر الوعاء وتلف ولم يبق صالحاً للاستعمال ولم يكن بين الأساتذة في المدرسة من يأخذ التدريس كفن من فنون التربية يعالجها بالنسبة لعقلية كل طالب حسب استعداده وميوله وذكائه وقدرته على الفهم إلا شابين أحدهما على قيد الحياة وهو الآن يعمل في حقل غير حقل التعليم وكان أنفع لو بقي فيه وأعني أنه أكثر نفعاً لغيره لا لما يعود عليه من فائدة مادية وجدوى ـ لأن المدرس لم يزل حتى الآن رغم ما ارتقى إليه مستوى الأساتذة وأصبح كثير منهم من حملة الشهادات العالية وخريجي الجامعات ـ لم يزل مهضوماً من ناحية التقدير المادي وهذا

Twitter: @abdulllah1994

ما يدفع بكثير من المتعلمين للانصراف عن حياة التعليم لئلا يقضي بالانخراط في هذا الحقل على مستقبله.

والشاب الآخر أفناه ذكاؤه المرهف وأعصابه الحساسة المتوفزة وصحته المعتلة فقضى نحبه وهو يؤدي أمانة العلم على خير وجوهها..

ولقد ترك كل من هذين الأستاذين في نفسي صدى حياً ملموساً زدت إيماناً وتمسكاً به حين درست أصول التربية والتعليم وأصبحت مدرساً، فقد كان الواحد منهما يدخل القسم وهو باسم كما يدخل الأخ الأكبر على إخوته الصغار، وقد يبدأ الحديث في أي موضوع من المواضيع العامة قبل أن يبدأ الدرس حتى يفرخ روع الطلبة وتسكن نفوسهم وقلما يفاجىء بالأسئلة المحيرة التي تربك ذهن الطلبة حتى إذا سأل فإنه يمهد للإجابة على سؤاله قبل أو بعد السؤال مباشرة بما يفتح الذهن ويساعده على الفهم وعدم الارتباك، وكان يبدأ الدرس الجديد بإلقاء نبذة جامعة عن المواضيع التي سبقته لربط حلقاتها في ذهن الطالب ويدخل به على الحلقة الجديدة في ألفة وهوادة وكان يثير انتباه الطلبة بأن يترك لهم الفرصة لإكمال الجمل التي يبتدئها فيذكر صدر الجملة ليتنافسوا على إكمال طرفها الآخر، كما يثير روح التنافس على الكمال والحرص على أداء الواجب. وكان الأستاذ الذي ودع الحياة وطنياً غيوراً فكان يصهر قضايا التاريخ صهراً لينقل إلى نفوس طلبته الإحساس الكامل بمجد العرب وطموحهم وشجاعتهم وأخلاقهم

Twitter: @abdulllah1994

الصريحة التي مكنتهم من الفتح المتدفق الذي اجتاح العالم في سنوات قليلة. وكان يملي حديثه من أعماق قلبه حتى يوشك أن ينقل مشاهد التاريخ نقلاً حقيقياً لا ينقصها مكان ولا زمان ولا حركة فكان يهيء لنا فرصة نحس فيها بطريق السماع ما يحسه المشاهد لأي فيلم سينمائي من أروع الأفلام ينقل صورة لقصة تاريخية أو حوادث واقعية مكتملة الأداء. وكان هو نفسه يندمج مع أبطاله الذين يشرح تاريخهم أو الوقائع التي يبسطها حتى يفنى في إحساسه ذلك ولا يشعر بوجوده بيننا وينقلنا إلى جوه الروحي كما ينقل الممثل الكوميدي البارع النظارة إلى جو القصة وزمانها ومكانها ويقضي معهم فترة وهو وهم في حالة ذهول، وكان يهضم تاريخ البطولة العربية وعزتها ومجدها حتى يتصور أنه ماض في إعادة ذلك التاريخ وأن ذلك سهل ميسور وكان يفني روحه القوية وجسمه العليل في هذه الدعوة حتى انتهى في نضرة شبابه وقد أدركنا من الحزن على فقده ما لا يقل عن إحساس أهله وذويه وكنت آنئذ في فجر الربيع الثاني من عمري. رحم الله السيد شيخ حمدي فلقد كان شبابه الفقيد خسارة فادحة لوطنه.

أما الأستاذ الذي لم يزل على قيد الحياة ونتمنى له طول البقاء فقد كان أديباً وشاعراً وهادئاً إلى حد يثير حفيظة الأعصاب المرهفة ولم يزل كذلك وكان يحب العلم للعلم ويزاول التدريس كهواية يرضي بها نفسه ويكسب بها قلوب تلاميذه، أسلوبه في التدريس كما أوضحت سابقاً وهو حبيب إلى قلوب جميع الطلبة

Twitter: @abdulllah1994

كما هو الآن حبيب لقلوب جميع عارفيه ولم تمنع صفاته الفاضلة من سخط الذين لا يطيقون احتمال أناته العميقة وهدوئه الراسخ والروح الحالمة التي يتلقى بها صروف الحياة ولقد أعجبت به كأستاذ يوم كنت أقعد بين يديه طالباً كما أعجبت به كصديق حين وشجت الصلات العميقة بيننا أواصر الصداقة كما زاملته طويلاً في العمل فتكشفت لي خبايا نفسه الطيبة الكمينة. لم يكن يطعن في أحد بسوء حتى من أساء إليه ويلتمس لأشد تصرفات الآخرين شذوذاً مبررات وأعذاراً تحير الإنسان في طريقة فهمه للأمور ويعرف للناس حقوقهم كما يؤديها لهم كاملة ويتسامح لهم فيما يهضمون من حقوقه وقد يفاجئك في أمر غير ذي بال بأشد أنواع الحرص والاهتمام والتهويل من شأنه حتى تشعر بالدهشة لذلك وكنت بحكم صداقتي وحبي له وإعجابي به استقبل كل هذه الانطباعات منه بتفكير عميق وأعجز في كثير من المواقف عن فهم أسبابها في عقله الباطن وتفكيره ولكن الشيء الوحيد الذي يضفيه على خليطه صفاء نفسه وخلوه من الحقد والمكر وصراحته التي تظهر أحياناً في صورة من البساطة والصفاء تجعلها مقبولة في نفس السامع ولو أضرت به. وأعتقد أن تأثري بهذه الشخصية في مظاهر متنوعة كطالب مع أستاذه وكصديق مع صديقه وكزميل في الحياة العملية مع زميله ترك في نفسي أبلغ الأثر. وإذا كانت البيئة الطبيعية تترك أثرها الظاهر على من يعيش في أحضانها فإن الصلات المكينة بين الأفراد تترك بدون شك أثراً واسعاً وقوياً مهما كان خفياً وغير محسوس.

جَـلاّدٌ أثِيمٌ

وبعكس ما لهذين الأستاذين من الأثر الـطيب المحبب في نفسي كان سوأ الأثر لأستاذ آخر يدرس لنا الحساب، فقد كان شاباً ضيق القلب قصير النظر قميء المنظر مفرطـاً في العنايـة بهندامه يتشدق في حديثه حتى يمل سامعه من وقع نبرات لفظه في سمعه، وكان ينظر إلى الطلبة كجرذان حقيرة لا تستحق منه إلا العنف والاحتقار وحتى من يحسن في عمله لا يظفر منه بكلمة تشجيع وإذا ظفر بها فإنها تكون بأسلوب يكمـد الروح ويبلد الحس وقد ترك عندي بروحه الثقيلة وأخلاقه السيئة وسوء معاملته عقداً نفسية لهذا الفن فأهملت دراسته ونفر ذهني من قبوله وكنت أؤدي الواجبات المدرسية منه في كراهيـة واشمئزاز وفي أضيق الحدود ولم أقبل على هذا الفن إلا بعد أن تركت المدرسة وشعرت بمقدار الحاجة الشديدة إليه، وكمـا كان هذا الأستاذ بأخـلاقه السيئة وضيق صدره في المدرسة ومع الطلبة فإنه يتمتع بذلك حتى الآن في حياته العامة وقد باعدت نظرته تلك بينه وبين الناس جميعاً

وإنني لأذكر بهذه المناسبة أهمية مسؤولية إختيار المدرسين وتدرج هذه الأهمية حسب أعمار الطلبة وعقولهم واستعدادهم وأن أستاذاً توفرت له أسباب النجاح يستطيع أن يصقل أرواح جيل من الطلبة ويثقف عقولهم ويرفع من مستوى مداركهم وفهمهم للفن أو للفنون التي يغذي بها أذهانهم ويخلط ذلك بحياتهم العامة حتى يظهر أثر نجاحه في مستقبلهم كما تكون النتيجة بعكس ذلك حين يسوء اختيار الأستاذ فإن البناء ينعكس إلى هدم، والإصلاح إلى إفساد وليس كل إنسان مهما علت كعبه في المعرفة يصلح لأن يكون مربياً فإن تطويع النفوس وإسلاس قيادها والتغلب على نفرتها أعصى وأصعب من تطويع الدابة الحرون، والطفل في مراحل الدراسة أشبه ما يكون بالمنجم الذي اختلط معدنه برغامه ولن يخلص ذلك المعدن النفيس من الأوحال المختلطة به إلا بسعة صدر ودراية واسعة وتوجيه سديد وكفاءة ومقدرة وليس أشبه بالعسف بمواهب الأطفال واستعدادهم الفطري إلا قتل النفس البريئة بطشاً وعدواناً وكل أستاذ يظن أنه يستطيع أن يفرغ المعرفة وينقلها إلى طلبته بسوطه فإنه جلاد أثيم يستحق هو أن يجلد على الجريمة المنكرة التي اقترفها، وكل معرفة يدركها الطالب بطريق العنف والقسوة والخوف والرهبة إنما هي تضحية بأكرم الصفات الإنسانية التي فطر الله الروح عليها وهي الشجاعة الأدبية والرحمة والكرامة الآدمية والاعتداد بالنفس والشعور بالحرية.

ولقد كان للأثر السيء الذي تركه هذا الأستاذ في نفسي ما

Twitter: @abdulllah1994

يسر لي المقارنة بين أسباب النجاح والفشل في هذا العمل الحساس، كما كانت الصورة القائمة المطبوعة له في ذهني وأنا طالب خير موعظة عندما كنت مدرساً ومديراً لإحدى المدارس، وما من أحد يجهل أن المدرس هو المسؤول الأول عن تزويد الأمة والوطن والتاريخ بالنفوس المستنيرة والعقول الناضجة والأخلاق القويمة والمبادىء السليمة وأن المدرسة هي المصنع الذي ينتج البطولة ويزود الحياة بالرجال العاملين وأن المدرسة متى كانت سليمة التكوين والمدرس موفور الاختيار فإن تاريخ الأمة سيكون في مأمن من أن تعصف به تيارات الحياة ويكون تاريخاً حافلاً بالقوة والمجد والكرامة والعكس بالعكس.

* * *

* *

*

Twitter: @abdulllah1994

أنا هكذا
مواهب مختلطة ...

وهذه شخصية أستاذ آخر ـ كان شاباً غض الإهاب قوياً في العلوم التي يدرسها ولكنه كان ذا طابع خاص لا يمكن لمن يخالطه أن يتركه دون أن تتنبه حواسه لهذا الطابع ودون أن يشغل باله به، يتحدث بأسلوب خطابي عنيف حتى في المجاملات، وحتى إذا كان يعبر لك عن عواطفه نحوك، ويصحب حديثه دائماً بحركات عنيفة من يديه ورجليه وكل جسمه. أما أسارير وجهه فإنها تعبر تعبيرات أشد وأقوى عن ذات نفسه يذكرني دائماً بعازف السمفونيات القوية في حركاته وانفعالاته إذا امتزج بألحانه وكانت تصدر من قلبه، وكان معتداً برأيه بحيث لا يترك مجالاً لنقاش معه في أي موضوع من المواضيع، ويبدأ حديثه لك أولاً في سره مع نفسه حتى ينفعل به انفعالاً تاماً. ثم يفاجئك عند بدء الحديث بضحكة مدوية طويلة يلقي خلالها بالكلمات منقطعة كلما ملك فرصة من سورة الضحك، وعليك أن تجمع بعد ذلك هذه الكلمات المتقطعة لتفهم الموضوع فإذا فاتك التأثر بالكلام لمشاركته في ضحكة فإنك لا شك ستضطر إلى الضحك من منظره وأسلوبه كما يفاجئك أحياناً بخصومة عنيفة قبل أن تعرف أسبابها

Twitter: @abdulllah1994

لأنه قد انفعل بتلك الأسباب في نفسه، قبل أن يوضحها لـك وعليك أن تصبر وتحتمل النتيجة التي سبقت المقدمات حتى تعرف أسباب سخطه، وقد تكون أسباباً وهمية لا حقيقة لها ولكنك لن تطمع في إيضاح الموقف في الحال لأنه لن يكون مستعداً مـع انفعاله لفهم الحقيقة كما هي، وتسمعه يردد كلمة معبرة أصدق التعبير عن حقيقته إذ يقول لك ـ أنا كذا ـ ويـريد بـذلك أن ييئسك من العدول به عما هو عليه من عقيدة أو رأي أو حالة نفسية، ولقد كنا نعاني ونحن طلبة من هذه الطبيعة الشيء الكثير لأننا لا نعرف أسباب سخطه إلا بعد أن نشرب الكأس حتى الثمالة وقد نعرفها بعد ذلك وقد لا نعرفها وكثيراً ما تكون أسباباً وهمية لا حقيقة لها أو تافهة لا تستحق كل ما وقع ولكن ما هي الحيلة فإنه كما يقول ـ أنا كذا ـ.

ورغم ذلك فإنه كان يستطيع أن يشرح لنا الفنون التي يقوم بتدريسها شرحاً وافياً سلساً نفهمه ونستسيغه وكثيراً ما كان يحدثنا عن نفسه حتى قرب ما بيننا وبينه وجعلنا نأنس به وكان يسره إذا ظفر بنكتة أو قصة شائقة ولو لم تكن ذات علاقة بالدرس أن ينقلها إلينا ويشجعنا على مشاركته في استظرافها والضحك منها والتعليق عليها وكثيراً ما كانت حركاته وانفعالاته وسبقه بالضحك دون أن يملك نفسه تضاعف من جمال النكتة ووقعها وتخلق لها جواً مرحاً يشيع الأنس، ويضاعف إقبالنا على الدرس بروح مرحة وأعصاب منتبهة وأذهان نشيطة، وكان أديباً هاوياً للأدب ولست

Twitter: @abdulllah1994

أنسى له فضل توجيهي لهذا الفن منذ أيام الدراسة،وقد كنت أطرب لأسلوبه في قراءة الشعر والتغني به كما كان بفطرته الخطابية يكسب النثر رونقاً عند تلاوته للآثار الأدبية التي يقدمها ويشرحها لنا ويدفعنا إلى تقليدها ,وقد كان هو نفسه قدوة طيبة لنا في الكتابة والإنشاء وكان أسمى ما نطمح إليه أن نقلد آثاره ونقتفي أثره.

وكان من شدة اعتداده بنفسه يغار غيرة قوية على تلاميذه ويحرص كل الحرص على نجاحهم في دروسه ويكلف نفسه في سبيل ذلك مشقة المذاكرة لهم قبل الاختبار ويبث روح الشجاعة والثقة في نفوسهم وهو في كل ذلك لا يعنيه إلا نفسه، وهذا من فرط اعتداده بها حتى لكانت نفسه هي الشغل الشاغل له عن كل شيء،وليس يقيم وزناً لأي اعتبار مهما أجمع الناس عليه ما لم يتفق مع مزاجه الخاص وذوقه، وكل شيء لا يخضع لذلك ولا يتفق معه ليس له أي اعتبار في نظره، ولقد استطاع بهذه الصفات الاستقلالية التي انفرد بها في أسرة المدرسة أن يحقق له مكانة وسلطاناً حتى أصبح من لا يرى رأيه يجامله فيه. أما الأغلبية من الأساتذة فقد كان أسلوبه يغريهم ويؤثر عليهم ويبالغون في استحسانه ورضاه وتقليده أحياناً ولكن صدى ذلك الأسلوب في نفوس الطلبة بعكس ذلك لما ينطوي عليه من مفاجآت قاسية، وخنق لآرائهم وتعال وغطرسة في معاملتهم، ولما فيه أيضاً من قسوة وغلظة، **ولقد كان في وسع ذلك الشاب أن يكون أستاذاً ناجحاً لو خلت طباعه من ذلك الغرور.**

Twitter: @abdulllah1994

محفظة علم ..
وترجمان علماء ..

أما الأستاذ الذي استطاع أن يستولي على مداركي ويوجهها في قياده فقد كان خير ترجمان لعلم العلماء وفقه الفقهاء يجمع بين ارائهم جمعاً كاملاً ويفسرها تفسيراً واضحاً ويحيطها بهالة من الجلال والتوقير اللائق بنور العلم وبركة العلماء وهو بذلك يتسلط على مشاعرنا فيوجهها توجيهاً هيناً طيعاً لندرك أن هذا هو العلم الذي يستحق الدرس والفهم والانصراف إليه لا غيره من الفنون التافهة التي لا غناء فيها وكان كلما أوغل بنا في خلافات الفقهاء وأدلتهم ووقف بنا وقفة طويلة أمام جملة من الجمل المعقدة في مجموعة الكتب التي يضيفها إلى الكتاب المقرر دراسته نحس في أعماق نفوسنا بفرحة النصر على تلك الألغاز والنجاح في كشف غموضها. ولقد كان في أخلاق الأستاذ ما يعينه على السيطرة على أفكارنا فإنه لم يكن يتعرض لطفولتنا بالتحقير والغض بل بعكس ذلك فإنه يشعرنا بأننا في طريقنا لأن نكون علماء وورثة للأنبياء في علومهم وأن هذه العلوم التي نتلقاها هي النور الذي سنحمل

Twitter: @abdulllah1994

مصابيحه بين الناس فيهتدون بهديه، وأنه هو الوسيلة لكسب سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. إن هذا الأستاذ قد بلغ من سعة اطلاعه بعلم الفقه وأصوله أن أحاط بجميع النصوص التي سجلها الفقهاء في أي موضوع من مواضيعه فكان إذا شرح أو ناقش يشرح بوضوح وتفيض المعاني منه عن نبع دافق غزير وإذا ناقش لطم أقوال المؤلفين بعضها ببعض في أسلوب تحس فيه بمدى القوة والشراسة في الصراع الفكري بين المفكرين حتى تحس أنها قوة وشراسة تفوق قوى وشراسة المصارعين بعضلاتهم وأكفهم وكما نرى المشاهدين في حلبة الصراع يغلي حماسهم لكل حركة من حركات المصارعين نحس بعقولنا الصغيرة تتابع صراع الأفكار والآراء التي يبسطها لنا الأستاذ في نقاشه بنفس الغليان والحماس الذي يكتسح النظارة في حلبة الصراع بالعضلات القوية والأيدي الفتاكة. وكانت الرواسب المتوفرة في عقلي ونفسي تجعلني في مقدمة الطلبة تحمساً وقدرة فأنا عالم صغير يتصل نسبه إلى سلسلة من العلماء الأعلام الذين كان لهم أدوار البطولة في هذه الميادين ميادين صراع الآراء والأفكار والأقوال المتعددة في المسألة الواحدة ومن بين تلك الرواسب أن أحد أجدادي ويدعى السيد علي الضرير السيواسي قد كان أحد العلماء المبرزين في الجامع الأزهر وترجم له الجبرتي في تاريخه وقد كان يرى في نفسه القدرة على الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة وكان من استنباطاته التي ذكرها الجبرتي أنه يحرم القهوة لأنها تغتال العقول بنوع من التخدير

Twitter: @abdulllah1994

لمن يألفها ويدمن عليها إذا ما تركها وقد وصف الله خمر الجنة بأنها لا غول فيها ولا تأثيم فجعل وصف الغول ملازماً للتنفير من كل مشروب تتوفر فيه هذه الصفة.

وقد كانت هذه الرواسب تزيدني تعلقاً بأستاذي وتزيده حرصاً على توجيهي وكلما لمست منه ذلك أحسست بغرور ساذج لتقديره واحترامه لتفوقي العلمي على زملائي وتقدمي بينهم حتى لقد دفع بي هذا الغرور إلى حد أن اصطفيت لي طلبة يحيطون بي في شكل حلقة صغيرة في زاوية من المسجد الحرام لألقنهم العلم على طريقة أستاذي الذي انعكست صورته بقوة في نفسي ولم أكن قد تجاوزت في ذلك التاسعة عشرة من عمري، ولقد كنت أستمد الشجاعة لهذا الموقف من أرواح أجدادي التي انسكبت قواها الروحية في عقلي المتفتح وروحي الناشئة وجسمي الصغير.

وفي هذه الفترة سنح لي الحظ باختياري فرداً من أفراد البعثة العلمية التي ابتعثها مؤسس مدارس الفلاح إلى الهند (بمباي) لتدرس تحت إشرافه وتوجيهه في مدرسة خاصة أسسها هناك. وعند هذا الحد بدأت مرحلة جديدة في حياتي التي وصفتها في كتابي - هـــــذا.

ولم تكن آثار فترة الدراسة مقتصرة على الأساتذة وحدهم بل كان هناك من هو أقوى أثراً من جميع الأساتذة.

Twitter: @abdulllah1994

هو مدير المدرسة ـ الشيخ عبد الله حمدوه السناري.

ومؤسسها ـ الحاج محمد علي زينل.

وشخص آخر كان يشيع في نفسي مجموعة من الإحساسات الطيبة ويفتح عيني على آفاق من الإنسانية نادرة المثال وهو الشيخ محمد صالح جمجوم.

Twitter: @abdulllah1994

فقيد الجميع

أما الشيخ عبد الله حمدوه ـ فإن صورته في ذهني في ذلك السن الذي أحكي انطباعاته تمثل الأشباح المروعة المخيفة فلقد كان طويلاً أسمر اللون حاد القسمات والملامح يرى دائمًا في حالة صمت موحش كصمت الأبدية كما يرى دائمًا متحفزاً للجزاء. وكان يعلن حبه لعائلتي ويتجلى ذلك الحب في إحاطتي دائمًا بمراقبته وتتبع حركاتي ومحاسبتي على ما أظهر وإضمر وما آتي وما أذر فكنت أشعر بروحه المرعبة المخيفة تطاردني وأنا في الشارع والبيت وإذا كنت وحدي أو بين أهلي أو زملائي. ولم يكن يفرغ في ملاحقته لي عند حدود الواجبات المدرسية بل يتعدى ذلك إلى السلوك وكثيراً ما كان يفاجئني بحملات عنيفة على أخطاء يتهمني بارتكابها في المنزل ورغم أنني لم آت شيئاً منها يجعلني بحملته الصارخة الجادة أتصور أنني أتيتها فأتوسل واستغفر وأعد وعداً قاطعاً بأن لا أعود لمثلها وكنت أبالغ في البر بوعدي ومع ذلك لم أسلم من تكرار التهمة ولقد كان أسلوبه هذا القاسي في المدرسة إلى جانب الأسلوب التربوي الذي

Twitter: @abdulllah1994

كنت أجده في المنزل يدفعاني إلى اتجاه واحد وهو يقظة الحس الدائم والخوف من ارتكاب أي خطأ بل إلى تخيل الخطأ في كل تصرف يصدر مني رغم إسرافي في تنقية تصرفاتي من الخطأ ولقد كان هذا الضغط الشديد في الخوف من الخطأ له اسوأ الأثر في حياتي العملية لأنه جعلني إذا أردت الإقدام على أمر ما تبدو لي جميع جوانبه التي تشجع على إنفاذه وعكسها التي تدفع إلى الإحجام عن إنفاذه ولا يمكن أن أتصور أمراً إلا وينصرف ذهني للبحث عن جوانب النقص فيه وقد سبب لي هذا الإحساس متاعب لا يعرفها إلا من جرب المواقف التي تنبني عليها حياته ثم تلتقي أفكاره للبت فيها عند وجوه متناقضة ولا يصل إلى حد البت في أمر من الأمور إلا بروح المجازفة أو الصدفة أو أي وسيلة تمكنه من ترجيح جانب على آخر في تفكيره ورأيه. وحين سافرت في البعثة إلى الهند كنت أشعر بأن الشيخ عبد الله حمدوه سيحاسبني حساباً عسيراً عند عودتي على ما فعلت ولذلك فقد كنت أجتهد وأحضر نفسي لحسابه ولكنه رحمه الله توفي قبل عودتنا من الهند ولست أنكر أنني رغم حزني يومئذ عند سماعي بنبأ وفاته شعرت ببعض الراحة من عناء المطاردة والمحاسبة وكما طبع في نفسي له هذه الصورة المرعبة المخيفة فقد ترك صورة أخرى ـ صورة تمثل التقوى والصلاح والبر بالضعفاء وحب الخير والسعي في مصالح الآخرين فقد كان في غير مواعيد المدرسة ملازماً للمسجد الحرام في صمته الأبدي يبدو على سحنته الطاهرة ذلك الإشعاع المبهج الذي يتجلى من الأرواح البريئة

الطاهرة المؤمنة فينعكس بريفه المحبب الجذاب على الوجوه والعيون. وكان معروفاً بأنه ملجأ لأصحاب الحوائج يقضيها لهم ويصلح بين المتخاصمين ويسعى لإصلاح شؤون الناس القريب منهم والبعيد ومن عرف ومن لم يعرف، وكان يحمل الأذى الذي يوجهه إليه خصومه بروح سمحة وحلم وصفح جميل. وكان من أشد الناس تقديراً للمسؤولية وحرصاً على القيام بالواجبات التي يلزمه ضميره القيام بها. ولقد كان ضميره ضميراً إنسانياً يحس بأنه ملزم بالاضطلاع بجميع المسؤوليات الاجتماعية والأدبية التي لا تجد من يضطلع بها أو من يعين عليها ولذا فلقد كان ذكره الطيب على كل لسان وشكران معروفه من كل إنسان، ولقد سمعت عن يوم وفاته كأن جنازته خرجت من معظم بيوت مكة، وعم الحزن عليه وتبادل الناس العزاء فيه كأنه فقيدهم جميعاً وكذلك فقد ترك في نفسي انطباعات الخوف والحب والرجاء والقدوة الصالحة والشخصية المثلى وترك بين جميع عارفيه قلوباً تحيي أثره وتمجد ذكره في الخالدين ..

* * *

* *

*

Twitter: @abdulllah1994

زَعَامَـةُ بَنَّـاءَة
عَبقريَّـةٌ .. وَرسَـالَة

والحاج محمد علي زينل رضا. هذه الشخصية التي كنت وما زلت أنظر فلا أجد حداً تنتهي عنده إلا إذا كان للزعامات البناءة حدود وللعبقريات رسوم. ولرسالات المصلحين العاملين المضحين غاية تنتهي إليها.

لقد كانت شخصيته تبـدو لنا حسب تدرجنـا في القرب منه وتطورنـا في مدارج الحياة وكما يرى الرائي الهلال ثم تستقيم له الرؤ يا كلما تقدم به الزمن فيبصر منه نمواً في تكامله وتبهره أضواؤ ه كلما زاد نموه كذلك كان إحساسنا بشخصية هذا الزعيم وانطباعاته في نفوسنـا.

حين وعينا الحياة وعندما كنا طلبة في المدارس كنا نسمع أن مدارس الفلاح هي أرقى المدارس الموجودة في الحجاز بل لم يكن هناك مدارس إلا مدرسة تدعى المدرسة الراقية، تعتبر مدرسة حكومية على عهد الملك الحسين ومعهد علمي يدعى ـ المدرسة

الصولتية - وهذه تحمل طابعاً هندياً لأنها كانت مؤسسة هندية بحكم أسرتها والإشراف عليها وطريقة توجيهها وكانت المدارس الوحيدة التي تتعلق بها آمال الناس جميعاً في الحجاز لإنقاذ أبنائهم من الجهل وتهيئتهم لحياة كريمة مثقفة هي مدارس الفلاح في مكة وجدة وكان أساتذتها من خيرة الأساتذة علمًا وكفاية ومقدرة وكنا نسمع بأن مؤسس هذه المدارس شخص يسمى الحاج محمد علي زينل رضا قامت في رأسه هذه الدعوة فسعى إلى تحقيقها وسانده في ذلك أشخاص من الذين آمنوا كإيمانه بها في مقدمتهم الشيخ عبد الرؤوف جمجوم وآخرون.

فكانت هذه الشخصية مقترنة في أذهاننا كطلبة، بلون من ألوان عمل البر والإحسان والسعي في الخير، وفي عام ١٣٤٨ هجرية برزت هذه الشخصية لأعيننا فرأينا إنساناً مشرق الوجه تطل روحه القوية الممتلئة إيماناً وعزماً وعقيدة راسخة من عينيه السحريتين ويحس محدثه بمغناطيسية تجذبه إليه وبأن قوة خفية تخضعه له وبلغني أنني وأخي سامي من ضمن أفراد البعثة التي اختارها لتقيم في رعايته بداره في بمباي حيث خصص لها برنامجاً دراسياً يشرف هو بنفسه على سلامته وتنفيذه وتم كل شيء في هذا السبيل ووجدتني مع زملائي في دار الحاج محمد علي زينل في بمباي وقد وضع لنا نظاماً دقيقاً يشمل المأكل والمشرب والملبس والفسح والدراسة والرياضة وأحضر الأساتذة الذين عني باختيارهم وقد كان يغدق بسخاء على تعليمنا ويمنح أولياء أمور الطلبة رواتب شهرية لم

Twitter: @abdulllah1994

يكن يحلم بها كبار الموظفين يومئذ، وشعرت بإكبار عظيم لهذا الرجل وحيرة بالغة من أمره ولم تكن طاقتي الذهنية تتعدى حدود إدراك المسؤولية الفردية ولم أكن أتصور تلك اللانهائية التي تنطبع بها شخصيات العظماء الذين يفنون في سبيل رفع مستوى الجماعة، وتلك الدعوات والرسالات التي يضحي الأبطال بأموالهم وأنفسهم وراحتهم وصحتهم في سبيلها. حتى جلست أول مجلس بحضرة هذا الرجل العظيم وأخذ يحدثنا عن رسالته في سهولة وأدب وصوت خفيض ووضوح معنى كالشمس المشرقة ويستمر في الأداء حتى كأنما كنا نسقى من عين سلسبيل، لقد كانت ألفاظه برداً وسلاماً تلامس القلب حتى تغمره نشوة مثل نشوة الزهرة باكرها الطل فتفتحت له أكمامها وكأن أول عهدي بالجلوس إلى شخصية في مثل قوته ورقته ولطفه، وإلى سماع مثل حديثه ومبادئه وكانت رسالته تتلخص في:

١ ـ أن الإسلام وتعاليمه انتشر من مكة والمدينة، البلاد المقدسة التي ولد فيها رسول الإسلام محمد ﷺ وعاش فيها.

٢ ـ أن مكة قد سادها الجهل وقل بين أهلها العلماء الذين يحفظون هذه الأمانة بحكم الوضع السيء الذي انتهى إليه أمرها في عهد الأتراك.

٣ ـ أن العالم الإسلامي مهدد بالمدنية الغربية التي تحارب التعاليم الإسلامية.

Twitter: @abdulllah1994

٤ ـ وأنه يجب أن تقوم مدارس الفلاح بحفظ هذه الأمانة أمانة نشر التعاليم الإسلامية والمحافظة عليها. وأن مسؤولية هذه البعثة أن تتذرع مع العمق في هذه التعاليم بمعرفة الجوانب الخطرة في المدنية الأوروبية والحرب التي شنها المستشرقون من أعداء الدين الإسلامي ليتمكنوا من حماية البلاد المقدسة من انتشار هذه الفتنة الغربية حتى لا تنفث سمومها في البلد الذي أشرق منه نور الإسلام على العالم.

ولكن هذه الخلاصة لا تأتي مجردة هكذا في حديث ذلك البطل الخالد بل انها تزحف في مقدمات من التاريخ الإسلامي وأطواره والفلسفات الإسلامية والأدوار التي جرت عليها الحكومة الإسلامية في المدينة والشام والعراق والأندلس والحروب الصليبية وصلاح الدين الأيوبي بطل الانتصارات الإسلامية والدولة العثمانية إلى العهد الحاضر ويتخلل ذلك الحديث عن ابن رشد وابن تيمية والغزالي ومحمد عبده والجامع الأزهر ورسالته وعلمائه والوقوف عند كل مرحلة من هذه المراحل فترة من الوقت لاستجلاء الرأي بخصوصها وما تركته من أثر في كيان المجتمع والدولة الإسلامية والحديث عن المستشرقين والبعثات التبشيرية إلى غير ذلك مما لم يكن لنا عهد بمثله، ولم نسمع عنه من قبل. فلقد درسنا التاريخ على أنه مادة تؤدى في الامتحان وحوادث مرت في بلد أو بلدان بعينها وفي فترة أو فترات من الزمن وانتهت بانتهاء أجيالها وقد نفضنا منها ذاكرتنا كما ينفض الإنسان يده من آثار شيء لمسه بها

Twitter: @abdulllah1994

وانتهينا من دراستها بالدرجات التي أحرزناها في أوراق الامتحان.

أما أن نجد هذا التاريخ حقيقة تواجهنا بهذا القدر من القوة والحيوية والتفاعل حتى تطبق حلقاتها الثقيلة على أعناقنا بمثل هذه المسؤولية العنيفة كما يصورها لنا هذا الرجل العظيم فذلك ما لم يخطر لنا على بال ولم يحدثنا به أحد من أساتذتنا ولا سمعنا به في المدرسة ولا المنزل ولا المجتمع، ويستمر الحاج محمد علي زينل في شتى المناسبات يوحي إلينا برسالته هذه العظيمة إيحاء فنتلقاها في شبه غيبوبة وذهول ولا نعي ما يقول إلا بعد أن يسري عنا، وفي خلال أربع سنوات قضيناها في صحبة هذا البطل العظيم أدركنا كنه الرسالة التي ضحى بمال لا يحصر وجهد لا يوصف وعناد دونه عناد المجاهدين في سبيل نشرها وتحقيق ما أمكن تحقيقه منها.

ولكن هل كان بين أفراد البعثة من صمد في نشر هذه الرسالة وتحقيقها هل كان بيننا من استطاع أن يضيف لبنة إلى البناء الذي شيده أو شمعة إلى النور الذي أشعله؟

إنني يجب أن أعترف بكل أسف أن حظنا من التأثر بهذه الشخصية العظيمة هو أننا سمعنا نداءها وطربنا له وعجزنا عن المشاركة في تحمل أي قسط من هذه المسؤولية ولكن هذه الدعوة قد فتحت وعينا على آفاق من الفكر الإنساني.

لقد فهمنا لأول مرة أن جميع العلوم التي درسناها ليست لنحكي مواضيعها كما حكيت لنا ولا لننقلها إلى الجيل الذي يخلفنا

Twitter: @abdulllah1994

من الطلبة إذا ما احتللنا مقاعد التدريس كما كان جل أملنا، وليست هي حلقات ملقاة في فضاء الفكر لا تجمع بين بعضها ـ بين كل علم وآخر ـ أي جامعة ولا تشير إلى أي هدف في محيط الحياة العامة. فلقد كنا نتصور الأستاذ كأي صاحب حرفة يتقنها ليعيش بالتكسب بها ولكن التكسب بالعلم أفضل وأرقى وسيلة لأنها تجمع بين الراحة والكسل وقضاء الوقت في التحدث إلى الآخرين سواء أكان في المسائل العلمية أو غيرها من الأحاديث العامة وعلى العموم فهي صناعة كلام لا تحتاج إلى جهد بدني وليس بها أية مسؤولية قاسية وهي وسيلة لكسب قلوب الناس وصداقاتهم وعطفهم أيضاً.

أليس من آداب المجالس تقديم العلماء وتصدرهم والتنافس على خدمتهم، أليس كل طالب يعتبر خادماً لأستاذه مدى الحياة كما يقول المثل الحكيم ـ من علمني حرفاً صرت له عبداً ـ وإذا احتاج العالم إلى شيء من المال أو مسته ضائقة فمن الذي يقبض عنه يده، إنه سيكون آثماً يحمل طابع الشح والرذيلة في الدنيا والآخرة. وبعد هذا أفلا تكون صناعة العلم صناعة تدر أخلاف الرزق والكرامة والتوقير والتبجيل، وكذلك كنا نتصور الغاية التي نسعى إليها ونحرص على إدراك وسيلتها التي هي العلوم بروح الجد والاجتهاد. ولكن مبادىء الحاج محمد علي زينل قد أطارت هذه الأوهام من رؤوسنا ووضعتنا أمام الحقيقة المرة القاسية وجهاً لوجه فإن العلوم الدينية نظام للحياة والمجتمعات والتاريخ أمانة تنتقل من الأجداد إلى الأحفاد وجميع العلوم الأخرى مقومات لبناء المجتمع

Twitter: @abdulllah1994

الصالح الراقي المتمدين وهذه العلوم في مجموعها حلقات يجب أن تتكامل لتصنع وطناً قوياً وأمة متماسكة توقف تيار العدوان الموجه إليها. إذن فحي على السهر والكد والتعب والمراقبة الدائمة وحي على الكفاح الدائم المستمر، وكذلك حياة الحاج محمد علي نفسه سهر وكد ومراقبة وكفاح ودفاع عن العروبة والإسلام وبناء مستمر في سبيل هذه الغاية.

ولقد وعينا هذه الرسالة العظيمة من ذلك البطل العظيم ودارت بها رؤوسنا ولكن مع الأسف فإن ضعف أرواحنا وملابسات حياتنا وتيار الحياة الجارف الذي صادفنا في المجتمع الذي نعيش فيه ردنا إلى العيش في حدود فرديتنا المحدودة الضيقة وإلى مبدأ السلام القائل أنا رب إبلي وللبيت رب يحميه.

Twitter: @abdulllah1994

نَسَيْج وَحْـدَه

شعلة انطفأت . . .

فتركت حولها ظلالاً . . .

أما الشيخ محمد صالح جمجوم. فإنه نسيج وحده لم أعرف له شبيهاً في حياتي. لقد بدأ تعرفي به واتصالي معه عن طـريق إخلاصه وإيمانه العميق بمدارس الفلاح ولكني أحسست أني أخالط روحاً كريمة طيبة تتحمل مسؤولية الحياة بصدر رحب وتعرف ما يجب أن تفعله لمواجهة هذه المسؤولية . لقد كان مؤمناً إيماناً قوياً كاملاً برسالة العلم رسالة مدارس الفلاح رسالة محاربة الجهل وخلق الصف الكامل وكان يمثل هذه الرسالة دائمًا بالشعلة وتشعر في حديثه دائماً بروح الإشفاق على هذه الشعلة أن تنطفىء وكان إشفاقه هذا لا يظهر فقط في طريقة تعبيره ولا في مجرد حديثه ولكنـه تعبير جـارف قوي تشتـرك فيه جميـع عضلات جسمه ـ وقد أوتي بسطة فيه ـ اشتراكاً عصبياً عنيفاً فترى نظراته معبرة أكمل تعبير وحواجبه وملامح وجهه حتى لون سحنته فإنه إذا تحدث في هذا الصدد تشعر بأن سحنته أخذت تحتقن ويكاد

Twitter: @abdulllah1994

الدم ينفر من مسامها وتبدأ يده تحمل عمامته من رأسه وتطوح بها مع حركاتها يمنة ويسرة وإلى أعلى وأسفل، ولا يلبث أن يعيدها إلى رأسه ليختطفها مرة أخرى وكأنما لهذه العمامة المباركة دور خاص في الإعراب عن ذات نفسه وليس يعوقه في سبيل القيام بأي شأن مهما كان تافهاً من شؤون مدارس الفلاح أي عاتق من مرض أو تجارة أو مصالح خاصة بنفسه أو بأهله أو بالبيت التجاري الكبير الذي كانت مسؤولياته منوطة به. وويل لمن تعرض لأي شأن من شؤون مدارس الفلاح بسوء، فإنه لن يلبث حتى يجد نفسه في دوامة يلفه بها ذلك الرجل المخلص لهذه الرسالة ولذلك فقد كان رحمه الله حصناً حصيناً لهذه المؤسسة وسنداً يعجز الواصف عن وصفه وكان لا يبخل بماله أياً كان في هذا السبيل ويستعمل جاهه استعمالاً قوياً عنيفاً لإرغام أصحاب الأموال على المساهمة في دعم مدارس الفلاح بأموالهم ولم يكن أحد يستطيع أن يشذ على إرادته في هذا السبيل لأن إيمانه بهذه الرسالة وإخلاصه في القيام بها إلى جانب مركزه الاجتماعي وشخصيته القوية جعل منه قوة تخترق السدود وتذلل الصعاب وتنفذ إلى غايتها بصورة مباشرة.

ولم يكن الشيخ محمد صالح جمجوم نصيراً للدعوة العلمية أو الشعلة أو النور كما كان يعبر عنها فحسب بل كان رجلاً متصدياً لتحمل مسؤولية الحياة وعارفاً بما يجب لأداء هذه المسؤولية إنه يعرف أنه كبير عائلة بارك الله في عدد أفرادها حتى كانت تمثل أكثر

Twitter: @abdulllah1994

العائلات الكبيرة عدا وهو يدير تجارة هذا البيت الكبير الوفير الذي تتشعب أواصر قرابته ورحمه وصلاته وصحبته في جميع أطراف البلد ولذلك فقد كان كل فرد من أقارب هذه العائلة أو ذوي رحمها أو المتصلين بهم بأي سبب أو نسب يجد في الشيخ محمد صالح جمجوم ملجأ لقضاء حوائجه وحل مشاكله والسعي في أموره وتقديم العون له، ولقد كنت أجلس مع هذا الرجل أحياناً فأحس بالصداع والدوار ينتابني لكثرة ما يتحدث هذا الرجل ووفرة من يتحدث إليهم وسرعة حركاته العنيفة - حركات جميع أعضاء جسمه التي تشترك في التعبير عن ذات نفسه ويحتد ويرفع صوته ثم يخفضه فجأة ويقبل ويدبر ويجذب محدثه بتلابيبه ثم يفرج عنه وقد يدفعه أو يلكمه في صدره أو يربت على ظهره وقد يقطع حديث مجموعة من الأشخاص محيطين به لأنه خطر له أمر من أمور مدارس الفلاح أو من أمور أحد من الناس فيتركهم فجأة وبدون مقدمات ليلبي نداء ضميره المتيقظ وقلبه الكبير ويمعن بعض أولئك المتجمهرين حوله فيتابعون خطاه، وقد يكون هذا في الشارع العام ويبقى الحديث متصلاً بينه وبينهم على بعد أمتار حديثاً طائراً يشغل بال المارة ويصطدم بأسماعهم ويلفت أنظارهم. وليس ذلك وحده فقد كان أباً لجميع الغرباء والفقراء فلا يفد إلى جده وافد غريب فقير إلا ويكون قد عول على أن يلتقي بالشيخ محمد صالح جمجوم أول ما يطأ قدمه الأرض ليقضي له جميع حوائجه من مسكن ومأكل وسفر ومساعدات مالية وما أكثر الغرباء الفقراء من الحجاج الـذين

Twitter: @abdulllah1994

يعودون إلى بلدهم ليدعو من خلفهم إلى هذه المائدة الطيبة المباركة ولا يمكن لمتصور أن يتصور ما وراء ذلك من جمع حاشد يحتل مجموعة بيوت آله والشوارع المحيطة بها والمساجد القريبة منها، وتجده وآله وكل من يلوذ به مسخرين لخدمة هذا الحشد الحاشد من الوافدين ينجزون أعمالهم في الدوائر الحكومية ويرتبون طعامهم ونزلهم وإقامتهم وسفرهم ومن أعجب هذه الحوائج أن بعضهم يتمنى عليه أن ينكحه زوجة فلا يبخل بتزويجه. وليس نصيب الفقراء من أهل البلد والمجاورين فيها بأقل من نصيب الحجاج القادمين.

وإذا قلت عنه أنه نسيج وحده لم أعرف له شبيهاً في حياتي فإنني أعني ذلك بحق وصدق وإنني أحس بأن الفراغ الذي تركه رحمه الله بوفاته فراغاً عميقاً سحيقاً وكما كان يردد هو في حديثه عن التعليم ومدارس الفلاح بالشعلة التي يخشى عليها أن تنطفىء فقد كان هو نفسه شعلة انطفأت فتركت حولها ظلاماً يحس به كل من كان يدور في فلكه ويعيش في كنفه ويعتمد على عونه.

Twitter: @abdulllah1994

عَوَدَة إلى المَدَرسَة

تيــه . . .

ومبادىء لا يمكن تحقيقها

هذه الشخصيات هي ذات الطابع المكين في نفسي عن المنزل والحياة الدراسية ثم خرجت إلى الحياة العامة ولم أعرف الطريق إليها من الباب الكبير كما يقولون . الباب الذي يدل على نفسه لكل قادم أنه هو المكان الذي أعد للدخول ولذلك فسماؤه مشرقة ودهاليزه واسعة وأرضه ممهدة والعبور منه سهل ميسور. لا بل لقد وجدت الطريق تيهاً لا توجد له معالم وملتوياً لا تدل بداية فيه إلى غاية فالدراسة كانت على أسلوب يختلف كل الاختلاف عن واقع الحياة، وقد زلزلت مبادىء الحاج محمد علي زينل جميع الأوهام والأحلام السعيدة التي غرستها المدرسة والمنزل في نفسي وعدت من بمباي بعد أن أعطيت الحاج محمد علي زينل عهداً على العمل في الحقل الذي يعمل فيه والذي أراد أن يحضرنا للعمل فيه ويحملنا أمانته فكان أول عمل قمت به هو التدريس في مدرسة الفلاح التي تخرجت فيها وكنت أتمنى أن أعود إليها مدرساً ولقد كنت أتمنى أن أعود

Twitter: @abdulllah1994

مدرساً محترفاً لا مدرساً مبدعاً يواجه مسؤولية الحياة الحقيقية في المدرسة ليقضي على الأوهام ويحارب الفساد ويناصر مبادىء الحق والفضيلة والقوة ويدعو إلى التضحية ويهيء الجيل لهذه الرسالة، ولكن مبادىء الحاج محمد علي زينل انحرفت بنا من طرف الطريق من الرصيف الضيق الذي تتجمع عليه القوى المسترخية التي تنشد السلامة والعافية ـ إذا صح التعبير ـ إلى اللجة حيث تتصارع القوى قوى الأهداف والمبادىء والمسؤوليات الجسام، وحين حاولت ذلك وجدت أنني أنا وجميع ما أوحي به إلى الحاج محمد علي زينل وجميع الانطباعات التي قامت في نفسي أثناء إقامتي في بمباي انطباعات الحياة الكادحة الجادة في سبيل الوطنية وتكوين المجتمع الصالح تلك الانطباعات التي كانت صدى لحركة الزعيم غاندي التي عاصرناها إبان إقامتنا في بمباي وكنا نرى العزيمة القاسية المرة في مقاومة الاستعمار الإنكليزي والبضائع الأجنبية والدعوة إلى جمع شمل المواطنين وتوحيد صفوفهم وتربيتهم على التقشف والاكتفاء الذاتي بما تنتجه أرضهم وتصنعه مصانعهم،وفي سبيل هذه الغاية الوطنية النبيلة الكبرى تراق الدماء وتزهق الأرواح وتمتلىء السجون بالزعماء والقادة والوطنيين ـ تلك الانطباعات التي تفاعلت مع مبادىء الحاج محمد علي زينل.

لقد أحسست أنني وتعاليم الحاج محمد علي زينل وهذه الانطباعات في نظر أسرة المدرسة والمحيطين بها وبي وهم من الأوهام وخرافة من الخرافات فليس هذا الذي يدعو إليه الحاج محمد علي زينل إلا

Twitter: @abdulllah1994

أوهام، وكل خروج على الطريقة التقليدية في الدراسة مروق على الدين وترفع ومكابرة لبركة العلم ونوره التي لا تجتمع وتتوفر إلا إذا استمرت الدراسة في فهم ما سجله العلماء الأجلاء في كتبهم وانقطعت الجهود عند مناقشته وفهمه ونقله بأمانة أما أن يكون لتلك الحقائق العالية أثر في بناء المجتمع وتنسيق الحياة واختيار المثل الصالح والمبادىء الكريمة والعمل على تحقيقها فذلك أمر بين العبد وربه أو الرب وعبده إن هداه للخير ودفعه له فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإن أراد العبد أن يفعل شيئاً من ذلك فإنه سيحصل الجزاء عليه وفاقاً يوم الحساب وعند هذا الحد الذي لا غضاضة فيه ولا شك يعيش كل فرد لنفسه ولما قدمت يداه لا يشعر بأن المجتمع يحمله مسؤولية ما وأن حياته كفرد من الأفراد التي تربط بينهم أواصر النفع العام والضر العام والخير العام والشر العام والمصالح المشتركة لا وجود لها بل هو يحيا لنفسه ولأولاده وأهله وإذا مت ظمآناً فلا نزل القطـر. .

لقد صدمتني هذه الإحساسات. ومن الغريب أن أشعر نحوها بنفور وقد نشأت عليها وكنت ممعناً في الرضاء والقبول لهذا الأسلوب من التربية والسلوك ولكني رغم ذلك أحسست بنداء الأعماق يزلزل كياني. نداء الفرد الذي ورث شعور الجماعة. نداء التاريخ الذي تضج به آثار الدعوى الإسلامية، والفتح الإسلامي المحيط بي، نداء تلك الشعلة التي أوقدها الحاج محمد علي زينل في قلوبنا وعلق أمانتها في أعناقنا ولقد أخذت أحس

Twitter: @abdulllah1994

الشد والجذب بين هذه الدعوة والوضع المحيط بي الذي يتمثل في أسرة المدرسة بكاملها ولم أكن من الشجاعة بحيث أصمد للمعركة فانهزمت وقبعت في داري لأدرس وأتأمل وأكتب مقالات في جريدة صوت الحجاز وقد أتيت هذا تبريراً للهزيمة ولأشعر نفسي بأنني لم أهزم وإنما حولت جهادي إلى ميدان أنفع وأصلح.

Twitter: @abdulllah1994

استغلال الكفاءات لدق الطبول

وفي هذه الفترة حمل الجشع والاستغلال إليّ شخصاً أحس بما لدي من كبت في الرغبات ورغبة في الظهور. وكان يستغل كفاءات الأدباء ليسند بهم مركزه وعمله ويتخذ من أشخاصهم دمى يحركها على مسرحه فنصب لي شراكه وطلب مني أن أعمل معه وقد كنت بأشد الحاجة إلى عمل أعيش منه وحين علمت بحقيقة صاحبي فضلت أن أتخذ من عمله وسيلة لإشباع نهمي في هذا الميدان وحميت نفسي من استغلاله بأن جعلت عملي معه تعاوناً من غير مقابل ولكني أدركت أخيراً أنه رغم تعففي عن الأجر الذي أتقاضاه على عملي يريد أن يسخرني لدق الطبول والسير في المواكب والتهريج لإشباع رغبة الآخرين فنفذت منه بجلدي وقد فتحت هذه التجربة عيني على درس مهما كان تافهاً وبسيطاً لكنه في تلك السن المبكرة كان وضعه أليمًا مريراً.

Twitter: @abdulllah1994

شَخصيَّة كبيرَة .. وآرَاء هَدّامَة

وفي هذه المرحلة دفعت بي الأسباب إلى الاحتكاك بشخصية ذات صدى واسع وكان احتكاكاً في الرأي وكنت أحس بأن هذه الشخصية لها قوة التأثير بنظراتها العميقة الفاحصة وحركاتها المعبرة وأسلوبها المبتكر القوي في الحديث، ولقد كان مركزه من المكانة بحيث يضفي على جميع هذه المؤثرات ديباجة من الوقار والتحكم. ولكنه يحمل في نفسه آراء هدامة ماكرة وحين تقابلت معه لأول مرة جرى الحديث بيننا على أسلوب متناقض أتم التناقض فقد كنت أتحدث بمنتهى الصراحة والبساطة والتعبير بكل ما يجول في خاطري وقد شجعني على التحدث بجميع ما اختزنته في صدري ما لمسته من أنني أتحدث إلى متحدث بارع فاهم قوي مدرك. بل لعلني كنت في أعماق نفسي أتملقه ليفهم أنني أحمل في صدري شعلة من الوطنية التي يستحق أن يمدها هو بما أوتي من جاه وعلم ومركز وليأخذ بيدي إلى الطريق الذي ضللته حين بدأت محاولتي الأولى في المدرسة والأخرى مع الرجل الذي أراد أن يستغلني لأهدافه أما هو

Twitter: @abdulllah1994

في حديثه فكان يراوغ ويداور ويحرص على استيعاب كل ما في نفسي ثم يعلن عليّ رأيه في اقتضاب لأدرك أنني يجب أن أؤمن بهذا الرأي إيماناً بالغيب لأنه رأي الحياة رأي القوة رأي من يرسم خط السير ليسلكه الآخرون. ولم أكن آنئذ على استعداد لأتخلى عن مركزي لأستجيب لآرائه وأفكاره وقد أعلنت رأيي فيه بصراحة لم يكن يتوقعها بل وسجلت هذا الرأي كتابة في جريدة صوت الحجاز فكان أول عدو كسبته في حياتي ولم أحفل بهذه النتيجة كثيراً ولم يكن لها الأثر الكبير في نفسي فقد تمرست بهذا اللون من المشاكل وأدركت أن تناحر الأفراد على المصالح هو سنة البقاء ولم يكن واحد من صاحبي اللذين ارتطمت بهما إلا ممثلاً أصدق تمثيل لهذه السنة سنة تنازع البقاء ولكني اكتشفت أن بساطتي النفسية وسذاجتي الفكرية، وطريقتي في الإعراب عن ذات نفسي كلها صفات من صفات الجهل بالحياة والأحياء وقد أعقبني ذلك حذراً وتحفظاً فيما يجب أن أفعل، ومن أي الطرق أسلك، إنني أريد أن أعيش فإذا لم أتمكن من أن أعمل على غرار ما أوحى بـه الحاج محمد علي زينل فلا أقل من أن أعمل كما تقضي به الظروف لأوفر لنفسي أسباب الراحة والرخاء والسعادة.

Twitter: @abdulllah1994

وطنية وصراحة .. تحمل للمسؤوليّة مصالحة مع الزمن والأحداث

في هذه الفترة الحالكة من حياتي جمعتني الصدف بشخصية كبيرة نقية طاهرة وكان التجاوب بين هذه الشخصية وبيني تجاوباً سريعاً ملهمًا فقد لمست من أول لقاء أن سفينتي قد وجدت الشاطىء الآمن الصالح لتسكن إليه.

لقد كان رحمه الله وطنياً معروفاً بوطنيته الصريحة العنيدة الثائرة وحين لقيته بادرني باللوم على عكوفي بالدار وعدم النزول إلى ميدان العمل واستشهد قائلًا:

شباب قنع لا خير فيهم
وبورك في الشباب العاملينا

وقد أطلق حديثه هذا رباط مشاعري فشرحت له في اطمئنان وحماس جميع التجارب التي مرت بي والمحاولات الساذجة التي قمت بها والنتائج المريرة التي انتهيت إليها وكان يشجعني على الإفضاء بما في نفسي بإصغائه الحنون وكأن هذا الحديث يهمه بالغ الأهمية

ولذلك فهو يحثني على الإفاضة فيه واستيعابه مهما طال الوقت ويظهر لي المشاركة الصادقة في آمالي وآلامي وقد شعرت بأنه كان يعاملني كابن له يشركه في ذات نفسه وحين يأتي دوره في الحديث يصف لي الطريق الذي سلكته وصف الخبير العارف بخير الحياة وشرها ونعيمها وضرها وكيد الكائدين وما يكتنف مستقبل الشاب المكافح من مخاطر وآلام ويأس ولقد أفدت من حديثه عن تجاربه ونصائحه وأفكاره فائدة ما زلت أذكر له فضلها وفي نهاية المجلس عينني أستاذاً لقسم التخصص في القضاء الشرعي بالمعهد السعودي وكان في قوة نفسه واعتداده برأيه أنه أجرى التعيين في داره وكلفني بمباشرة العمل في اليوم التالي وأصدر تعليماته بالتليفون ولم يضعف أو يتردد أو يخشى ما يكمن وراء هذا التصرف من مشاكل وعقبات، وقبل أن أذهب إلى عملي أحب أن أعود إلى هذه الشخصية الكريمة لأني لها بعض أثرها في نفسي لقد كان يلقاك أول ما يلقاك منه وجه باسم مشرق يكلل قامة فارعة الطول متناسقة الأوصال ويوحي إليك بالثقة التامة بنفسه والعزيمة التي لا تهن ومرح وقور تنفرج عنه شفتاه الرقيقتان المطبوع عليها ابتسامة واعية مستقرة وتحس في حديثه أنه يضع نفسه فوق الزمن وفوق الأحداث ولذلك فهو مسؤول عن كل مواطن من مواطنيه من عرف منهم ومن لم يعرف ويجد اللذة كل اللذة في قولة الحق مهما تخاذل عن الإقدام عليها المتملقون والمتزلفون ويقولها مختصرة واضحة ذات نغم رنان ولذلك فقد كان يتوارى خلفه جميع المتحذلقين والمتظاهرين

Twitter: @abdulllah1994

بمناصرة الحق ليستروا قماءتهم بشموخه والتواءهم بوضوحه ومداورتهم بصراحته. فكأني أحس به يعرفهم معرفة عميقة ويشفق عليهم إشفاقاً مختلطاً بالحسرة والأسى ويسدل على عوراتهم أستار قوته الشخصية وعزيمته المتحفزة حتى إذا جد الجد ووجد أن المجال للعاملين وحدهم في أي شأن من الشؤون الوطنية أو الاجتماعية نفض يده منهم جميعاً وتقدم إلى الأمر بنفسه يقوده رأي صائب وفكرة واضحة وهدف قويم وقد يحدث أن يصحب معه بعض من يتجمعون حوله للتسلية أو الإكرام أو ليلقي إليه بدور من الأدوار التافهة ليرضي غروره بالظهور بمظهر الأبطال المصلحين. وكان رغم شيخوخته فتي القلب مؤمناً بالشباب يتبسط إليهم ويفسح لهم مجلسه ويشاركهم في فطرتهم المرحة المتفتحة على الحياة ولقد كان بعض من في مثل مقامه وسنه يأخذ عليه ذلك ويعتبره من سقطاته وأعتقد أنه كان يحس بأن أمل الحياة مقرون بناصية الشباب في، لذلك يرعاهم ويتابعهم ويتغاضى عن هفواتهم ويقيل عثراتهم ويفتح عيونهم على واجباتهم ولذلك فقد كان نقطة ارتكاز في البلد تلتقي عنده المحبة والتوقير ومعها آمال الناس وآلامهم ومشاكلهم وكان يرى الرأي فيبت في الأمر مهما كانت علاقته في حدود طاقته أو خارجاً عنهم ثم يتابع رأيه بنفسه الواثقة وعزيمته القوية حتى يكون ما رأى، وقلما كان ينزع قوسه عن سهم طائش. ولست بموف أثر تلك الشخصية الكريمة في نفسي وأخشى أن أوصم بتهمة المبالغة في الثناء عليها لقاء مغنم أدركته بواسطته ولذا فإنني اكتفي

Twitter: @abdulllah1994

بهذه اللمحات الصادقة، مبرأة من كل تهمة بل هي شعور صادق يفيض عن إحساسات سليمة من الهوى والغرض. ولعل في بعض ما وصفت من أوصافه ما يلقي الضوء على تصرفه بتعييني في مجلسه بداره أستاذاً لقسم التخصص في القضاء الشرعي تلك الوظيفة المرموقة التي كانت تطمح إلى نيلها نفوس الكثيرين ممن يعرفون وسائل إدراكها ولا يتورعون عن ممارسة كل وسيلة مهما كانت على مبدأ الغاية تبرر الواسطة.

Twitter: @abdulllah1994

خِدَاع .. وَتغْرِيرٌ وَكَسْبٌ حَرَام ...

وها أنذا في اليوم التالي أحمل قلباً خفيفاً بالأمل ورأساً مثقلاً بالأفكار والصور ونفساً لا تدرك من تجارب الحياة إلا النزر اليسير أشبه بالصفحة الناصعة المفتوحة يستطيع كل من ألقى نظرة عابرة عليها أن يلتهم في لمحة جميع ما تنطوي عليه. وقد أخذت طريقي إلى المعهد العلمي السعودي أخب خبا ولم أجد في بلوغه ـ رغم حرارة الجو وبعد الشقة من داري إليه ـ أي عناء وسلمت على من يجب أن أتصل به لتحقيق غايتي فاستقبلني بنظرات فاحصة تدل على مكر خبيء مكين واستهتار مركب بي وبأسلوب التعيين الصارخ الذي قذفني إليه ودارت النظرات المبهورة من جانبي والماكرة من جانبه. وكانت أبلغ من أي حديث ومرت فترة من الوقت بليغة في صمتها معبرة أفصح تعبير عما تكنه الضمائر وقد أرهقني ذلك الصمت الخبيث فأردت أن أبدده بأي كلام كان فكانت الكلمة الأولى برهاناً صارخاً على السذاجة وقلة التجربة

Twitter: @abdulllah1994

فقد طلبت الاطلاع على برنامج الدراسة في هذا القسم لأفحصه ولعل صاحبي أحس بأنني بحثت بنفسي عن حتفي. فقدمه إلي في غرور واستكبار وبنفس الروح الساذجة تقدمت خطوة في هذا السبيل فسألت صاحبي إذا ما كان اتباع هذا البرنامج مفروضاً أداؤه أو أنه قابل للتعديل فنظر إلي نظرة القانص الذي مكنته الفريسة من نفسها وسألني وهل يوجد ما يدعو للتعديل أي أنه برنامج معترف رسمياً بأنه قد وضع على أكمل الوجوه وأوفاها بالغرض ولكني أجبته في صراحة بالغة أن البرنامج لا يصلح لتدريس طلبة يتخصصون في فن القضاء وأخذت أشرح له في بساطة أن تفسير القرآن المقرر في المنهج - وهو الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن وكان ينبغي أن يستبدل بآيات الأحكام.

وفي الحديث - المقرر في المنهج - صحيح البخاري وكان ينبغي أن يستبدل بأحاديث الأحكام ولا يوجد في المنهج تدريس علوم أصول الفقه وأصول الحديث وهذا ما يجب أن يدرسه الطلبة الذين سينهجون هذا المنهج وفي الحق أنني لمست صاحبي قد تطامن أمام الحق في ديباجة الصراحة الساذجة التي لا تشير إلى خبث أو دهاء. ولكنه أراد أن يفضح شجاعتي هذه ويستغل سذاجتي البادية سلاحاً في القضاء علي فأصر على أن يقدمني في نفس الوقت إلى طلاب هذا القسم لألقي عليهم كلاماً أي كلام ذكر أنه برسم «البركة» ولقد هالني الأمر وأحسست أن البركة هذه قد تبرك على مستقبلي فلا تقوم له بعد ذلك أي قائمة وأنى لي أن

Twitter: @abdulllah1994

أرتجل محاضرة في طلاب يتخصصون في فن القضاء الشرعي دون أن أحضر نفسي لذلك ولكن السذاجة فعلت فعلتها ووجدتني منقاداً مع صاحبي الذي وضع تحت قدمي بساط البركة اللزج لأنزلق منه إلى حيث لا يراني بعدها. ودخلت معه القسم وكان يحتوي على فحول ثمانية ـ وقد بدوا لي آنئذ فحولاً بأجسامهم الموفورة التي لم أدرك ما وراءها وقد كان مظهرهم يصدع بالغرور المستولي على عقولهم. وبهرني الموقف لحظة من الزمن ولم أحمد للسذاجة عملها إلا آنئذ فلقد تغلبت هذه الصفة في نفسي على الموقف فأنستني روعته وحضرتني بعض المحفوظات التي كانت قريبة العهد بذاكرتي حيث لم يطل بي العهد على مقاعد الدراسة والمذاكرة والاختبار وردتني تلك السذاجة الكريمة إلى دور الطالب الذي يحكي ما حفظه من الآية الكريمة التي مطلعها ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين،﴾ وحديث شريف وكتاب من عمر ابن الخطاب في هذا الصدد فتلوتها على طريقة المحفوظات المدرسية ثم تناولتها بالتفسير على نحو ما كنت أفعل أمام أساتذتي وانتهى الموقف الذي لم أدبره ولا اخترته على غير ما كان يتمنى صاحبي وخرجت من القسم بنفس الشعور الذي كنت أحس به كطالب خارج من قاعة الامتحان وعدت إلى داري وأقفلت باب غرفتي على نفسي وأخذت أكثر من المذاكرة والحفظ والاستعداد لملاقاة أولئك الفحول الذين ظهر لي بعد أسبوع من مخالطتهم أنهم لم يتوفر لهم أي استعداد لإدراك أي شيء مما أقول. وأن

Twitter: @abdulllah1994

البرنامج الذي كان مقرراً لدراستهم هو الذي ينبغي اتباعه وأن تسمية هذا القسم - بالتخصص في القضاء الشرعي - إنما كان لغاية لم أفهمها ولم أبلغ شأو فهمها.

أجل إن هناك غاية لا يمكن لأمثالي من البسطاء إدراكها تلك هي التقرب إلى قلوب رجال الدين الذين لهم السلطان الأكبر وكسب مرضاتهم وإقناعهم بأن هـذا المعهد العلمي السعـودي الذي تغدق الحكومة عليه بسخاء يقوم من جانبه بخدمة الرسالة العليا التي تهم أولي الأمر كما تهـم رجال الدين بأن يصنع للبلد علماء بلغوا من المعرفة الحد الذي تنقطع عنده الغايات وهو فهم القرآن والسنّة فهمًا يتجاوز حدود المعرفة العامة إلى التركيز الدقيق الذي يمكن الإنسان من فهم أسراره والتبحر في خزائنه حتى يكون قاضياً شرعياً. وبهذه اللعبة الخادعة المـاكرة يمكن لـلأشخاص القائمين بها أن يتسنموا المناصب الكريمة ويكسبوا الجاه العريض والاحترام والتوقير وتصبح لهم الكلمة المسموعة والمكانة المرموقة وتدر عليهم أخلاف الرزق ولقد تكشف لي الأمر عن دناءة هذه الجريمة النكراء وبشاعتها وجرأة لاعبيها على قتل هذه الأنفس. أنفس الطلبة بداء الغرور والمكابرة وويل للمجتمع إذا خرجوا بوصفهم قضاة وبيدهم وثيقة بذلك مع جهلهم الفاضح المشبع بالغرور ولم أتـورع من إعلان رأيي لـذلـك الشخص الـذي احسست أنه يمثل تاجر السم ليربح من وراء قتل الأنفس البريئة

Twitter: @abdulllah1994

الجاه والثراء والمنصب الرفيع ولقد حرصت على وقف هذه اللعبة ومن حسن الحظ أنه لم يخرج واحد من أولئك الطلبة إلى ميدان القضاء ولا إلى أي عمل يلابسه وانتهى قسم القضاء بالقضاء عليه وعلى أعصابي وفي هذه الفترة قررت أن أسافر من البلد. أن أسافر منها لفشلي وأن أطلب العيش في أي بلد آخر فقد أدركت أن أشخاصاً مثل صاحبي قد شاء سوء الحظ أن يقيمهم في مراكز من جسم هذه الأمة بمثابة خلايا الداء في الجسم تمتص منه أسباب القوة والصحة والنشاط لترده إلى الضعف والعجز والضياع لأن لهم غايات يرمون إليها. لقد وجدوا شعباً طيب العنصر سليم النية مؤمناً بالخير دكت عزيمته العناصر التي اختلطت به بالهجرة وتألبت عليه السياسة التي رسم خطوطها الأمويون ليكسروا من شوكته ويضعفوا من طموحه ويقضوا على رجالاته البارزين ومضت تلك السياسة سنة تقليدية ومضى معها يباريها في تحطيم إمكانيات هذا الشعب سيل الهجرة الجارف من عجزة المسلمين وفقرائهم وفاقدي الأمل في الحياة منهم فأصبح مباءة للعاجزين والخاملين والذين يتكففون الناس بالسؤال في مواسم الحج لسد رمقهم أو لجمع المال من أحقر الوسائل وأيسرها وحين أرادت الحكومة أن تنهض بهذا الشعب وتعمم التعليم بين أهله اندس أشخاص تظاهروا بالإخلاص لهذه الغاية وكان سلاحهم الوحيد أن يعرفوا الطريق لإقناع المسؤولين بشتى أساليب الملق والخداع عن صلاحهم لمسايرة تلك الأهداف

Twitter: @abdulllah1994

وتحقيقها ولكنهم مكروا بذلك وكان مكرهم أنه متى تحققت تلك الأهداف وتنور الشعب وفهم واجباته ومسؤولياته سوف يستغني عنهم وبذلك تنقطع الحاجة إليهم وهم يريدون أن يثروا وأن ينقلوا ثرواتهم إلى أوطانهم ليؤمنوا بها مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وليستبدلوا بشظف العيش نعيمًا ورغداً ولن يستطيعوا ذلك إلا في فترة الانتقال هذه الفترة التي يختلط فيها إخلاص المخلصين بنفاق المنافقين - وقد كان العنصر الثاني هو الغالب فطغى أثره على إخلاص المخلصين حتى أصبح من أعلن برأي نصوح اتهم بالكفر والزندقة وهي أفظع الصفات التي يوصف بها إنسان في بلد يريد أن يرفع من شأن الإسلام ويحمي شرائعه ويطهره من البدع وكان صاحبي واحداً من هذه الفئة حتى بغض إليّ كل رغبة في العلم والتعليم وفتح عيني على لون من النفوس المظلمة الجشعة القاتمة التي يلذ لها أن تحيا على أشلاء الآخرين.

Twitter: @abdulllah1994

تربة طيبة .. ورضا عن الحياة

أجل ـ لقد أحسست بفشلي وزهدت في جميع التعاليم التي أوحى بها إلينا الحاج محمد علي زينل وقررت السفر إلى أي بلد كان طلباً للعيش ولكن صاحبي وقف في طريق حريتي فتركت المعهد العلمي السعودي وذهبت إلى الطائف بدون استئذان لعل في هذا التصرف الشاذ ما يؤدي إلى عقوبتي بالرفت من الوظيفة ولكنه لاحقني بتعييني مديراً لمدرسة الطائف وحين أصررت على الرفض تدخل ذلك الشخص الكريم الذي أمر بتعييني أستاذاً لقسم التخصص في القضاء الشرعي ونصح لي بقبول الوظيفة ولو إلى حين وقد انصعت لرأيه بل وسررت بالنتيجة لأنني وجدت في طلبة هذه المدرسة حقلاً صالحاً لبذر البذور الطيبة ورعايتها وتنميتها فمعظمهم عرب من أهل البلد الذين يزرعون الأرض ويحصدون خيراتها ويدرس أبناؤهم في المدارس بنفس الروح التي يعمل بها آباؤهم في الحقول يتعلمون العلم ليجنوا ثماره وليخدموا بلدهم وأنفسهم بروح واعية مدركة، وقد انسجمت في

Twitter: @abdulllah1994

عملي انسجاماً كاملاً وتجاوبت مع الجو المحيط بي ومرت فترة رضيت فيها عن الحياة وفي هذه الفترة بنيت عشي الذي كنت أطمح إليه واخترت شريكة حياتي التي أسلفت بكلمة عنها فيما أسلفت عن أثر الأسرة في حياتي ولم تكن هذه الفترة كلها راضية مطمئنة بل لقد كان الصراع الخفي بيني وبين صاحبي مستمراً في الخفاء تارة وتارة علانية ولم أكن أضعف في يوم من الأيام عن وضع المرآة التي تكشف له حقيقته بين عينيه ليرى فيها نفسه على الوضع الذي يخفيه عن الناس ويكتمه عنهم كلما جدت الحاجة لذلك أو دعت مناسبة إليه. ولقد كان من حظ مستقبل العلم والتعليم في هذا البلد أن أقيل من عملـــه .

* .. * .. * .. *

Twitter: @abdulllah1994

حِكَايَة مَاضٍ ..

وجاء بعده شخص كان مجرد ذكر اسمه ينعش الخواطر ويحيي الأمل لما عرف به من وطنية صادقة وشجاعة أدبية وبساطة ولكني بعد مخالطته أحسست أنه لم يبق من تلك الشخصية القوية إلا ذكرياتها الماضية التي يجترها ويستعيد صورها الزاهية ولم تبق منها الأيام سوى ذلك الركام. ومع ذلك فقد ترك آثاراً خالدة تمجد وطنيته وتخلد ذكره في الخالدين.

Twitter: @abdulllah1994

بَـدَايَـة جَـدِيدَة

تحوّل كَـامِل في المـَوضوع وَالأسـلوبْ

ولم أستقم فترة طويلة معه ثم قررت ترك هذا الميدان، ميدان التعليم بالكلية لأن أسبابه لا تصلح لكسب المادة إذا كنت أقصد بمزاولته كحرفة للعيش وأما إذا كان سبباً لبناء المجتمع الصالح فإنه عمل مجهد كمن يشق طريقه في الصخر الصلد ودونه قنن الجبـــال.

ولقد أحسست حين خلعت من نفسي فكرة التعليم أنني قد تحولت إلى شخص آخر شخص يعمل في غير اتجاه وليس له هدف يخلص له ولا مثل يصبو إلى تحقيقه ولا غاية يقصد إليها. شخص مستعد لأن يعمل أي عمل يدر عليه أخلاف الرزق ولذا فإن جميع الأشخاص الذين دخلوا إلى نفسي كان دخولهم من أبواب متفرقة وكان التجاوب بيني وبينهم لوناً من تجاوب الحياة بأسبابها التي تقرب وتبعد وتبغض وتحبب وليس لذلك أي رابطة غير طبيعة تنازع البقـــاء.

Twitter: @abdulllah1994

عُمْق .. عُمْق .. وَعُمْق ..

فهذا شخص صامت يضج الصمت من سكونه إن لم يكن على جميع الأحوال فهو كذلك في الأحوال التي يلقى فيها الآخرين ممن لا يقيم نفسه على طبيعتها معهم، ولكنه مع صمته حاد النظرات قسمات وجهه معبرة عما يريد وهي توحي لمن حوله بأن يكونوا كما يريد وله من مقامه ذلك. لم أكن خليطه ولا جليسه ولا يدفعني للقائه أي سبب إلا فيما ندر، وبعض هذه اللمحات النادرة قد أفضت به إلى أعماق نفسي وعقلي وإحساسي، لقد أشاعت أثره في حاضري الذي كان منذ اثنين وعشرين عاماً حاضراً وهو الآن عند كتابة هذه السطور ماضياً من اثنين وعشرين عاماً ولكنه ماض حي حاضر في ذهني أكثر حضوراً من حوادث اليوم والغد يوم أن لقيته بل كلفت بلقائه ولم أكن على استعداد نفسي لهذا اللقاء لأن لقاء بعض الناس فن يتمرن الآخرون على أدائه في تمرينات طويلة ويتلقنون لمثل تلك اللحظات عبارات تقليدية ويعاودون ترديدها حتى يتقنوا أداءها كما

Twitter: @abdulllah1994

يفعل الممثل عندما يقوم بدور من أدواره في مسرحية، وهل كانت الحياة إلا رواية يمثل كل شخص دوره فيها فإذا كان حظه من حياته الفطرة فإنه يعيش حراً من جميع القيود يتكلم كما يبدو له ويتصرف كذلك ولا يجد مضايقة ما في أي لون من ألوان حياة الفطرة. أما إذا كان حظه من حياته الحياة المصنوعة، الحياة التي يتصنع لها الناس فنونها وأسبابها وتقاليدها فإنه يستمر في سلسلة من الحلقات التي تضيق به خطوة بعد أخرى حتى تأخذ بخناقه فلا يلبس إلا بفن مصنوع ولا يأكل إلا بفن مصنوع ولا يتكلم إلا بفن مصنوع وهكذا في جميع الحركات إلى أن يصبح دوره في الرواية عسيراً، ولقد كنت على فطرتي أجهل هذه الفنون وما زلت كذلك حيث لم يتوفر في طباعي القدرة على حذقها - وكذلك لقيته على فطرتي وأحس هو كما أحسست أنا أنه كان لقاء يشبه اللحن النشاز الذي يبدو في مجموعة عازفين مهرة ويكون واحد من بينهم فاقد الخبرة فإن نغماته تشبه السلعة البادية في الوجه الجميل فلقد كان المكان والجو وجميع الملابسات على أتم الانسجام عدا أسلوبي في اللقاء فقد كان يدل على النشاز في كل شيء ولكني لم أكن أحسن غير ذلك ولقد لمست أن الفطرة من جانبي استطاعت أن تأخذ مكانها في ذلك الجو ولو على غير هدى وكان حديثاً من جانبه منمقاً مصقولاً بفن محكم وصناعة عالية وكان موضوع هذا الحديث نقطة الارتكاز في حياتي. ومن كان يحيا مثل حياتي فإنه غير واجد في محيطه مراكز عديدة تصلح للارتكاز لأنها حياة ضيقة

Twitter: @abdulllah1994

محدودة الأفق فقيرة إلا من أفكار سابحة في الفضاء تمثل المعادلات الجبرية التي يدرسها المحترفون لفن الحساب فهي تحتوي على أرقام خيالية ولكنها ليست ذات قيمة فعلية فالملايين في أرقامهم لا تساوي العشرات في حساب المحظوظين الذين تنطق أرقامهم بما يمتلكون ولقد كان حديثه يدور حول الاطاحة بهذا المحور. وقبل أن يتم حديثه أحسست بعيني تزوغان وذهني يطبق عليه الشرود ونفسي تطير شعاعاً ليس لهذا النبأ المروع الذي يتهدد كياني فقط، ولكن للأسلوب الذكي اللطيف الذي اكتنف الإفضاء بهذا النبأ من حديث سلس عذب سبقه وحديث سلس عذب أعقبه وأسلوب لطيف مثل الغلاف من الحرير الناعم الذي غلف به الموضوع ومن أغرب ما يمر بحياة الإنسان أن يبهر بجمال السلاح الذي يسدد إليه لقتله ولعل هذه هي الفرصة الوحيدة التي جربت فيها هذا اللون من الإحساس فلم يكن إحساسي بالموضوع الذي يهددني يقل عن افتتاني بالأسلوب الذي صيغ فيه ولم تفت لحظة حتى غلبت السجية المباركة التي تتحكم في نفسي وعقلي سجية السذاجة الصريحة التي تظهر ما تضمر في غير تنظيم ولا تنميق ولكن تلقي ما تكنه إلقاء واحداً لا تبالي أن يتقدم ما يحسن تأخيره أو يتأخر ما يحسن تقديمه. الكل سواء والكل يراد به الإعلان والظهور فلا حرج أن ألقي به دفعة واحدة لأن ذلك كل ما يراد به، وكان إلقاء معبراً عن الفطرة، وللفطرة قوتها وجمالها ولذلك فقد كان أثره في الدفاع عن ذات نفسي أثراً طيباً وكانت تلك نقطة تحول في مجرى حياتي سلمت فيها الجرة على حد المثل

Twitter: @abdullllah1994

العامي ـ ما كل مرة تسلم الجرة ـ ولعل التعبير بالجرة يعني الوعاء الذي يحفظ الإنسان المحدود فيه أثمن ما يملك لذلك فهو أسعد ما يكون حظاً إذا وقع في مكروه وخرج منه والجرة سليمة وكذلك كنت. وقد لمست في هذا الشخص الكريم إنسانيته وطيبة قلبه وإصاخته للحق والضمير وخرجت من هذه التجربة وكأنما بعثت من جديد ولم تكن هناك أسباب تردني إلى صاحبي هذا وإن كان في هذا التعبير مبالغة في التجاوز والمجاز وسر ذلك أنني لست ممن يجيدون الحياة المصنوعة المقننة حتى دارت الأيام دورتها ولم تكن طويلة ووجدت نفسي مرة أخرى وقد ألقت بي أمواج الحياة العاتية في طريقه وكانت في هذه المرة محنة نفخت في صورها جميع أرواح الشياطين وأطافت بي ظلماتها الحالكة من جميع الجوانب. فتنة اصطنعتها حماقة الحمقى فتعددت شرورها وآثارها البغيضة إلي وأحسست بالنهاية المحتمة التي يحس بها الغارق في البحر فهو لا يفكر كيف غرق ولا إذا كان قد غرق باختياره أو بغير اختيار ولا في الأسباب التي أفضت به إلى هذه الحالة بل هو لا يفكر أيضاً حتى في الخلاص من هذه الحالة وكل ما يهمه أن يقصر من أجلها وينتهي منها بأسرع ما يمكن فهو مقبل على الموت بنفس الشغف الذي يقبل به السليم على الحياة ولقد شعرت في هذه الفترة بنفس العبرة التي يشعر بها كل من ترمي به المقادير في مثل هذه المآزق من فلسفات زاهدة تقيم الإنسان في مواجهة القضاء والقدر كالريشة في مهب الرياح فهو لا يرى لوجوده أي قوة على التمسك بالوجود أو طلب الخير أو منع الضر وتتطامن في نظره قصور

Twitter: @abdulllah1994

الآمال الشامخة وتبدو الأحلام السعيدة الزاهية كابية حقيرة في نظره وتتجلى له الحياة في مجموعها متاع غرور، وما كنت أظن أن هذه الشخصية ستظهر مرة أخرى في محيط حياتي لتمد الذبالة الخاملة بدفق من الوقود، وتمد حبال النجاة لهذه السفينة الموشكة على الغرق، ولكن ذلك ما حصل، وقد حصل بنبل وكريم طبع يعجز عن وصفه الواصف فكان هذا بالنسبة إليّ منه بعثاً بعد بعث وأثراً يفوق كل أثر وإحساناً دونه الشكر، ولكنه شكر كمين في النفس لم يسألني عنه من يجب له ولا حاولت أن أقوم بأدائه، وقد مضى الزمن على تلك الأحداث ولكنها في حياتي تشبه الحلقات التي ينتهي عند حدودها طور ويبدأ بعد حدودها طور آخر ولن يمكن أن يزول أثرها من النفس أما انفعال الإحساسات الخفية بها فانه متجدد كأنها دائمًا أحداث الساعة وكأن الزمن لا يمر بها كما يمر بغيرها من أحداث الحياة فيعفيها بالنسيان أو يخفف من أثرها. ولعل أصداء الحياة بعد العافية منها أطيب لحناً وأجمل وقعاً وألذ طعمًا وكأنما الشمس تشرق بعد السلامة من الكبوة أعظم بهجة وكل شيء في الكون يسفر عن جماله المكنون الذي لم تلمحه العين ولم يدخل إلى النفس قبل عصف الحوادث ولقد وجدتني أشد تعلقاً بالحياة بعدها أكثر من ذي قبل، فأقبلت على العمل بآمال واسعة عريضة ولعلني أحسست أنني زدت مراساً على الحوادث وحنكة بها وقدرة على مقاومتها وأن الشدائد تفتل من عضد المرء وتشد عزيمته وتفتح عينيه على ما يجب أن يفعله في الوقت الذي يجب أن يفعله فيه.

Twitter: @abdulllah1994

مَجمُوعَة عُقد نفسيَّة
قانون المـَــادّة

ونلتقي الآن بشخصية من نوع آخر، إنها مجموعة من العقد النفسية ـ يتحدث فتحس أنه ينتزع كلماته من روحك، من أعصابك، يرهقك بسماع ألفاظه لأنه لا يريد أن يعبر عن نفسه فقط ولكن ليشعرك بأن المتحدث من طراز خاص من الناس، ليشعرك من حديثه أنه قادر على أن يفعل ما يريد، وأن له من القوة والسلطان ما لم يؤته أحد غيره، إنك تحس في حديثه أياً كان هذا الحديث ومهما كان لغوا وتافهاً أنه يريد أن ينقل إلى مشاعرك أصداء نفسه وليس ذلك فقط بل يحاول أن يستل من نفسك استجابتك للإحساس بما أراد نقله إليك. إنه يستمد قوته وشخصيته من مركزه ممن هم أعلى منه كما يستمد القمر الجسم المظلم ضوءه من الشمس ولكنه لا يريد أن يعرفه الناس على حقيقته المظلمة التي لا تشير حتى إلى نفسها يريد أن يكون هو الشمس المحرقة العاتية الجبارة التي تحيل الخضرة إلى هشيم والنسمات المنعشة إلى سموم يصهر الجلود وكما يتنمق في حديثه

Twitter: @abdulllah1994

يتخايل في مشيته حتى لتكاد الكبرياء والصلف ينفران من كبريائه وصلفه، وحين دفعت بي الأحداث إلى اللقاء بـه كانت هـذه الصورة التي رأيتها فيه أول صورة من نوعها مرت بين عيني لقد كان هذا منذ عشرين عاماً. وكنت أفهم الحياة رأياً تمليه الحوادث وواجباً يؤديه كل إنسان في حدود اختصاصه وصلاحيته، وإن وراء هذه الاختصاصات ضميراً رادعاً ولهـا حدود تنتهي إليهـا ولا يمكن أن تتجاوزها، وقد اعتقدت أنني بذلك اللقاء وهو أول لقاء لي به سأكون في حدود الاختصاصات المأمونة العواقب لذا فقد عجبت كل العجب من أسلوب صاحب هذه الشخصية الغامضة في حديثه وتوجيهه وأمره ونهيه ووعده ووعيده الذي صاغه جميعه في جمل مترادفة متلاحقة بعضها آخذ برقاب بعض حتى لقد كنت أتلفت حولي في المجلس لأرى ما إذا كان كل ذلـك يعني غيري لأنني لم أجد ما يدعو لأن أكون معنياً بكل ما سمعت وحين تأكدت من أنه يعنيني بدأت أحاول أن أفهم أي نوع من أنواع الرجال يكون هذا الرجل وأخذت جميع الملابسات والظروف تدور في خاطري، إن الأمر الذي أثار غلواءه لا يعنيني إلا في حدود ضيقة واعتقدت آنئذ أنه ليس يعنيه في قليل أو كثير إلا بحكم مركزه ولكن الواقع من ناحيته بخلاف ذلك ولقد تطور ذلك الموقف حتى كانت منه دراما ومأساة وأحداث تجفل النفس من خيالها ثم جاء اليوم الذي قال لي ذلك الشخص نفسه في أسلوب ودي ــ **إن المادة هي عصب الحياة** ــ وكان ذلك في عرض حديث عام فألقى بهذه الكلمة ضوءاً على الرواية من البدايـة

Twitter: @abdulllah1994

وكشف لي عن خبيئة نفسه وكانت قولته تلك بالنسبة إلي كمفتاح لشخصيته التي عجزت عن الولوج إليها وتفسير تصرفاتها وعرفت أن قانون المادة هو القانون الذي يحكم بعض النفوس فهو يتكلم بقانون المادة ويقيم علاقاته مع الآخرين على أساس قانون المادة ولا يصدر في حركة من حركاته أو تصرف من تصرفاته إلا في نطاق ما يمليه قانون المادة ولقد ذكرتني قصة هذا الرجل بحكاية قرأتها عن المتنبي أنه حين كان فقيراً مر ببائع فاكهة فسامها منه فاحتقره البائع وغالى في ثمنها وبقي المتنبي ينظر المشتري لتلك الفاكهة حتى رأى صاحب الفاكهة المتعجرف في حديثه مع المتنبي يتملق شخصاً ذا أبهة ومنظر مهيب ويسترضيه في شراء تلك الفاكهة وذلك يصد عنه حتى تنازل واشتراها منه بأقل من الثمن الذي دفعه إليه المتنبي فحملها إليه راضياً فوقع ذلك المنظر في نفس المتنبي موقع الدهشة والاستغراب فسأل صاحب الفاكهة عما حمله إلى إذلال المتنبي حين أراد شراء الفاكهة منه وغالى في ثمنها ثم أذل نفسه بالمغالاة في استرضاء هذا الشخص حتى اشتراها منه بأقل مما دفع إليه فقال له صاحب الفاكهة ألا تعرف أن هذا يملك كذا ديناراً فما كان من المتنبي إلا أن تلقى هذا الدرس بقلب خال حتى تمكن من انفاذه وحرص على أن يملك ما يملكه صاحب الدنانير ليذل بثروته أمثال صاحب الفاكهة الذين لا يؤمنون بغير قانون المادة ولكني مع ذلك لم أرض عن شبيه المتنبي ولا عن أسلوب صاحب الفاكهة **ولكنها** تجربة مرت علي في حياتي جعلتني

Twitter: @abdulllah1994

أنظر إلى المادة كمارد يلهب بالسياط جنوب من تملك من قلبه وغلب على طبعه ونفسه وعقله ولقد مضت السنون ولم أر ذلك الرجل تمكن في يوم من الأيام من التحرر من ربقة المادة وسلطانها بل لقد زاد مع الأيام لها استعباداً وتأليهاً وقد طبعت عليّ ملامحه ألواناً من الحرص والهلع كشفت عن سوءة تصرفاته كما تكشف الشيخوخة الطاعنة عن مقابح الوجه الذي كانت تخفي عيوبه نضرة الشباب ورونقه. وإنني لأنظر إليه الآن فاستذكر مبدأه الذي أراد أن يخدعني به وهو أن المادة عصب الحياة فأتصوره وقد اختلطت حياته بجميع ما في المادة من مساوىء كالحقد والحرص والقلق والهلع وامتزج كل ذلك بروحه حتى همدت روحه بأثقال المادة كما تلتف الأفعى بعنق فريستها ثم تنفث فيها سمومها وإنها لأرحم لأنها تقضي عليها فيرتاح من عنائها ولكن المادة تعذب فريستها دون أن تقضي عليها.

تَخطيط .. وَدَوي .. وَلَغط

أما هذه الشخصية التي نقتحم سياجها فلعلها أكبر شخصية تأرجحت بها حياتي ذات اليمين وذات الشمال وليس الذنب ذنبها فلعلها لم تكن تحس بوجودي في محيطها ولا أحسست بأنها ذات أثر فعال في حياتي. فلقد كان الذنب ذنبي حين فرضتها على نفسي فرضاً بل لعل الذنب ذنب الفطرة التي فطرت عليها من الرغبة الملحة في الاستفادة من الصور التي تعرض لي في حياتي ومحاولتي تركيز أصدائها في بمعانٍ محددة ثم تتطور تلك المعاني إلى مبادىء وطقوس من نسج الخيال ثم محاولتي أن آخذ بنفسي في إشباع تلك المبادىء والطقوس والنسج على منـوالها مقـدراً أن الناجحين في حياتهم إنما يعني كل منهم ما فعله وأنه مخلص بروحه لما صــدر منه وكثيراً ما تصورت أن النتائج المحسوسة بين عيني إنما ترتبت على مثل تلك المقدمات التي تصدر من مثل الشخصية التي أتحدث عنها وبمقدار ما كنت معجباً بها كنت أتتبع تصرفاتها وأفلسفها في ذهني وأخرج منها بمعانٍ لا تلبث أن تتصور في شكل

Twitter: @abdulllah1994

مبادىء ولكني عرفت بعد مضي الوقت وفوات الأوان أن بعض الشخصيات القوية لا تأخذ شؤون الحياة مأخذ الحقيقة الدائمة ولا المبادىء المقيمة ولا الأهداف الثابتة ولكن بأسلوب الكون، أسلوب الحياة المتقلب فكما أن الطقس متقلب من برد يجمد الأطراف ويدفع الكائن الحي لمقاومته بأسلوب خاص من المعيشة إلى جو حار يدعو للتجرد والتحرر من جميع القيود التي تضغط على الأعصاب والمشاعر وكذلك الزمن يتقلب من ليل تتلون فيه الحياة بألوان زاهية أو قاتمة رشيدة أو فاجرة إلى نهار تفتضح مع نوره الأسرار وتدارى عن عيون الناس وأسماعهم، وكذلك عرفت من هذه الشخصية أنها فاهمة فهمًا تاماً ووعياً نافذاً لحقيقة الحياة فهو لا يؤمن بصداقة ولا بعلاقة ذات لون واحد ولا يؤمن بأي مبادىء إلّا مبدأ الذاتية،لذلك فهو يستعرض في كل يوم جميع شؤون الحياة الملابسة له والأحياء الذين يطوفون في فلكه أو يطوف في فلكهم ثم يرتب ما يترتب على هذه الصلات من منافع يقيدها ويضيفها إلى عجلته وما يمكن أن يمنعه من مضار يبعدها من طريقه ثم يخطط سياسته العملية في حدود هذا المخطط. ولقد كنت في بداية الأمر أعجب بأسلوبه في معاشرة الناس ومخالطتهم وأسلوبه في التفاهم معهم وتقريب من يقرب وإبعاد من يبعد فأحتار في تفسير ذلك فانه يبالغ في العطف على شخص ويفرش له فراشاً من حرير وينثر على جوانبه الورود ولكني لا ألبث حتى أرى ذلك الفراش الناعم وقد أطبق على من افترشه فذهب به إلى

Twitter: @abdulllah1994

الهاوية منعمًا موفور الكرامة. ثم أراه بعكس ذلك مع شخص ثم لا ألبث حتى أرى ذلك المغموط الجانب وقد طارت بيمن طالعه الأخبار، ولقد كنت أفكر في قدرته على التدبير والتفكير المرتب الموزون الذي استطاع معه أن يرسم منافذ الجاه والنفوذ ليجمع إليه مقاليدها ويتحكم فيها وفي مصائر الناس المتشبثين بحبائلها كما يحكم المحارب البارع رقعة الميدان فيعرف كل ثغرة فيه وإلى أين تؤدي ويضع للمعركة خططها بقدر فلا يقدم مقدماً ولا يؤخر مؤخراً ولا يلتفت يمنة أو يسرة ولا يتريث ولا يتعجل إلا بقدر مقدور وحساب محكم. ولقد رأيته ينهزم أحياناً في الميدان وكنت أحس أنه كان بإمكانه أن لا ينهزم ولكنه يعود كرة أخرى فإذا هو قد كسب المعركة الأولى وما بعدها وإذا به قد تخطى حدود النصر وإذا بالهزيمة خطة محكمة من خططه المدبرة وأعجب للمعاني السامية الجذابة الخلابة التي تخلب الأفئدة والقلوب كيف يصنفها على صنوف وقد فقه أمر هذه المعاني كما عرف مفعولها السحري في كل طبقة من الطبقات. فالشيوخ الطاعنون في السن لهم معان وأساليب وطرق يخلب بها أفئدتهم والشباب الذي تجري في عروقه الدماء الحارة ويسبح في خيالاته المشرقة وأحلامه الممعنة في الخيال ذلك الشباب هو مادته في تنفيذ أغراضه وجنوده المسخرون في خلق الهالة حوله، إنه كالساحر الذي لا يلقي رقاه إلا في عتمة من دخان المجامر لأن سحر تلك الرقى لا تظهر قوته وتأثيره على النفوس إلا في ذلك الجو الذي

Twitter: @abdulllah1994

تختلط فيه المشاعر والأحاسيس وتتضاءل قوي العقل والمنطق وتستكين النفس الإنسانية بذلة وخضوع للقوى المجهولة الغامضة الواردة من وراء الأفق من وراء الطبيعة، من اللاشعورية المطلقة وكذلك كان صاحبنا يستعمل جنوده الذين صاغهم صياغة خاصة على أسلوب محكم ليخلقوا الهالة حوله، ليخلقوا الجو الصالح لإنفاذ دوره فإذا أحس بأن الجو أصبح ملائماً قام هو بتنفيذ خططه. لقد كانت أولى وسائله النداءات الوطنية والشعارات الشعبية وقد تزعم بها قوة من الشباب المتحمس لوطنه الذي آمن به كوطني مخلص يتحلى بالنداءات الشعبية والوطنية وكانت هذه المراقي الأولى التي رقي بها إلى مراكز الجاه ودخل من أبوابها الواسعة إلى النفوذ والسلطان، وتلفت الأذكياء ممن حملوه على أكتافهم ليروا ماذا هو فاعل بمبادئه التي شاركهم وشاركوه الإيمان بها ولكنه لم يعدم شتى الوسائل للافلات من محاصرتهم له ومطالبتهم بتحقيق الأهداف التي تعاهدوا على تحقيقها وقد أضاف في هذه المرحلة إلى ذكائه ولباقته جميع الإمكانيات التي أضفاها عليه السلطان والجاه وسعة النفوذ وفي هذه المرحلة عدل في صفوف البطانة ووسائل الإغراء فقدم من يصلح لهذه المرحلة وأخر من انتهى دوره،وبذل الإحسان ومد بالعطاء واشترى نفوسا كثيرة وجدها تعرض ذممها ورسم خططه على أساس شق الطريق بالأساليب اللينة والأيدي العاملة التي تباهي بأن تظهر على الشاشة ولو لحساب غيرها. لقد كانت الكلمات المعسولة ومظاهر

Twitter: @abdulllah1994

التوقير والتقدير والمجاملات السخية والابتسامات السحرية ومن وراء كل ذلك البذل والعطاء كلها حبائل تشبه الأعنة التي تقاد بها الخيول الفارهة ولكن جميع هذه الأعنة مشدودة إلى يد الفارس الوحيد الذي يوجه نشاطها من مقعده الوثير، ولقد كانت تلك الخيول مرهفة الحس بحيث تفني كل قواها ونشاطها في حلبة السباق فلا يرضى أحدها بأن يكون متخلفاً في الاتجاه الذي ينافسه فيه غيره وكانت قدرة الفارس على خلق روح المنافسة والتضحية بين خيله ورجله قدرة فائقة فاستطاع بذلك أن يطهر طريقه من جميع العقبات على ضخامة العقبات التي وجدت في طريقه ولقد كانت تلك العقبات التي بثت في طريقه عقبات محكمة التدبير والتقدير تتضافر على صنعها عقول ماكرة ونفوس حاقدة وقلوب متحرقة على الإيقاع به ولكنه لا يمد إلى واحدة منها يده ليزيحها عن الطريق وإنما يرسل إليها كلابه المسعورة ثم لا يلبث حتى يجد أنها بما وهبت من أمانة وإخلاص لسيدها بما رسمه لها من خطط محكمة لتطهير طريقه من تلك العقبات قد أدت واجبها وأضافت بعملها إلى مجده مجداً وإلى نفوذه وسلطانه نفوذاً وسلطاناً ثم لا يكتفي بأن يرى الطريق قد سويت واستحال خوفها أمناً ووعرها سهلاً ممهداً بل إنه يضع الخطة ليضم إلى صفوف هؤلاء الكادحين إخوانهم الماكرين الذين رتبوا بحقدهم ومكرهم له المشاكل وبثوا في طريقه المتاعب، فلا تلبث بطانته حتى تفاجأ بأن الصفوف قد تعدلت من جديد ودخل على متقدمها

Twitter: @abdulllah1994

تأخير ومتأخرها تقديم وانضم إلى صفوف الأصفياء المخلصين لفيف من الأعداء الذين كانوا قبل ذلك محاربين وتمتد الأيدي التي كانت تحمل الخناجر بعضها لبعض لتتبادل الورود ويبقى فريق من الناس هناك بعيداً بعيداً جداً يراقبون المعركة وينفطرون من الدهشة والحيرة ويعملون أفكارهم في فلسفة هذه الحركة فلسفة لا تتجاوز مجالسهم ولا تتعدى قلوبهم وحناجرهم إلى خارج الحوائط المحيطة بهم، ويستمر الفارس البطل يشق طريقه فإذا توقف في مرحلة من المراحل ألقى أعنة تلك الخيول الفارهة لتستريح من عناء جولتها وتفرغ لأولئك المتفلسفين الذين يقيمون في صعيدهم الطاهر النقي، الصعيد الذي دحا الله منه هذه الكائنات وعرفها بأن أصلها منه. من ذلك التراب. ليشاركهم نعمة الإقامة على ذلك الصعيد المشرق بالسعادة سعادة الحرمان ليؤكد لهم غبطته لهم على راحة البال والسلامة من كيد الكائدين تديره ومكر الماكرين وتجنيب أنفسهم التلوث بأوضار الحياة الفانية وأغراضها الخسيسة وليشاركهم عواطفهم الوطنية وأحاسيسهم الإنسانية ودعوتهم المشرقة لفناء الفرد في الجماعة والتفاني في سبيل الصالح العام ولن يعدم الفارس البطل قدرته على النفوذ إلى قلوب ذلك الفريق من المتفلسفين واندماجهم في بطانته وهكذا وجدته ينظم انتصاراته في الحياة. في كل ميادينها الحيوية مثل ما ينظم خططه لبلوغ غاياته في ميادين الصراع والكفاح، ولقد كانت مكاسبه فوق ما يمكن لكاسب أن يكسب فقد استطاع أن يضرب أفضل

Twitter: @abdulllah1994

الأمثلة على الإحسان بإغاثة الملهوفين وكشف كرب المكروبين وقضاء حوائج المحتاجين ما جعل هذه القلوب ندية بمعروفه مدينة بفضله مملوكة لإحسانه وقد فعل ذلك في حدود خطة مرسومة منها ما قدمه رصيداً في حسابه يوم الدين ومنها ما استهلكه في حسابه مع الآدميين وإلى جانب ذلك فقد ترك رقعة صراعه مع من صارعهم فصرعهم ملوثة بالدماء والحسرة والأنين والجروح تنزف دماءها وحقدها قطرة قطرة في صبر ومرارة وألم دفين وقد جمع من المال ما يشتري به الجاه كسلعة تقدر بثمن وهو قادر على أن يدفع من الثمن لما شاء من جاه وكذلك فقد شغلت هذه الشخصية عقول الناس وقلوبهم ومثلت على مسرح الحياة دوراً واسع النطاق ولفت في تيارها كثيراً ممن لابسوها بسبب أو بغير سبب ودخلت آثارها في كل بيت وتردد ذكرها على كل لسان، وترك في كل مكان حل فيه وفي كل محيط أحاط به دوياً كما وصفه المتنبي - كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر - ولقد حاول كل إنسان أن يسهم برأيه فيه وأن يشغل نفسه بالحديث عنه ولو تتبع متتبع ألوان تلك الأحاديث لرأى العجب العجاب. فإنه يرى المادح الذي لا يلبث أن ينتقل إلى ذام والذام الذي لا يفرغ من ذمه حتى يرى متمسحاً بأعقابه آخذاً شتى الزلف إليه، ولقد رأيت من أعدائه الذين يتحرقون مرارة وغيظاً يتملقون إليه بأساليب فاضحة لا يشبهها إلا عداؤهم الرخيص من ورائه، وتعجب للصور المطبوعة له في نفوس أصدقائه وأعدائه على حد سواء كل يعكس

Twitter: @abdulllah1994

على هذه الشخصية ألواناً من خياله فإذا شئت رأيته شيخاً معمماً لا يفتر عن التسبيح والتهليل والخشوع وحضور حلقات الذكر والانغماس في لجج التصوف كما يحدثك عنه واحد من هذه الجماعة ممن يدورون في فلكه. وإذا شئت رأيته مشعوذاً ساحراً يطلق المجامر ويسخر الجان وينظم الأسحار فيسخر بقوتها الرجال، يحدثك بها من يتصور أن النبوغ والجاه والسلطان إنما يتم بهذه القوى الخارقة للعادات، وإذا شئت رأيت صورة السياسي المحنك البارع الموهوب الذي يهضم الأحداث ويطغى ذكاؤه على كل ما هو حوله من مناسبات وظروف وشؤون وأعمال فينسقها تنسيقاً بارعاً ويسبق الأحداث ويبهر الآخرين بآرائه السديدة ونظرته الواقعية التي تتحقق وفق جريان الزمن. وإذا شئت وجدت صورة الإداري القدير الذي يملك القلوب وينظم الأمور ويصرف الأعمال ويطبع سيرتها بطابعه الخاص فلا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة إلا وقد قدر لها قدرها ووضع في نصابها أمرها ونظم الأمور المختلطة المتزاحمة التي تتزاحم فتعوق نظام سيرها حتى تسير سيراً رخواً هادئاً، وتجد من يحدثك عنه فيصور لك صورة شيطان أقام من نفسه حرباً على جميع المعاني الإنسانية الكريمة وهو في نفس شخص آخر ملاك الرحمة الذي تجده وراء كل فضيلة ومكرمة وإحسان. ويغيب عن الميدان ولا تنفك أشباح شخصيته القوية تشغل الأذهان اشتغالها بها وهو حاضر ويريح نفسه من التفكر في غيره ولا يستريح غيره من التفكر فيه والانشغال به.

Twitter: @abdulllah1994

عرفته في سن مبكرة وقد كنت في العاشرة من عمري وقد رأيته بين لفيف من أصدقائه أخفهم حركة وأوفرهم نشاطاً وأحضرهم بديهة وأكثرهم كلاماً وقد لفت نظري أنه إذا حضر تبدل جو المجلس بحضوره وأكسب الحاضرين نشاطاً للحديث فتتعالى الأصوات ويتضاعف اللغط والضحك ويحتد النقاش وكنت أرى تلك الاجتماعات في بيتنا مع بعض أفراد عائلتنا، ثم مع الزمن علمت أنه يتزعم لفيفاً من الشباب متحمسين لوطنيتهم وكانت أصداء تلك الدعوة تتجلى في شعرهم ونثرهم وكنت كلما تقدمت بي السن وقطعت مرحلة في الدراسة أتبين صورته في ذهني أكثر وضوحاً ولم تكن لي به أية علاقة مباشرة ولكني وجدت ذهني يفكر فيه عند كل مناسبة، وإعجابي به يتضاعف من غير سبب إلا ما يدور عنه من حديث في المجالس. وهو بحق ذو شخصية نافذة ولذا فقد كان يشغل الأذهان بتصرفاته ويترك انطباعاته في كل مناسبة اجتماعية وقد كانت الفترة التي بزغ فيها نجمه هي نفس الفترة التي بدأ فيها ركب الحياة العامة في بلادنا سيرته، الفترة التي ظهرت البلاد السعودية فيها ذات كيان واسع وبدأ اسمها يحتل بين الشعوب العربية محل الصدارة وبدأت تتحسس الطريق إلى الثروة لتدعم كيانها السياسي، تلك الفترة التي كان لها كل ما جد بعدها فكانت هذه الفرصة المواتية ليبزغ نجمه متدرجاً مع بزوغ نجم البلاد التي شقت طريقها إلى المجد وهكذا توفرت جميع الأسباب لتتفاعل مع مواهبه الشخصية وتخلق منه تلك الشخصية التي ملأت الأفئدة وشغلت الألباب ولقد استعمل

Twitter: @abdulllah1994

ذكاءه في:

أن يخلق هالة حوله.

أن يربط أكثر ما وسعه من شؤون الناس به.

أن يجمع حوله أكبر عدد من الناس الذين يجيدون اللغط بكل شيء عنه.

ولست أدري إذا كنت قد استطعت أن أعبر عن المعنى الذي أريده بكلمة (اللغط) فإن الصفة الوحيدة التي يقاس بها من يصلح لعملية التشيع هي القدرة على توزيع الحديث وتفنينه وخلق المناسبات له والقدرة على ترديده ولو لم تكن له مناسبة، أي نوع كان من الحديث شريطة أن تكون هذه الشخصية المحورالذي يلف الحديث نحوه. وقد كانت هذه العناصر مكملة بعضها لبعض مثل دوالي الساقية كل دالية منها تفرغ في التي بعدها وجميعها يصب في وعاء واحد ولا بد لهذه العملية أيضاً من خرير الساقية ونغماتها التي تتجاوب باستمرار مع كل حركة من حركات أجزائها. ولقد كانت هذه الشخصية، تهتم أعظم الاهتمام بأن لا تفتر حركة هذه الساقية ولا تتخلف أي دالية من دواليها عن الحركة في انسجام تام مع أخواتها فإذا لمس في واحدة فيها ضعفاً أو تهاوناً فسرعان ما يعمل شتى أفانينه ليرد على هذه العناصر قدرتها على المضي في عملها على الوجه الأكمل، ولم أعرف في حياتي إنساناً عني بمثل هذه المجموعة من الأسباب ليحصن بها

Twitter: @abdulllah1994

شخصيته عناية هذا الرجل بها وإن من يعرف مقدار ذلك الانسجام الذي استطاع أن يؤلف به تلك الأسباب لتؤدي في مجموعها إلى نتيجة واحدة متناسقة أتم التناسق ليدهش لتلك القدرة على ذلك التنظيم الدقيق والمراقبة ولم أكن في بداية الأمر ممن يدورون في فلكه ولم تكن طريقة حياتي تمت إلى جوه بأي سبب ولكني يجب أن أعترف بأنني كنت ممن بهرهم باشراقته وشرفهم بمحبته على البعد ومن غير أمل حتى جدت ملابسات جعلتني أفكر في الاستعانة به فكان أكرم من عرفت عوناً وأسرع من دعوت استجابة فزادني ذلك انبهاراً وحباً ووفاء، ولكنه انبهار وحب ووفاء البسطاء الذين لا يملكون سوى قلوبهم وعواطفهم يقدمونها جزافاً حتى لا يبقوا لأنفسهم منها باقية ومنذ ذلك اليوم أصبحت أدور في فلكه الذي لم أستطع الانفكاك منه إلا بعملية تشبه الانتحار. ولكنه انتحار على مذبحه، وقربان بين يديه وفي خلال هذه الفترة عرفت فيه شخصية هي وحيدة بحق بين كل من عرفت ولكنها نوع نادر بين الأحياء وخرجت بعد كفاح طويل في محيط تلك الدوامة كما يخرج المحارب الذي دخل المعركة بصحته وشجاعته وإيمانه وآماله العريضة ثم خرج منها حطاماً وقد تغيرت في نظره جميع الأهداف التي آمن بها والمثل التي كان يحن إلى تحقيقها ثم لم يجد بعد ذلك نفسه ولا صحته ولا شجاعته وفقد مع كل ذلك أمله الذي كان يشرق على قلبه بالسعادة ودفء الحياة، ولقد كنت في هذا الدور جميعه حالماً مغرقاً

Twitter: @abdulllah1994

في نومه، وخيالياً مغرقاً في تصوراته لأن هذه الشخصية - كما قدمت - لم تكن تحس بوجودي في محيطها، ومع ذلك فقد اكتويت بنارها وانصهرت بلهيبها وأفقت من أحلامي وخيالاتي محطما فلا الأدب الذي بهرني ذو موضوع ولا الوطنية والأهداف المثالية ذات وجود ولم يكن هناك غير قانون الحياة قانون المادة الذي يسخر كل شيء لغايته ويضع لكل غاية ثمناً ويسعر الأهداف والمبادىء والأشخاص بتسعيرة تفرضها الظروف والمناسبات وهكذا وجدت مبدأ (المادة عصب الحياة) يتجلى لي بتفسير أشد وضوحاً وأعظم أثراً وأوسع مدى وأدق نطاقاً.

أما الشخصية التي أحسنت إليّ فجحدتها وقربتني فتباعدت عنها وواستني في ملمة حالكة من ملمات الزمن التي أحدقت بي فلم أتجاوز في شكرها حدود عرفاني لمعروفها بقلبي وبالثناء عليه عند كل مناسبة وقد كان يريد مني أكثر من ذلك - بل كان يحرص بإصرار وعناد أن أضع يدي في يده لأتعاون معه ولكنني حرصت كل الحرص أن لا أفعل ذلك لا كفرانا بمعروفه ولا انتقاصاً لحقه ولكنه التغفيل الذي تزوقه وتفلسفه الفطرة الساذجة ولعل أصلح وصف توصف به هذه الفطرة - أنها الفطرة المغفلة التي لا تميز بين المصلحة المتخيلة والمحسوسة، بين الواقع والخيال، بين الوهم والحقيقة، بين العمل الذي يكون محصوله ثروة تنثر ومركزاً مرموقاً يشهر ونعمة وارفة الظلال، وبين المبادىء

Twitter: @abdulllah1994

الأفلاطونية التي تغني بها الشعراء ووصفتها كتب الأخلاق وأسهبت في تحليلها وذكر فضائلها ووصف جمالها الروحي. لقد كان هذا الرجل ذكياً إلى الحد الذي تشعر بأن ذكاءه مثل الشعاع يسري بين يديه وليس يسري سريان الشعاع الهادي بل الشعاع المحرق الذي يصدمك بلفحه ويتجسم هذا الإحساس في أسلوبه في الحديث وفي حركاته وانفعالاته وطريقة معالجته للأمور وطريقة مقابلته للأشخاص واصراره وعناده ولست - أعرف وصفاً من اوصافي يقربني إلى هذه الشخصية أو يميل بها إلي فإن كل ما اعرفه في نفسي من بساطة وسطحية وأسلوب عاطفي في معالجة الأمور وليس معالجتها فقط بل حتى في مجرد النظر إليها والتفكير فيها كل ذلك مما يباعد بيننا. ولم تكن العاطفة قط وسيلة صحيحة وسليمة لمن يغامر بنفسه في لجج الحياة العملية فإن من يتألم لآلام الناس ويفزع لفزعهم ويبكي لبكائهم سوف لا يلبث حتى يجد أن كثيراً من الباكين إنما يذرفون دموع التماسيح وقلوبهم تفيض من السرور. وكثيراً ممن يشكون مر الشكوى من الأمم إنما يتخذون ذلك وسيلة لبلوغ غاياتهم وويل للبسطاء الذين يبكون بجد مع البكائين احترافاً وخداعاً والذين تتقطع قلوبهم من الأنين الذي يصرخ به المصطنعون للآلام حتى يبلغوا غاية في نفوسهم.

ولم يكن هذا الرجل ممن يحفل بالعواصف الفارغة ولا يقيم لها أي وزن، ولكنه يحفل بنوع السلاح الذي يخوض به المعركة ويفحص القوى التي تنازعه الوصول إلى غاياته فيعمل على إلانة قناتها

Twitter: @abdulllah1994

والفل من حدة سلاحها والمكر بها ويرمي شباكه بعيدة عن مدى الرؤية المجردة حتى تقع الفريسة وهي أشد ما تكون شعوراً بالأمن والطمأنينة. ولقد كنت أعرف فيه هذه الصفات وأعرف أنه راودني صراحة على العمل معه وكان غيري يتمنى الظفر منه ببعض ما أسدى إلي، ولكني رفضت طلبه باعتذار أردت أن يكون مهذباً ولطيفاً ولكنه جاء على عكس ما أردت وكان ينبغي أن تكون هذه النتيجة حاسمة فيما بيني وبينه ولكنها كذلك أتت من جانبه بعكس ما كنت أتوقع فقد أثارت في نفسه الحرص والعناد على بلوغ غايته ولعل ذلك استجابة منه لفطرته وقد يكون أيضاً أحس بحقيقة الأسباب التي أدت بي إلى الاعتذار إليه وعرف أنها أسباب أفلاطونية من نوع الوفاء الذي يلزمني على البقاء على حالتي التي كنت عليها. وفاء لم يؤثر فيه بريق المادة ولم تخدعه وجاهة المركز الجديد، فأراد أن يصحح نظرتي للحياة ويردني إلى الوضع الصحيح، وقد انتهز فرصة حالكة دهمتني بها المقادير فأخذت مني بالوتين، وأحاطتني بأسوأ الظنون فغمرني ببره براً ليس من النوع الذي تعارف عليه الناس وعطفاً يليق بمركزه كما يليق بفطرته القوية، إنه لم يكن يدفع عني السوء لأعرف عنه ذلك أو ليعرفه عنه عارف ولم يكن ينتهي عنه حد التمثيل والعواطف والمتاجرة بها ولكنه كان يدافع بقوة القوي وعناد الذكي ويرسم الخطط التي لا بد وأن يصل منها إلى نتيجة حسنة تخلصني من الأزمة التي أطاحت بي، ولقد كان يترفع بنفسه عن أن يسأل

Twitter: @abdulllah1994

شيئاً لنفسه ولكنه سأل. جلى شيئاً كثيـراً وألح في السؤال ولقد أحسن إلي إحساناً عجبت له أشد العجب بل ينبغي أن أقول إنني ذهلت منه لأنه إحسان جاء نتيجة تصرفات تختلف مع طبيعته كما تختلف مع طبيعة علاقتي به. وتختلف أكثر من كل ذلك مع طبيعة الظروف التي قام فيها بذلك العمل، وإنني أعرف أشخاصاً كنت أتعصب لهم وأتشيع لودهم وأضحي في سبيلهم إلى حد الإيثار بمعنى أنني كنت أرفض أي نعمة تتعارض مع إخلاصي لهم ظهروا بمظهر سلبي بل ربما بمظهر عدائي صارخ في هذا الموقف الذي فضح فيه هذا الرجل بمعروفه الذي أسداه إلي خطأ تقديري للأمور وقد انتهت تلك الفترة بما حملت من سوء وبعد أن استقرت الأمور رجع يكرر إليّ طلبه بالانضمام إليه ورجعت الفطرة المغفلة تعمل عملها لتظهر لي أن شكران الإحسان ليس بالاستجابة إلى طلبه وإلا فإنني أكون قد ظهرت بمظهر مكشوف من الضعف وكأنما هو بإحسانه هذا قد أخضعني لرأيه واشترى مني نفسي وتحول بي عن المبادىء التي كنت متمسكاً بها وهي الوفاء لمن كنت ألزم نفسي الوفاء لهم. وهكذا وجدت نفسي في صراع عميق بين الاستجابة لطلبه والبقاء على الوضع الذي كنت عليه قبل أن يحدث ما حدث وكلما تصورت أن الاستجابة لطلبه تجعلني كمثل الشخص الذي عقد صفقة قبض ثمنها مقدماً وأن السلعة في هذه الصفقة إنما كانت نفسي التي أرادها في يوم من الأيام فأبيت عليه ذلك لأسباب كريمة وأن في انفاذ هذه الصفقة

Twitter: @abdulllah1994

هزيمة منكرة لموقفي السابق وأحسست أن هذا الرجل كأنما يريدني أن أسير في ركابه كلما تصورت هذه المعاني أزددت نفوراً منه حتى إذا ذكرت إحسانه إلي شعرت بالقوة التي تشدني إليه وقد وجدت في تلك اللحظة أن خير ما أفعله هو أن أحول مجرى حياتي أن أبعد عن هذا الجو أن أعمل عملاً حراً.

وقد كشف بذكائه أن تصرفي هذا يعتبر حماقة كبرى كالذي يستجير من الرمضاء بالنار فإن القضاء على مستقبلي في الاتجاه الذي كنت سائراً فيه هروباً من النزول على رغبته والاستجابة لإرادته بهذا الأسلوب يعتبر تحطيمًا لكل ما ابتنيته من دعائم في الماضي يمكن أن أشيد عليها مستقبل حياتي ولعله كان ينظر إلي بعين فاحصة ليتدبر الطريقة المنكرة التي أسلكها في تفكيري وتدبير أموري، ولقد كنت أحس بأنني قادم على تضحية عظيمة وأنني سالك مسلكاً وعراً، وقد علم بذلك كثير من أصدقائي فتطوعوا بلومي وأعربوا عن رأيهم بخطأ ما اعتزمت. وقد كان هو ألطف وأكرم مني على نفسي ومن أصدقائي عليّ فقدم لي نصائح أراد بها أن يعدل بي عن رأيي. وفي الحق أنه كان ناصحاً مجرباً وكان نصحه ينطبق مع واقع الحياة انطباقاً تاماً وقد أرخى في الأسباب التي بيني وبينه ورد طرفها إليه ليعطيني الفرصة في العدول عن الخطة التي قررتها ويجذبني إليه في الفرصة المناسبة، ولكني مضيت في طريق تعذر عليّ العدول عنه وقد أحس بأن الشقة بيننا قد بعدت ولم يبق أمل في استجابتي لرغبته فعتب عليّ عتب الناصح

Twitter: @abdulllah1994

المشفق على من لم يطع له رأياً، ولقد أحسست بعد فوات الأوان بأنني أخطأت التقدير وأن جميع العوامل التي تضافرت في ذهني وسلكت بي طريقاً كنت أعتقد أنه أشرف وأكرم واليق بالمروءة والكرامة إنما كانت سراباً لامعاً يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً وإنما يجد صورة الحياة الخادعة الماكرة تضحك في وجه الأحياء المخدوعين بسرابها الذين يفهمون حقائقها من الكتب المكتوبة وليس من الأمثلة الحية العملية المضروبة، ولكني مع ذلك لم أندم على الاتجاه الذي سلكته فإنه من غير شك أسلم عاقبة وأنقى جواً من تلك الأجواء النى تعبق فيها روائح الأكباد المحترقة والأفئدة الممزقة والكرامة المضرجة بالدماء والنفوس المملوءة بالأهواء، ولقد خسرت كثيراً نتيجة هذا التحول ولكني كسبت راحة النفس وهدوء البال واستقرار الضمير، ولم يعد في حياتي الجديدة أشخاص يخرجون بها من طور إلى طور أو يلونونها بلون غير لونها الطبيعي ولكني أحس في أعماق روحي بأنني مدين لهذه الشخصية التي لن يعود عليها اعترافي هذا بمعروفها بأية فائدة فهي لا تعرف شيئاً عن هذا الاعتراف ولا يعرف القارىء من تكون هذه النفس الكريمة التي أسدت المعروف من غير جزاء.

Twitter: @abdulllah1994

جسْم حَديديّ .. وَقلبٌ رَحيمْ

أما الشخصية الأخرى التي اعترف لها بفضل مشكور وإحسان غير منكور وإن كانت الآن تسبح في عالم الخلود بعيداً عن المادة وأوضارها والحياة الدنيا وآثامها فهي من الشخصيات التي خلقت على طراز مخصوص في الخلقة لتؤدي عملاً يتلاءم أتم الملاءمة مع الهيئة التي خلقت عليها. لقد كان في عمله أتم ما يكون تلاؤماً مع خلقته. جسم عملاق، ومظهر قوي وهيئة بارزة وارستقراطية متماسكة جميعها تكون إطاراً للمهمة التي اختير لها اختاره القدر كما اختاره من أحسن اختيار إسناد عمله إليه فكان الانسجام واضحاً بينه وبين عمله ذكي ـ يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع ـ هو بحكم عمله أحوج ما يكون لأن تتوفر له هذه الصفة، وكان بحكم عمله مركز ثقل وقد تعمد أن يحيط نفسه بهالة من الغموض والروعة حتى لكان أصدقاؤه الخلطاء يخشون شخصه، ويحسون له بمعنى يتجاوز حدود الاحترام، يلقاك أول ما يلقاك بصدر عريض يوحي بالثقة والقوة. لقد كانت

Twitter: @abdulllah1994

العرب ترمز للقوة بكلكل الجمل فيقولون ـ أناخ عليه الدهر بكلكله ـ والكلكل هو النتوء البارز في صدر الجمل، وكما يطحن الجمل أي شيء يقع تحت كلكله حين ينيخ عليه يشبهون مصائب الزمن بذلك. ولقد كنت أحس بأن لذلك الرجل كلكلاً مثل كلكل الجمل لأن القوة المعبرة فيه كانت ممثلة في صدره ولم يكن بريق عينيه بأقل أثراً في نفس من يلقاه من تلك القوة التي يوحي بها صدره، ولكن بريق العين قوة يشترك في التعبير بها كثير من أصحاب النفوس القوية أما التعبير بقوة الصدر فذلك قد يكون تعبيراً عن القوة في صفوف الرياضيين الذين يعنون بتربية عضلاتهم وأجسامهم ولكنه تعبير في الأجسام الرياضية يختلف عن التعبير الذي يوحي به صدر ذلك الرجل فلقد كان معبراً بالقوة التي تدفع الجاني على الاعتراف والمتهم على الانهيار وصاحب الأعصاب القوية الهادئة على البلبلة والتوتر إنها قوة من النوع الذي تحتاج إليها ميادين الصراع، وأعتقد أنه كان يحس بهذه الميزة فيه لذلك فقد كان أول ما يبدو منه ذلك الكلكل الذي يلوح به عند كل لقاء بل ويهوش به أحياناً وإذا كان الناس ينظرون إلى وجوه بعضهم عند المقابلة فلقد كان أول ما يقع عليه نظر الرائي لذلك الشخص هو صدره ثم يتصاعد النظر إلى وجهه بعد أن يكون قد امتلأت عيناه بوحي ذلك الصدر ثم لا تستقر العين على العين حتى يكون الرائي قد أصبح في حالة نفسية ما بحسب طبقته فإن كان صغيراً أحس بالإكبار والإجلال وإن كان

Twitter: @abdulllah1994

مساوياً أحس بالتقدير والتوقير وإن كان أعلى أحس بالثقة والاعتماد وإن كان مذنباً أحس بالهول المرعب والخوف الذي يزلزل الأقدام، لقد أوتي ذلك الرجل جسماً معبراً يتفق مع المهمة التي اختير لها ولقد كان متهماً بأنه يحمل في طيات هذا الجسم قلباً قد من حديد لا يعرف الرحمة ولم يشعر قط بعاطفة ولكني عرفت منه غير ذلك.

أجل فلقد كان إنساناً بكل معاني الإنسانية الحقة. لقد كان يعرف كيف يستعمل إنسانيته وكيف يوزع عاطفته ومتى يجب أن يظهر بمظهر الباطش ومتى يجب أن يظهر بمظهر الرحيم العاقل. وكان عمله يستدعي منه ذلك.

وإن صلتي بهذا الرجل ليست مما تمكنني أن أطوف حولها لأبلغ غايتي من الوصف أو أصل إلى إعطاء صورة عنها فلقد وضعتني الأقدار في قبضته القوية فكانت إنسانيته وحكمته ورجاحة عقله هي كل شفيع لي في السلامة من بطشه ولذلك فإنني لست أستطيع أن أتحدث عن أثره في حياتي ما لم أتحدث عنه بذاته وعن عمله الذي كان سبب اللقاء بيننا على كره مني ولأتمكن من الحديث عنه بالذات يجب أن أتحلل من بعض ما التزمته في كتابي هذا وهو تجنب ذكر الأسماء أما البعض الآخر من الالتزام الذي وصفته بأنني لست أسجل عن الفطرة والطبيعة ولكني أسجل أثر هذه الشخصيات في نفسي... وأصف مشاعري وإحساساتي المستمدة منها والتي تركت أثراً في حياتي الخاصة وكل من ظن أن

Twitter: @abdulllah1994

وصفاً لشخصية من الشخصيات ينطبق عليه أو يقصد به فإنني أعتذر إليه فإنه لا يوجد لأي أحد معين صورة محددة فيما كتبت.

أما هذا الجانب من الالتزام فإنه يأتي بطبيعته **لأنني بصدد وصف الأثر الذي لحقني من هذه الشخصية التي التقيت بها في حياتي والانطباعات التي قامت بنفسي عنها فأنا بذلك أصف الجانب القائم في نفسي ولست أحاول أن أصف حقيقة من أتحدث عنه، إنه قد يكون أبعد ما يكون عما وصفت، وقد يكون كل ما وصفته عنه يختلف كل الاختلاف عن انطباعاته في** نفوس الآخرين ويختلف أيضاً عن حقيقته التي فطر عليها وليس **هذا ما تعرضت له ولذا فإنني أكرر أنني بهذه الصور لست أترجم لأحد بعينه وإنما أعبر عن ذات نفسي، عن مشاعري، عن الأصداء التي أثرت في مجرى حياتي كفرد يعيش في مجموعة وينفعل بها وتتحول اتجاهاته بما تترك تلك الانفعالات في حياته من آثار.**

إنني أجد نفسي مضطراً لأن أنوه باسم هذه الشخصية لأنني سأتحدث عنه بالذات مع عدم الخروج عن المبدأ الذي نوهت عنه سابقاً فهو المغفور له مهدي مدير الأمن العام ولست أعرفه باسمه بالكامل ولكن كل شخص من أهل جيلنا في البلاد السعودية يعرف ذلك الشخص بهذا الاسم معرفته كمعرفة الأعلام البارزة فكما لا يجهل أحد أن أبا قبيس علم على جبل في مكة يعرف أن مهدي علم على رجل حديدي كان مديراً للأمن العام في البلاد

Twitter: @abdulllah1994

السعودية في فترة من الزمن.

لم يكن شخصاً تنبسط النفوس إلى التعرف إليه ولا ترتاح القلوب للقائه أو على أقل تقدير كان ذلك شعوري نحوه وقد علمت من بعض أصدقائي الذين كانوا يعرفون بمخالطتهم الدائمة له أنهم لا يأمنونَ بأسه ويتخذون من صداقته تقية وقد عرفته في مناسبة واحدة ولكنها معرفة جاءت على مرحلتين.

أما المرحلة الأولى فهي أنني كنت وكيلاً على عقار الشريف محمد عبد العزيز حفيد الشريف عون في الحجاز وكنت أطالب بحقوقه ممن يلوون حقه وأدافع عنه وكانت هذه الأعمال بطبيعتها تردني إلى إدارة الأمن العام ولم أكن أتعرض لها بنفسي حتى استدعاني في يوم من الأيام بالطائف وكانت أول مقابلة لي معه وتحدث معي بأسلوب الآمر القوي الذي يريد أن يلزمني الوقوف عند حد. أما ذلك الحد فكان يقتضيني أن أهمل واجبي وأتهاون بالأمانة الملقاة على عاتقي. وقد وجدت من الأمانة أن أنبهه إلى أن التوجيه الذي وجهني إليه أو على الأصح الأمر الذي كلفني به يتنافى مع طبيعة عمله كشخص مسؤول عن القيام على الأمن العام والمحافظة على أن لا يعتدي شخص على آخر في حق ثابت له فيمنعه منه وأرضيت ضميري بالدفاع عن الأمانة المسؤولة مني وانتهى المجلس كما أراد فهو قد أمر ويجب أن أرضخ لأمره أما العرض الذي عرضته عليه فلم يظهر عليه أنه سمع شيئاً مما ذكرت ولم أنس أنني هددته في ذلك المجلس بأن فوق سلطانه

Twitter: @abdulllah1994

سلطان وأن الأمور إذا لم تأخذ حقها من العدالة فإنني سأعرض الشأن على من هو أعلى منه مقاماً. وخرجت وأنا أحس بحال من الضيق ويجب أن أصرح بأنني كنت كذلك أحس بالخوف من بطش هذا الرجل وعناده وتصديه لي بالعداء، ولم يمض ذلك اليوم الذي تم لقائي به حتى زارني صديق كريم هو الدكتور محمد الخاشقجي وأفهمني أنه علم بما وقع من مهدي نفسه ودعاني لمقابلة مهدي في داره وهنا وجدت شخصاً غير الذي عرفته في المركز الحكومي لقد لقيت إنساناً كبيراً ولكنه لطيف وحكيم فنصح لي نصيحة المجرب الخبير وخرج بنصيحته بشيء من الثناء عليّ ووعد بمساعدتي في المهمة التي كانت مجال البحث وكان من ضمن نصحيته لي أن أتخلى عن هذا العمل وأن أقلع عن كل علاقة لي بهذه العائلة ولم أكن أفهم سر هذه النصيحة ومضت الأيام سريعة وقصيرة وجاء اليوم الذي عرفت فيه هذا الرجل بحقيقته. عرفت فيه إنسانيته ورجاحة عقله وحسن معالجته للأمور وعند هذا الحد انتهت المرحلة الأولى من التعارف.

لقد كنت موظفاً في وزارة المالية وكان عملي ينتقل إلى الطائف في الصيف مع الوزارة حيث أقضي أربعة أشهر على الأقل بعيداً عن مكة وكانت إدارة هذا العقار في مكة يمثلها موظفون على رأسهم شخص كان موضع ثقة بعض أبناء المالك لهذا العقار والذي كان معتوهاً ومحجوراً عليه وكان يدير هذا العمل أثناء تغيبي في الطائف وكان من ضمن أملاك المحجور

Twitter: @abdulllah1994

عليه دار في الطائف ألح المستأجر لها في طلب عمارتها ودارت بصدد ذلك معاملة رسمية انتهت بتكليفي بالعمارة ولم يكن بصندوق هذه الوكالة المال الكافي لإجراء العمارة كما لم أكن أملك حق إنفاذ العمارة لأن المالك محجور عليه ومقيم في الأراضي المصرية وعليه قيم منصوب من المجلس الحسبي في مصر وكان يجب لصرف شيء من ماله في أي وجه من الوجوه أن تتوفر المستندات الموجبة للصرف وتقدر المبالغ المطلوب صرفها وتعرض بواسطة القيم المصري على المجلس الحسبي لأخذ الموافقة على الصرف. ولكن هذا الموضوع كانت له ملابسات أخرى فإن الشخص الذي يسكن الدار كان شخصاً مرموقاً فأردت مساعدته بأن التمست صدور أمر من الحكومة السعودية لي بإنفاذ العمارة ليكون سنداً لي في إنفاذها وبذلك اختصر الإجراءات الطويلة وبعدئذ أسعى في تدبير المال اللازم لها. وقد صدر الأمر وكان علي أن أنتقل إلى مكة لتدبير المال وكنا في الأيام الأخيرة من شهر رمضان وانتقلت بعائلتي إلى مكة حيث قضيت أيام العيد في بهجة وسرور لاجتماع شملي بجميع أقاربي هناك وفي رابع يوم من أيام العيد ذهبت إلى المسجد الحرام لأصلي المغرب ومعي ابني عدنان وقد كان إحساسي بالغبطة في الذروة، وكان ذهابي للمسجد إنما هو شكر لله على نعمة الولد وراحة البال واستقامة الأمور. وما أن عدت من صلاتي حتى التقيت بشخص من معارفي ينتظرني في داري وهو في حالة قلق باد، وذكر لي أن مهدي جاء إلى داري

Twitter: @abdulllah1994

وسأل عني فلما لم يجدني أقام فترة من الزمن في غرفة الاستقبال ووجه إليه بعض أسئلة تخصني ثم خرج بعد أن ذكر له أنه إنما جاء ليهنئني بالعيد ويطلب إلي الاتصال به تليفونياً فور عودتي.

لقد فهمت أن الزيارة لم تكن للتهنئة بالعيد فلم يتعود مهدي زيارتي في مناسبة كهذه وليس بيني وبينه من الصلات والمجاملات ما يجعله يفعل ذلك ولكني عرفت أنه اطلع على أمر كنت أحب أن يطلع عليه من غير طريقي. وهو أنه حين علم الموظف الذي كان يدير الإدارة أثناء غيبتي في الطائف بعودتي إلى مكة جاء إلي مع أصدقائه من أبناء المالك ليكاشفوني جميعاً بأنه قد تصرف في المبلغ الموجود في عهدته من مال الإدارة ـ صرفه في علاج والده المريض ـ وأنه تعهد بأن يعيده خلال فترة قصيرة وأن أبناء المالك يضمنونه في ذلك ويستشفعون له عندي حتى لا أبلغ الأمر للجهات الحكومية ولكن الموضوع لم يكن بالدرجة التي يتصورها الشفعاء من البساطة فقد كان صندوق الإدارة محجوزاً بالشمع الأحمر من إدارة الأمن العام بسبب النزاع القائم بين أبناء المحجور عليه وقد لفت نظرهم إلى هذه الناحية الخطيرة في الأمر، ولكنهم تعهدوا لي أيضاً بأنهم سيسوون الأمر مع الجهات المسؤولة وكنت أحس بأنهم يستطيعون ذلك. وقد نظرت إلى الأمر من هذه الزوايا.

ليس المبلغ المبدد ذا بال وإن التسامح الذي أظهره أصحاب المال سيظهر تشددي في الوقف بمظهر القسوة وتعمد الأذى. إن

Twitter: @abdulllah1994

المال سيعود وتسوي مشكلة فض الحجز كما تعهد أصحاب المال وبذلك فإن الخطأ كأنه لم يكن.

إن الأيام التي علمت فيها بحدوث هذا الأمر أيام عيد ومن المروءة أن لا أشوه وجه هذه الأيام بالإبلاغ عن الحادث لما يترتب على ذلك من أخذ الجاني بجنايته..

وهكذا تضافرت عوامل شتى جعلتني أتجاهل العلم بالحادث حتى يتم تداركه بين الجاني وأصدقائه من أبناء المالك وقد أنذرتهم بأنه إذا مضت فترة العيد ولم تسو المشكلة فإنني سأبلغ عنها للجهات المختصة. وماذا سيكون جرم الجناية - إن المهم فيها هو الاعتداء على الحجز الحكومي أما المال المبدد وعملية التبديد فإنها لم تكن ذات بال لضآلة المبلغ وتفاهته.

وحين علمت بأن الشخص الجاني كان في سيارة مهدي أثناء زيارته لي في داري شعرت بشيء من الراحة إذ علم بالحادث عن غير طريقي. وقد سارعت في العودة لمقابلته وكان ذلك بعد صلاة المغرب وقد أخذ الليل يلف كل شيء بردائه الأسود المظلم وحين دخلت على مهدي وجدته في صورة شيطانية متجهمة، ولم يكن الرجل الأنيق الرصين الذي يتحكم في حركاته وأقواله ونظراته بل كانت ملابسه مغبرة وعلى وجهه قتر وهم وانفعال شديد، وكانت أول كلمة ألقى بها في وجهي «هذا هو الذي أخذ المال من الخزينة ؟ مشيراً - إلى الجاني».

Twitter: @abdulllah1994

فقلت له ــ نعم !!

قال ــ أو تعلم ذلك ؟

قلت له ــ نعم ! ! !

قال ــ ولماذا لم تخبر الحكومة ؟ نشرحت له الأمر كما وقع في اطمئنان الواثق من نفسه، وكنت أنظر إليه وهو يحدجني بنظراته كأنما يريد أن ينفذ إلى قلبي ليجد ما إذا كان فيه سر أخفيته عنه، وقد أردت أن أريحه من عناء البحث وأوفر له الوصول إلى هدفه فقلت له:

«إن الأمر ليس ذا بال فإن المال لم يكن كنزاً دفيناً وإنما هو مبلغ حقير لا يستوجب كل هذا الاهتمام والجاني معترف بجنايته، ويشاركه في العلم بها أبناء صاحب المال الذين يعتبرون في حكم المالك له وهم متعهدون بتحمل السؤولية في هذا الأمر تحملاً تاماً. وطلبت منه أن يخلد إلى السكينة لتستبين له الأمور على حقيقتها. وكنت أظن بحديثي هذا أنني أقدم له خدمة ومساعدة ليرتاح من التوتر الذي رأيته عليه. ولكني أحسست أنه بعيد عن التجاوب معي والاصاخة إلى أنه مفعم الإناء فلم يكن حديثي له يجد محلاً في نفسه، وأحسست أن نظرته الصارخة إليّ استحالت إلى لون من الرثاء والعطف. بل قد أهملني إهمالاً تاماً فترة من الوقت اشتغل فيها بأمور وترتيبات أحسست بوجودها ولم أكن أعرف حقيقتها. ثم طلب إلي مرة أخرى أن أذهب معه إلى

Twitter: @abdulllah1994

المكتب الذي وقع فيه الحادث. وقد كانت حالة المكتب من الفوضى والاتساخ تثير النفس وقد بلغ منه الانفعال ذروته فأخذ يصرخ في وجهي أهكذا تكون حالة المكاتب فلم أتمالك نفسي حين رددت عليه لقد كنت في الطايف ولم أتردد على المكتب منذ أربعة أشهر وهذه مسؤولية الفراش والموظفين الذين كانوا يترددون على المكتب فينبغي أن يوجه السؤال إليهم. وفي فترة قصيرة قاسية مريرة تمت مراجعة حسابات الخزنة وتبين مقدار ما كان فيها من نقد وعدنا إلى إدارة الأمن العام. وقد سألته إذا كان يلزمني البقاء أو يسمح لي بالعودة إلى داري - وكأنه لم يكن يتوقع مني هذا السؤال بمقدار أنني لم أكن أتوقع أن يطلب مني البقاء فنظر إلي في جد واستغراب ثم سألني:

وهل تريد الذهاب إلى البيت؟

سكت: ولم أفهم ما يعني، أفلا يريد كل إنسان أن يعود لداره ولا سيما بعد مفاجآت كالذي حدث، وماذا يعنيني أنا من كل ما حدث. إنني لم أحمل مفتاح الخزنة ولا علمت بشيء مما وقع حين وقوعه. وحين علمت به لم يبد لي في مجموعه أكثر من رجل ارتكب خطأ يستحق عليه عقوبة محدودة إذا لم يصاحبه حسن الحظ ويظفر بالعفو أما المال المسروق فلم يكن يشغل بالي لحقارته. ولأن الجاني نفسه قد يكون يستحق أكثر منه مقابل خدماته في هذا المكتب ومما يزيد في الاستهانة بشأنه أن أبناء

المالك ذكروا لي أن الجاني إنما بدد المبلغ تحت ظروف قهرية لعلاج والده المريض وأخذوا يعتذرون عنه.

لقد لمعت في ذهني كل هذه الخواطر حين سألني مهدي عما إذا كنت أريد الذهاب إلى بيتي فسكت لأنني لم أفهم المراد من هذا السؤال، ولكنه سبقني إلى الإجابة بقوله ـ أجل ـ يمكنك أن تذهب!!

وقد خرجت وأنا في حالة نفسية غامضة، لم أعرف كيف قطعت المسافة مشياً من إدارة الأمن العام إلى المنزل ولا في أي مدة من الزمن قطعتها ولكني أعرف أنني كنت أفكر طول الوقت لماذا يلجأ بعض الناس إلى تعقيد الأمور وتهويلها لا شك أنهم يصطادون في الماء العكر كما هو المثل وأعني أنهم يهولون من الأحداث ليظهروا على شاشتها بطولتهم. إنه لا يمكن لمهدي أن يظهر بمظهر المحنك البارع في كشف الجرائم ما لم يخلق حولها جواً من الأهمية والخطورة ليبدو أنه عمل عملاً عظيمًا لأمن الأفراد وسلامتهم وليبدو في نظر ولاة الأمن ونظر الآخرين بأنه إنما يقوم بدور خطير يستحق به أكاليل الغار. وقد تمثلت لي شخصية هذا الرجل في صورة شيطان تافه يعيش على الرمم التي يرميها القدر بين يديه، وأذكر أنني لم أنم تلك الليلة كلها تصورت أن مقاليد الأمن في البلد تلقى إلى رجل ينفخ في صور الأحداث التافهة حتى يخلق منها مشاكل وجرائم خطيرة يقلق بها أمن الآمنين ويشوه وجه الحقيقة في سبيل غاية شخصية.

Twitter: @abdulllah1994

ولكني بعد أن عرفت الحقيقة في اليوم الثاني استغفرت الله لظن السوء الذي سبقت أوهامي إليه بخصوص ذلك الرجل الكريم. فقد فهمت في اليوم الثاني من أفواه الناس أن الأمر ليس مجرد فض أختام خزينة ولا سرقة مبلغ تافه ولكن هناك أفكاراً هدامة خبيثة تختبىء وراء ذلك العمل الحقير، هناك مكيدة تدبر ضد أمن البلدوسلامتهاولقد أحسست نفوراً من جميع معارفي وكان أحدهم حين يراني يتجاهل وجودي وتبينت كم كان مهدي حكيمًا وكريماً وحليمًا في معاملته لي بذلك الأسلوب الذي لم يجرح به إحساسي ولم يدخل الرعب إلى نفسي. بل لقد كان كريماً حين احتمل مني الأسلوب الذي كنت أتحدث به إليه طوال تلك المقابلة.

ولقد أضفت هذه الصورة الطيبة المشرقة لهذا الرجل إلى الصورة الأولى في ذهني حين لقيني في داره متلطفاً ونصح لي بتجنب هذا العمل وتجنب أصحابه أيضاً وقد فهمت عندئذ السر الذي من أجله كان يريدني أن أضع حداً لعواطفي نحو هذا العمل وأصحابه وشكرته في سري وأكبرته بكل قلبي.

ومضت أيام انطلقت فيها شياطين الشر واشتغل الناس بالخوض في هذا الموضوع وألهبوه بخيالهم وزجوا بي في لجته، وقد أحسست بأن كل شيء حولي قد تغير وأن عيون الناس تحاصرني بنظرات تدعو للقلق وقد وجدت أن خير ما أفعله هو أن أتجاهل هذا الإحساس الذي يغمرني. والشعور الذي أجده على وجوه

Twitter: @abdulllah1994

الناس وفي عيونهم وأن أمضي سيرتي الأولى كأني لا أعلم من هذا الأمر الذي يخوض فيه الناس شيئاً.

وقد استدعى هذا الأمر مقابلات عديدة مع هذا الرجل استدعاني لاستجوابي في الشأن نفسه وحرص أن يفعل ذلك في مكان أدعى للاطمئنان والمؤانسة ـ دعاني لمدرسة دار الأيتام ـ وكان حليمًا وكريماً في كل تصرفاته، وكان لا يفوته في هذا الموقف أن يرفع من معنويتي بشيء من العطف والثناء، وحين صدر الأمر بسجني تلطف في إبلاغي الأمر كما يتلطف الوالد الرحيم بولده حين يقرر إجراء عملية جراحية له، وبالغ في تلطفه حين أمر بنقلي إلى السجن في سيارة وكلف موظفاً من كبار موظفيه أن يصحبني وأن يوصي مدير السجن بي خيراً ولم يفته أن يزورني هو نفسه بعد أسبوع من دخولي السجن لمؤانستي ولم يفته أيضاً أن يأمر بتخصيص غرفة خاصة بي وأن لا يمنع أحداً من زيارتي وأن أزود بما أحتاج إليه من الكتب والعلاج وكل ما يوفر لي راحتي، وحين صدر الأمر باطلاق سراحي حضر إلي في السجن ليبلغني العفو بنفسه وكان معه الدكتور محمد الخاشقجي وقال لي لقد كان الأفضل أن ينقل إليك هذا النبأ السار واحد من أهلك ولكني حرصت أن أبلغك بنفسي أمر العفو كما بلغتك أمر السجن.

ولقد أحسست بأن هذا الرجل الذي كان ينتظر منه أن يكون مصدر المحنة والفزع بحكم مركزه وعمله كان ملاك الرحمة والإنسانية وأنه أسرني بفضله، ثم تبينت بعد ذلك أن إنسانيته لم

Twitter: @abdulllah1994

تقتصر عليّ بما خـفف عني من بلاء ولكنها شملت كثيرين غيري فجنبتهم الانجذاب في تلك الدوامة التي كان يمكن أن تلف في صخبها الكثيرين لقد كان المتهمون على اتصال واسع بكثير من الناس ومن شأن مثل هذه التهم أن يتطاير شررها عن قرب وعن بعد ولكنه استطاع أن يخمد نارها ويطفىء أوارها باتزانه وحكمته وحسن تصرفه، ولقد أحببت هذا الرجل حباً جماً، وأحسست بأن إنسانيته قد عصمتني من كارثة أوشكت أن تطيح بي وتهد أعصابي وتغير مجرى حياتي. ولقد عرفت من مواقفه في كثير من الحوادث أنه كان يعالج الأمـور بعقل واع وحلم وحسن تصـرف وكان بذكائه يسبق التحقيق في القضايا فكم من بريء أدانه التحقيق لعجزه وحصره فاكتشف هذا الرجل براءته بذكائه، وكم من مجرم استطاع بأسلوبه وقدرته أن يهرب من وجه العدالة ولكنه لم يفلح في الهرب من قبضته حتى لقد أطلق عليه جلالة الملك عبد العزيز لقب (المصلح) وأعتقد أن هذا اللقب إنما أطلقه عليه الملك لما لمس من إصلاحه للأمور، ولعل هذا اللقب في حد ذاته غريب بين ألقاب الشرف التي تطلقها الدولة كما هو غريب بين جميع الألقاب التي تطلق للتكـريم، ولكنه اللقب الـذي يلائم كـل الملاءمة ذلك الرجل بالنسبة لمركـزه وعمله والطريقـة التي كان يعالج بها الحوادث، وقد أطلقه عليه من كان أعرف الناس به إنها كلمة جامعة لسيرة وتاريخ رجل طافت في فلكه أحداث كثيرة في فترة طويلة من الزمن ولقد أدخل الملك عبد العزيز هذا الرجل من حاشيته بهذا اللقب في سجل الخالدين.

Twitter: @abdulllah1994

رجَالٌ.. وَرجَال

رسالة لم تتم، وحلم ذهبي لم يتحقق، وغاية نبيلة حالت دون بلوغها نفوس صغيرة وأطماع حقيرة. لقد كانت أهداف هذه الرسالة كالآتي:

(١) تنظيم العلاقات الاقتصادية بين الجمهورية العربية المتحدة والبلاد السعودية والاستفادة من الوعي والتجاوب القائمين في هذا الميدان واستثمارهما استثماراً إيجابياً.

(٢) توجيه الأموال السعودية والمصرية في البنك السعودي بمصر، والأموال المصرية والسعودية في البنك المصري بالسعودية لصالح البلاد العربية والأمة العربية.

(٣) استثمار الروابط التي تربط بين البلدين مع التوجيه السديد التي يوجهها في طريقه كل من جلالة الملك سعود والرئيس جمال عبد الناصر في الحقل الاقتصادي والاجتماعي حتى يتكون اكتفاء ذاتي بين هذين البلدين جهد المستطاع. وقد أعلنت

Twitter: @abdulllah1994

هذه الرسالة في خطاب افتتاح البنك الأهلي التجاري السعوي بالقاهرة الذي أثبت نصه فيما يلي:

سيدي الرئيس.

حضرات السادة:

أشكر لكم تفضلكم بتلبية هذه الدعوة وأعتقد أن الوعي القومي العربي قد بدأ يتفتح عن ثماره اليانعة الشهية، وقد بدأت نتائجه تظهر في مشاريع وأعمال جدية وليس البنك السعودي حين يفتح فرعه في الجمهورية العربية المتحدة أو البنك المصري حين يفتح فرعه في المملكة السعودية إلاّ أصداء متجاوبة لهذا الوعي وإلا شعوراً قوياً بالاضطلاع بالمسؤولية الاقتصادية العامة في البلاد العربية ودعمها وتوحيدها وبناء البلاد العربية والأمة العربية بناء قوياً كاملاً موحداً وتوجيه الأموال العربية لصالح البلاد العربية والأمة العربية واستعمال هذه الأموال فيما يعود على الصالح العربي العام بالخير.

فالبنك السعودي في الجمهورية العربية المتحدة يعني تسخير الأموال السعودية المقيمة في الجمهورية العربية المتحدة لجميع المشاريع الصالحة لها والمساهمة في بنائها وإنعاش اقتصادياتها وعمرانها شأن الأخ الشقيق يساهم في رفع المستوى الحيوي بالنسبة لأخيه الشقيق وإذا أمعنا النظر بعناية في الروابط التي تربط الآن بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة السعودية والتوجيه

Twitter: @abdulllah1994

السديد الذي يوجهانها في طريقه كل من جلالة الملك سعود والسيد الرئيس جمال عبد الناصر نجد أن المصالح المشتركة بين البلدين سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية وكذلك أهدافهما العليا قد تبلورت في وحدة كاملة شاملة وأن جميع القوى المادية والمعنوية قد حشدت لتعمل من هذه الوحدة بناء شامخاً عالياً يمثل صرح العروبة المجيد ومجدها العتيد. ولتعمل أيضاً على محاولة الاكتفاء الذاتي للبلاد العربية جهد المستطاع بما توفر لها من كفايات وليس أدل على ذلك من القفزات السريعة التي تقفزها أرقام قيمة الصادر من منتجات الجمهورية العربية المتحدة إلى المملكة العربية السعودية ما يبشر بنجاح سياسة الاكتفاء الذاتي إلى حد بعيد، فقد بلغت جملة صادرات منتجات الجمهورية العربية المتحدة إلى المملكة السعودية في سنة ١٩٥٤ مليوناً وثمانمائة ألف جنيه مصري. ثم قفزت دفعة واحدة في عام ١٩٥٥ إلى تسعة عشر مليون وتسعمائة ألف جنيه مصري ولا شك أن جملة عام ١٩٥٦ ستطالعنا بما هو أفضل وبمعنى أوضح أن المملكة العربية السعودية أصبحت سوقاً مفتوحة واسعة للمنتجات المصرية التي تنتجها أرض مصر المباركة وتصنعها الأيدي المصرية الكادحة وأن المملكة السعودية بفضل توجيه مليكها المؤمن بعروبته والمؤمن بوحدة العروبة وطناً وشعباً وماضياً ومستقبلاً قد أخذت تعتمد على شقيقتها الكبرى الجمهورية العربية المتحدة فتحل صناعتها المحل المفضل وتفسح لتجارتها أبعد مدى تستطيع السلع المصرية أن تحتله من الأسواق السعودية.

Twitter: @abdulllah1994

والبنوك يا حضرات السادة كانت ولا تزال السبب الأول والأهم في ربط مستقبل الأمم بعضها ببعض وتوسيع علاقاتها وتوجيه مصالحها في اتجاه واحد. وكما كانت وسيلة لمثل هذا الخير والبركة بين الأمم الشقيقة الصديقة فإنها كذلك الوسيلة لهدم الأمة وتفريق شملها ودك جميع مقوماتها متى كانت بروح استعمارية عدائية وبهذه المقارنة السريعة الموجزة تظهر لنا حكمة وسداد الروح التوجيهية العليا التي تتوجه بها مصر والمملكة السعودية.

ولقد تحمل البنك السعودي ـ الذي تشاركوننا اليوم افتتاحه بيمن طالعكم ـ هذه الرسالة الأخوية العربية الصادقة وسيعمل جاهداً على تحقيقها.

وإن من حسن حظ هذا البنك أن أعلن قرار افتتاحه السيد وزير المالية السعودية الشيخ محمد سرور الصبان ومصر تعج بفرحة إعلان الدستور كما أعلن افتتاحه عملياً على يد السيد وزير المالية للجمهورية المصرية والبلاد تستقبل عيد الجلاء، وإنني أشعر بمنتهى الغبطة والسعادة إذ كان فألنا في تحقيق هذه المؤسسة فأل مسرات وأفراح قومية وإن الشعب السعودي قد شارك شقيقه المصري في أعياده ومسراته القومية بهذا النصيب.

* * *

ولكن الرسالة لم تتم. وهذه هي القصة بكاملها....

Twitter: @abdulllah1994

بأبطالها... برجالها الكبار... الذين يستطيعون البناء.

وبرجال آخرين... لا يطيقون الحياة في النور.

وسأحكي القصة بصراحة تامة وبأسماء أصحابها وسأحكيها بأمانة وإخلاص وسأنصف أناساً أخلصوا في أداء دورهم في هذه الرسالة وكان جزاؤهم جزاء سنمار الذي أسقط من البناء بعد أن أحكم تشييده وأعلى بنيانه.

إنها تبتدىء في اليوم الذي التقيت فيه بالشيخ سالم بن محفوظ بجدة في إدارة البنك الأهلي التجاري وكنا ندرس موضوعاً يختص بمحلنا التجاري هناك فذكر لي أنه قرر إنشاء فرع للبنك بالقاهرة وأنه رشحني لتأسيسه وإدارته. وقد شكرته على ثقته وانتهى المجلس ولم يبق لهذا الحديث في نفسي إلا ظل كظلال الأماني ولم آخذ الأمر مأخذ الجد لأنه من ناحيته كان حديثاً عابراً ومن ناحيتي يتعارض مع نشاطي التجاري في القاهرة. لقد كان نشاطاً غير محمود العاقبة خسرت فيه كثيراً من المال والوقت كما خسرت بسببه صحتي ولكني كنت مشغولاً به حتى القمة ولم أكن أتصور أنني أستطيع التفرغ لأي عمل آخر دونه حتى أصل به إلى قرار.

وبعد شهور قليلة أعاد الشيخ سالم بن محفوظ عرضه بأسلوب جدي وطلب مني الموافقة على ترشيحه وبينما كان يعرض علي الأمر في حدود تصوره انتقل ذهني إلى أفق بعيد... بعيد جداً... إلى الأموال السعودية العريضة المودعة في شتى البنوك في

Twitter: @abdulllah1994

القاهرة لا تجد توجيهاً نافعاً... إلى العلاقات الطيبة التي تنمو بسرعة بين الحكومة السعودية والحكومة المصرية... إلى العدد الهائل من السعوديين الذين يقيمون إقامة مستمرة في القاهرة... وإلى أضعاف ذلك العدد الذي يتردد عليها في كل يوم... إن كل هذه الانفعالات والعواطف والروابط تحتاج إلى استثمار وتوجيه وصيانة وتنمية صحيحة ـ وتصورت أنني أستطيع أن أقوم ببعض هذه الرسالة بحفنة يسيرة من المال يضعها الشيخ سالم بن محفوظ في يدي فأكتب عليها اسمًا سحرياً هو (السعودي) فأسميه (البنك الأهلي التجاري السعودي بالقاهرة) وتتم المعجزة.

لقد لمعت كل هذه المعاني في ذهني كلمح البرق الخاطف ولم يردني عن تصوراتي السعيدة هذه إلا صوت الشيخ سالم يسألني الإجابة عن طلبه فقلت له لا شك أنني أشكرك على أن أتحت لي هذه الفرصة السعيدة ولكن الأمر يحتاج إلى موافقة شخص آخر ـ شخص كبير ـ وله في هذا الأمر دور خطير... إنه وزير المالية الشيخ محمد سرور الصبان.... فقال لي إنه موافق فقد عرضت عليه الأمر فوافق عليه... فقلت له ولكني أريد أن أعرضه عليه أنا... وقد كان أسرع مني إلى تحديد موعد للمقابلة معه لعرض الشأن عليه واجتمعنا في مكتب الوزير وتحدث الشيخ سالم إليه نفس الحديث الذي ذكره لي، وكان جواب الوزير أنه يبارك الفكرة ويتمنى له التوفيق. وقد أحسست أنه بذلك قد نفض يده من الموضوع ـ واعتبره شأناً من الشؤون الشخصية يتحدث عنه

Twitter: @abdulllah1994

صاحبه ولا يكلف السامع نفسه أن يتبين حقيقته وماذا يعنيه من أمر رجل ثري يريد أن يستعمل ماله في أي وجـه من وجوه النشاط التجاري ولعله عبر عن تمنياته الطيبة بصورة عابرة كالكثير من التعابير التي نطلقها في الهواء دون تفكير ولا اهتمام. وقد أحسست بالصدمة ـ صدمة اللا مبالاة بالأمر ـ تهز كياني فالأمر كما تصورت أنه ليس من الأهمية بحيث يعلق الوزير المسؤول عليه أي تعليق حتى لو كان تعليقاً يشعر بأن هذا العمل سيكون نافعاً ولم أتمالك نفسي حتى قلت:

يا معالي الوزير ـ إن الشيخ سالم بن محفوظ عرض عـلي تأسيس فرع للبنك الأهلي التجاري بالقاهرة فإذا كان ما يريده هو أن يقتطع جزءاً من ماله ومال شركاته في هذا البنك ليستعمله في أعمال المصارفة في القاهرة باسم بنك فهو عمل يمكن أن يسند إلى أي شخص غيري وإني أعتذر عن القيام به، وإذا كان هذا المال هو عبارة عن مال سعودي غير منسوب لأصحابه وإنما هو منسوب للبلد التي يحمل جنسيتها ويستعمل في إنشاء بنك في القاهرة ـ المدينة العظيمة التي تعرف أنت ـ يا معالي الوزير ـ كم من الأمـوال السعوديـة متجمدة في بنـوكها ـ وتعلم أيضـاً أن العلاقات الاقتصادية بينها وبين السعودية تقفز يوماً عن يوم وهي بذلك تحتاج إلى تنظيم وتوجيه وسياسة حكيمة، وتعلم أيضاً ما يعانيه السعوديون في مصر من مشاكل مالية يتجلى أثرها في إصدار البضائع وتحويل العملة والعلاقات الجمركية وكل هذا يحتاج إلى

Twitter: @abdulllah1994

إدارة تحميهم وتنير لهم الطريق لسلامة أعمالهم ثم هناك العلاقات المالية التي تهم الحكومة نفسها وتحتاج إلى تمثيل وجهاز يتحمل المسؤولية. فإذا كنت يا معالي الوزير ـ بصفتك وزيراً للمالية ـ راغباً في أن يؤسس البنك ليقوم بكل هـذه الأعمال ويكـون مشمولاً برعايتك وتوجيهك فانني اعتبر أن هـذه خدمـة وطنية شريفة وأنني مستعد للتضحية بمصالحي الشخصية للقيام بها. إنني أجند نفسي لهذا الشرف العظيم.

لقد أحسست أن الوزير لم يكن يتوقع أن يسمع مني ما سمع، ولكنه بما وهب من ذكاء خارق وعقل كبير قد استوعب الأمر بأوسع مما تصورت وقال لي إنني أوافق على ذلك ومستعد لتقديم جميع التسهيلات والمساعدة. ولكني أحسست أيضاً أنـه يضمر شيئاً تنم عنه نبرات حديثه، لقد تصور الأمر تصوراً كاملاً وأحس بأنه ليس من اليسير تحقيقه ولذلك فإنه وعد بالمساعدة إذا كان كل ما أتصوره لنجاح الأمر هو مجرد مساعدته، ولقد كنت في حالة من النشوة والزهو بحيث لم أتصور أن أي حائل يمكن أن يقف في طريق نجاح هذا الأمر. وجمعت أمري بعد خروجي من هذا الاجتماع وعدت إلى القاهرة وكل ما أحمله في يدي صك تفويض مطلق من الشيخ سالم بن محفوظ بتأسيس وإدارة البنك وإنني في هذا الأمر أقوم مقام نفسه بكل صلاحياته كمدير عام للبنك الأهلي التجاري.

ولما استقررت في القاهرة انصرف ذهني إلى أربعة أمور.

Twitter: @abdulllah1994

١ ـ أن أختار الأعوان الذين يقومون بمساعدتي على بناء هذه المؤسسة على أتم ما تكون.

٢ ـ أن أخلق الجو الصالح لها بتأسيس علاقات طيبة مع الجهات المختصة في الحكومة المصرية وأسرة البنوك.

٣ ـ أن أختار الشخص الذي أطمئن إلى فهمه لهذه الرسالة ليساعدني على إكمالها ويتحمل عني إنفاذها إذا شغلني شاغل عن الاستمرار في القيام بها أو عجزت عن ذلك.

٤ ـ أن أصرف في التأسيس أقل مصرف لأرضي به أصحاب المال بشرط أن لا يضر ذلك التوفير بالمظهر المشرف للبنك.

وقد توفقت في اختيار الأعوان وإنني أخص منهم بالتقدير والثناء:

السيد / الدكتور أنطوان صفير المحامي.

السيد / عبد المنعلم خليل ـ خبير العدل.

السيد / محمد مصطفى مساعد مدير مراقبة النقد.

السيد / محمد علي السلاب ـ رئيس حسابات بنك مصر.

مسيو جورج باشي ـ سكرتير شركة الكوكا كولا ـ وقد كان قبل ذلك من كبار موظفي البنك العثماني.

أما الدكتور صفير فإنه رجل كريم الأخلاق رضي النفس عالي الهمة محنك بحيث يصدر في آرائه وكأنما يقرأ في كتاب.

Twitter: @abdulllah1994

صقلته التجارب حتى أصبح ينفذ من كل أمر إلى الصميم. ولقد تبنى هذه الفكرة واحتضنها وتحمس لها وسخر لها نفسه كما استعمل علاقاته الطيبة بشخصيات كبيرة حتى جعلها مستعدة لأن تساهم في النجاح بهذا المشروع. لقد رتب إنشاءه من الناحية القانونية وساهم في جميع أدوار التأسيس واختيار الأثاث والتنظيم الداخلي. وقبل ذلك شارك في البحث عن المكان الذي سيتخذ مقراً للبنك على نفس المبدأ (الاقتصاد والكمال) وأسرف في وقته حتى ليكاد يظنه من يراه متفرغاً لهذه المهمة أنه ليس لديه عمل آخر يشغله ـ وأنا أعرف أعماله في شركة سكوني فاكوم، وفي مكتبه الخاص وبالنسبة للشركات الأخرى التي تعتمد عليه في استشارتها ـ أعمالاً لا يكفي أن توصف بأنها مرهقة فهي بعد حد الإرهاق بمراحل ولكنه منظم في تفكيره ويعرف كيف يوزع هذه الأعمال على أعوانه وموظفيه، ومع ذلك فقد تفرغ للأعمال التأسيسية في هذا البنك حتى لقد كان يولي أتفه أموره مزيداً من العناية والاهتمام وقد اشترك في رسم الخطوط العريضة لسياسة البنك لتتمشى مع المبادىء التي نوهت عنها ولقد تحدث مع شخصيات كبيرة ليتكون منها المجلس الأعلى لإنفاذ تلك السياسة، إنها شخصيات من طراز القوى العليا الموجهة للاقتصاد في البلاد العربية وقد وافقت أن تعير إخلاصها ومواهبها لتحقيق هذه الرسالة العظيمة. ولقد أدركت منذ خطوات العمل الأولى أننا بحاجة إلى تدعيم البنك بخبير في قوانين النقد، وخبير في

Twitter: @abdulllah1994

الأنظمة التجارية التي يجب أن تتمشى الأعمال بموجبها لنتجنب الوقوع في خطأ من الأخطاء وقد لمست في السيد محمد مصطفى ـ الذي كنت أتردد على مراجعته في مراقبة النقد لتذليل العقبات التي صادفتنا في فترة التأسيس بصفته وكيلا لهذه الإدارة ـ لمست فيه اطلاعاً واسعاً بقوانين النقد وفهمًا تاماً لشؤونه إلى جانب الشخصية الرزينة الهادئة الوقورة وقد علمت أنه أوشك على الإحالة على المعاش لبلوغه السن القانونية وأنه يميل إلى الراحة ليقضي فترة شيخوخته الناضجة في هدوء واستجمام فاصطفيته ليساعدني في تحقيق هذه الرسالة، ولقد كان كريماً بتقبل دعوتي وكان لا بد لتحقيقها من التماس للسيد / أحمد نبيه يونس وكيل وزارة المالية المساعد للشؤون الاقتصادية ليساعد على قبول إحالته على المعاش حتى يتمكن من التفرغ للعمل معنا، وقد اتصلت بالسيد نبيه الذي لمست من أول مقابلة لي معه أنه فتح لي صدره وشجعني على عرض جميع شؤون البنك عليه ليس في حدود موضوع السيد محمد مصطفى بل في جميع الشؤون كمنح البنك صلاحية التعامل في النقد الأجنبي وغير ذلك من الشؤون التي كان يهمني تحقيقها ليتمكن البنك من القيام بجميع الصلاحيات التي تلزمه، ولقد لمست من السيد نبيه أنه كان على أتم الاستعداد لتقديم جميع المساعدات لتحقيق الرسالة التي شرحتها له وزاد على ذلك أن كاشفني بأسرار تتعلق بتصرفات السعوديين وطريقة معالجة الجهات المختصة لها وقدم لي نصائح ثمينة كنت بأشد الحاجة إليها في تلك الظروف وقد وجدت نفسي مضطراً لأقدم

Twitter: @abdulllah1994

تقريراً مسهباً بهذا الحديث لوزير المالية السعودي ـ وقد ضمنت بضم السيد مصطفى إلى أسرة البنك السلامة من وقوع أي خطأ في أعمال البنك وأن تتم جميع أعماله وفق الطرق القانونية السليمة.

كما لمست أن هذه المؤسسة الجديدة ملتقى طمع الطامعين وليس لديها الخبرة الكافية لتمييز العملاء الصالحين للتعامل من غيرهم ولا يوجد لديها استعلامات تكفل لها حسن اختيار العملاء وأنه لا بد من وجود خبير بالقوانين المالية وقد وجدت الشخص الصالح لملء هذا الفراغ بعد البحث والعناء إنه خبير في وزارة العدل واقف بحكم وظيفته على كثير من الأسرار التجارية وأحوال المؤسسات كما أنه فقيه بالقوانين المالية فكتبت إلى وزارة العدل ألتمس إعارة خدماته للبنك وقد أجابت طلبي بالموافقة وبعدها شعرت بالتركيز الكامل والقوة بعد انضمام السيد عبد المنعم خليل إلى أعضاء أسرة البنك كما أحسست بأن جميع الأعمال أصبحت تدرس بواسطة كفاءات علمية عالية سواء من الناحية القانونية أو المالية أو أنظمة النقد.

ووضعت أسلوباً تتم عليه جميع الأعمال بحيث تعرض في البداية على الخبراء المختصين لتدرس دراسة تامة ثم تعرض في اجتماع عام يعقد يومياً ويناقش من أعضاء المجلس المؤلف من خبير النقد والمستشار المالي والمستشار القانوني ومساعد الإدراة ومني

Twitter: @abdulllah1994

ولقد أردت بهذا أن أسلك بهذه المؤسسة مسلكاً آمناً حتى نستطيع أن نخلص إلى غايتنا الكبرى وهي التقارب الروحي بين الشعبين السعودي والمصري وتنظيم علاقاتهما الاقتصادية، وأن نتجنب العثار في طريقنا.

ولقد بذل السيد محمد علي السلاب ومسيو باش اليوناني جهداً مشكوراً في درس وتنظيم مطبوعات البنك التي وضعت على أساس مقارنة جميع نماذج مطبوعات البنوك الموجودة في البلاد العربية وروجعت بدقة وبعد ذلك تم وضع النماذج التي عمل بها في البنك لتكون على أتم الوجوه وأكملها وقد استغرق هذا العمل وقتاً طويلاً وبذل فيه مجهود عظيم.

وبعد أن بدأ العمل يسير في انتظام وأمان، ويسلك طريقاً مأموناً واضح المعالم صرفت كل همي لخلق الجو الصالح حوله، لتوطيد علاقات طيبة مع الجهات التي يجب أن نوطد علاقاتنا بها ونخلق نوعاً من التجاوب الصالح بيننا وبينها.

وزارة المالية.

مراقبة النقد.

البنك الأهلي.

بنك مصر.

وقد لمست عوناً وتجاوباً وحسن استقبال من الجميع، والتقيت على رأس كل من هذه المصالح بأشخاص هم خيرة الرجال

Twitter: @abdulllah1994

العاملين لمصلحة وطنهم ولصالح البلاد العربية لقد التقيت في وزارة المالية بالسيد نبيه يونس وقد ألممت بشيء من هذا اللقاء الذي كانت ثمرته أن ساعدنا باستثمار جهود موظف من كبار موظفي مراقبة النقد كما بذل لنا المعونة من نفسه فلم يبخل علينا بتوجيه من توجيهاته النافعة ولا برأي من آرائه السديدة وأظهر استعداده لتقديم العون والمساعدة بصورة مستمرة. وكانت أمنيتي بعد ذلك أن أجد المناسبة للاحتكاك والتقرب من السيد عبد المنعم القيسوني وزير المالية لأكسب عطفه ووده ورعايته للبنك حتى حصل العدوان على قنال السويس وكنت آنئذ في بيروت عائداً من جده وكان في نيتي أن استجم بضعة أيام من عناء استمر شهوراً لم أعرف فيها طعم الراحة البدنية ولا النفسية ولا الفكرية فقد كانت ظروف إجهاد مستمر ليس بالنسبة إلي فقط ولكن بالنسبة لجميع الأشخاص الذين مدوا لي يد المساعدة وتطوعوا بأنفسهم للتضحية في سبيل هذه الغاية الشريفة، وكانت الاجازة أيضاً رغبة لم تتم فقد وجدت في هذا الحادث المناسبة التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر لأحتك بهذا الوزير الكبير فسافرت إلى القاهرة واستأذنته في مقابلة تفضل بها وارتجلت له تحية من وزير المالية السعودي وتهنئة له ولحكومة الجمهورية المصرية على الخطوة الجريئة التي أقدمت عليها بتأميم القنال وقلت له إن الشيخ محمد سرور الصبان كلفني بأن أعرض على سيادتكم جميع إمكانيات البنك هنا وفي السعودية وإننا على أتم الاستعداد لتلبية طلباتكم.

وكان هذا في الأيام الأولى من العدوان وقد أحسست أن هذه التحية والعرض احتلت من نفسه الكبيرة محلاً عظيمًا من التقدير والشكر. إنه هادىء بطبعه. وإذا نظرت في وجهه وعينيه يتعذر عليك أن تفضح ما يدور في خلده أو تفهم شيئاً من ذات نفسه، انه مثل صفحة الماء الصافي دائمًا مشرق ولكن لا تستطيع العيون أن تنفذ إلى ما دون سطحه الظاهر ولكني في هذا الوقت أحسست لمعان السرور والغبطة في عينه واشراقة وجهه ونبرات صوته، وأنه لم يبخل بمزيد من ألفاظ وعبارات الشكر على الحكومة السعودية ملكها ورئيس حكومتها ووزير ماليتها وطلب مني أن أنقل هذا الرد إليهم وحدد بعض طلبات يكون مغتبطاً لو أمكن تحقيقها. ولم أفوت الفرصة على نفسي فقد كان البنك السعودي حتى تلك اللحظة لم يحصل على صلاحية التعامل بالنقد الأجنبي فلم يكن له الحق في إصدار تحاويل ولا استقبالها حتى يجتاز الفترة القانونية التي قد تمتد إلى عامين فذكرت ذلك لسيادته. وفي غمرة هذه العاطفة أمر بمنح البنك الصلاحية وبذلك تمت لهذا البنك صفته القانونية.

لقد ذكرت أنني ارتجلت هذه التحية والتهنئة لأنني في الحقيقة لم أتلق ذلك من وزير المالية لأن الحوادث وقعت مفاجئة وكنت في بيروت ولأجل أن أستأذنه في الإقدام على ما ذكرت أحتاج إلى فترة قد تفوِّت علي فرصة الأولية في الاعراب عن عواطف حكومتي وبلادي في هذا الظرف الدقيق ومتى جاء هذا العمل

Twitter: @abdulllah1994

متأخراً فإنه يفقد قوته وجماله ويظهر كأنه تقليد للآخرين. وقد أقدمت على هذا الأمر بوحي الشعور الحقيقي الذي هو معروف عن الحكومة السعودية كما هو معروف عن جلالة مليكها وسمو الأمير فيصل ولما أعرفه أيضاً من طبيعة الشيخ محمد سرور الصبان الذي يحرص على انتهاز الفرص وبعد هذه المقابلة عرضت الشأن في تقرير على وزير المالية السعودي وقد وجدت صداه بحيث يبعث على الغبطة والفخر. وسارت الأمور كما أريد وشعرت بالفوز لاكتساب عطف السيد عبد المنعم القيسوني ثم جدت مناسبات أخرى كان يجب أن يأخذ علماً بها أو لعلني تصديت لاتزلف بعرضها عليه فكانت تزيد من روح التقارب والعطف الذي كنت أسعى إلى تحقيقه.

وكان على رأس مراقبة النقد شخص ذكي حازم هو السيد أحمد زندو (وكيل وزارة الخزانة للشؤون الجمركية الآن)، وهذه المصلحة تعتبر مرجعاً لأعمال البنك صغيرها وكبيرها وحين حاولت التقرب إليه لم يبخل علي بلطفه وحسن استقباله ومد يد المساعدة لنا في جميع المناسبات، حتى لقد وقع البنك في أخطاء قانونية اقتضتها ظروف نشاطه ومباشرته للأعمال المصرفية بالكامل قبل أن يحصل إذناً على جميع صلاحيته ولكنه أحس بأن هذه الأخطاء لم تكن صادرة عن سوء نية فلم يضيق علينا الخناق وأخذها بكثير من التسامح المشكور.

وكان جميع مديري البنك الأهلي وبنك مصر يبدون من الود

Twitter: @abdulllah1994

والمساعدة والتعاون ما ترك في نفسي منتهى الطمأنينة على أن طريقنا سيكون ممهداً إلى الغاية التي رسمتها وسنجد الجو الودي الأخوي الذي ييسر لنا جميع أعمالنا وقد تحققت التجربة في فترة حوادث القنال فقد كان في القاهرة عدد كبير من السعوديين الذين قدموا للسياحة وبعضهم بأسرهم وبعضهم يتعالجون في المستشفيات، وانقطع البريد وتأخر عنهم ورود التحاويل المالية التي كانوا ينتظرونها من أهليهم، ومعظمهم كانوا معروفين لي بصورة شخصية ولهم ودائع في المركز الرئيسي وكان النظام يحتم أن لا نصرف لأحد منهم أي مبلغ حتى يرد التحويل وأوشك أن يلحق بهم ضرر عظيم وقد وجدت نفسي مضطراً لمساعدتهم بصرف ما يحتاجون إليه مقدماً حتى يتحقق ورود مقابله من جده وعرفت مراقبة النقد بذلك ولم تؤاخذنا على هذا الخطأ وكان هذا لوناً من ألوان العقبات التي هدفت إلى تذليلها بالنسبة للسعوديين بواسطة البنك. وفي الحق أنني يجب أن أسجل عظيم الشكر لجميع المسؤولين المصريين على طريقة استقبالهم للبنك السعودي ومساعدتهم له وتسهيلهم لأموره حتى لقد أحاطوه بجو من العطف واللطف لا يصدر إلا بدافع من الشعور بالاخاء والحب. لقد جعلوا منه مؤسسة أكبر من حقيقتها وأرفع من قيمتها وأوسع من إمكانيتها، ولقد تفضل السيد عبد المنعم القيسوني فأطرى البنك وأثنى موقفه إطراء وثناء قدمه بقوله إنه ليس كلاماً دبلوماسياً ولكنه يعني ذلك بكل معانيه وقد نقلت ذلك إلى وزير

المالية السعودي أيضاً. وأحسست أن ذلك الثناء أكثر بكثير مما نستحقه وهو إذا قصد به المعنى بكامله كما ذكر سيادته فإنه يتناسب مع روح الأخوة والمودة المطبوعة في نفوس المسؤولين في الحكومة المصرية والتي تتجلى صورها واضحة في جميع تعابيرهم وأساليب معاملاتهم.

* * *

وبينما كنت أتقدم بخطوات سريعة للقاء بالهدف من هذا الجانب وجدت الصفوف من ورائي أخذت توليني ظهرها وتبتعد في الاتجاه المعاكس، لقد أصمى هذا النجاح بعض النفوس الحاسدة وحولها إلى بركان يقذف بالحقد والضغينة والكيد والدس وقد أحسست أن هذه الصورة الجميلة التي بدأت تملأ العيون وتنطلق الألسن بالثناء عليها. وتوجها السيد عبد المنعم القيسوني بتاج من التقدير والإطراء قد تبهت ألوانها وتشوه جمالها وتلفحها الأحقاد بلفحها ودخانها فيتحول إشراقها قتاماً وجمالها قبحاً ونصرها هزيمة فانسلخت من الموقف بسكينة وسلام واعتذرت عن الاستمرار في القيام به وكان عذري واضحاً فقد مرضت ونصح لي الأطباء بالراحة وعرفت يومئذ تفسير تلك النغمة التي بدت في حديث الشيخ محمد سرور حين كنت ممتلئاً بالحماس لتحقيق هذه الغاية وأنه عرف النهاية قبل البداية وليس ذلك بغريب على ذكائه وألمعيته عند من يعرفه على حقيقته، وحين أخبرته باستقالتي من البنك تولته ثورة غضب وانفعال لم أرها عليه طول صحبتي له

Twitter: @abdulllah1994

وقد دهشت لذلك لأنني لا أعرف لذلك سبباً لم أتمكن من شرح الموقف له آنئذ لما رأيته عليه من غضب كما لم تجد مناسبة بعد ذلك حتى صيف عام ١٩٥٩ حين جدت مناسبة فسألته عن أسباب سخطه وقد شكرت له ذلك حين علمت أنه ضن بذلك المجهود أن أتركه دون نتيجة ودون أن أستفيد منه ولكني أوضحت له أنني استفدت منه الفائدة التي كنت أرجوها فإن المسؤولين في الجهات ذات العلاقة بمصر قدرت الروح التي أقمنا بها هذا البنك كما قدرت أهدافه المثلى وأنه يكفيني جزاءً وفاقاً لما عملت الكلمات الذهبية التي وجهها إلي السيد عبد المنعم القيسوني كما أن المادة لا تصلح ثمناً لكل شيء ولقد عرض علي المدير العام للبنك الشيخ سالم بن محفوظ مكافأة مالية فاعتذرت له عن قبولها لأنني قدرت أن أي مكافأة مالية آخذها لقاء ذلك ستشوه من جماله وتحط من قيمته.

* * *

وانني وقد أديت بعض حق الرجال الذين قاموا بدور البناء يجب أن أعود لأوضح دور الأشخاص الذين قاموا بالهدم.

Twitter: @abdulllah1994

مَصّاص دِماء

تراه دائمًا كالحشرات التي تعيش عند أقدام الأشجار الكبيرة تتخذ منها سكناً ورزقاً حسناً فهي تسطو على الثمار فإذا لم تصل إليها سطت على الورق أو اللحى والجذوع فإذا لم تتمكن من شيء من كل ذلك وجهت سطوها إلى أعماق الأرض حيث الجذور فهي لا بد وأن تبلغ غايتها ومن غريب الطباع في هذه الحشرات الآدمية أنها تتجاهل حقيقتها فتريد أن تظهر بمظهر المخلوقات ذات الحول والطول والسلطان.

عرفته قبل البنك من غير مخالطة، ولكنها معرفة تامة تفوق معرفة المخالطة والمعاشرة وعرفت أدواره مع كثير من الناس وكنت أتجنبه دائمًا لا بل كنت أفعل ما هو أكثر من التجنب عند لقائي به ولكن فطرته أبت عليه أن يقف كل منا عند الحد الذي وضعه من نفسه للآخر فقد أصبحت مدير بنك أو على الأصح تمثلني شجرة من أشجاره فاحتك بي عند أول لقاء بدار الشيخ محمد

Twitter: @abdulllah1994

سرور الصبان بالقاهرة وكان ذلك قبل تأسيس البنك وقدم لي نفسه.

اسمي.........

قلت له أعرفك من قديم.

وأعرفك معرفة تامة.

قال لي - أنا صديق الشيخ سالم بن محفوظ والشيخ عبد العزيز كعكي و...... و......

فقلت له:

وأعرف ذلك أيضاً.

قال - ألست مدير فرع البنك الذي يريدون تأسيسه في القاهرة.

قلت له - إنني سأؤسس البنك السعودي.

ولست أدري بعد ذلك كيف انتهى الحديث - وكيف تخلص كل منا من صاحبه ولم نلتق بعد ذلك حتى حضر الشيخ سالم بن محفوظ لافتتاح البنك فكان يطوف عن يمينه وشماله وبين يديه ورجليه وفوقه وتحته إذا صح التعبير مثل الصاروخ الذي يطوف حول القمر يتكلم عنه إذا سكت ويكمل له حديثه إذا نطق ويجري أمامه بقامته القصيرة ورأسه الصغير وطربوشه الطويل إذا تحرك ويسبقه بالرأي في المجالس فإذا وجد ابن محفوظ نفسه في حاجة إلى الافصاح عن رأيه وكان خلافاً لما سبقه عليه رجع يوفق

Twitter: @abdulllah1994

بين ما قاله هذا بما سبق هو به يفسر هذا بذاك ولو كان تفسير الضد للضد، وكنت أشهد تهريج هذا المهرج وأسكت أحياناً، وقد تعرض بطلب مساعدات من البنك انتهز بطلبها فرصة وجود أصحاب البنك وظن أن هذه الأسباب ستجعلني استثني طلبه من النظام المتبع فرميت به وبطلباته عرض الحائط وقد استمر يفرض نفسه على البنك بأساليب سمجة، حتى اضطرني في يوم من الأيام أن أصارح الشيخ محمد باقبص الذي يمثل بن محفوظ بأنني أرفض أي تدخل من هذا الشخص في شؤون البنك أو ادلائه برأي في أعماله وإذا كانت له علاقة خاصة بأصحاب البنك فيجب أن تكون خارج حدود البنك، وقد عرف هو رأيي فيه وشعوري نحوه فأخذ يستعمل أساليبه الماكرة بالدس الرخيص. والسعي الخسيس الذي يعرف أنني لن أتصدى لمقاومته إلا إذا وطدت نفسي للانحدار إلى مستوى عقله وخلقه وذلك ما لن أتصور الوقوع فيه، وتركته على علم مني ليفتل حباله كما يشاء وقد وضعت حداً للأمر فاما أن يتطهر جو هذا العمل من أمثاله واما أن أقف بعلاقتي به عند حد، لقد تم وجود هذا الكيان، وتم على أكرم الوجوه وأكملها فإذا استطعت تنقيته من مثل هذه الآفات فإنني ألتزم الاستمرار فيه، وإلا فيكفيني فخراً ما أدركته من شرف وضع الأساس الذي ساهمت في وضعه أيد طاهرة نقية مخلصة وقام البناء وتكاملت هامته باللمسات الكريمة التي تفضل بها السيد عبد المنعم القيسوني. فانسحب وقد تركت الصورة على

Twitter: @abdulllah1994

أتم جمالها.

ولقد ترجح ذلك عندي حين لمست أن سموم هذا الشخص وأشباهه بدأت تنطبع بطابع الجدية وكونت حولها الجو الصالح لتعيش فيه.

وما أن علم بتنفيذ قراري حتى هجم على إدارة البنك هجوماً عملياً وأناخ بكلكله في داخل الإدراة شأن تلك الحشرات التي تتخذ مقامها في قلب فريستها. وكما رثيت للفريسة حمدت الله إذ لم تتسلط هذه الحشرة في دور التأسيس.

إذا لأفسدت علينا الأمر من البداية.

Twitter: @abdulllah1994

رَجلٌ ضَعيفٌ .. مُعَلّم أطفَال

وهذا رجل يرثى له.. إنه ضعيف... يستدر العطف حتى تلين له القلوب الجامدة فإذا تمكن انكشفت حقيقته. كان أستاذاً وقد وعى ذهنه جميع المحفوظات المدرسية التي كان يشارك طلابه في حفظها، فإذا أطلق نفسه على عنانها تجلت فيه شخصية معلم الأطفال... لقد عرفته قبل مناسبة البنك بل على الأصح لقد عرفت محفوظاته المدرسية التي كان ينقلها إلي فتمثلت فيه رجلاً مؤدباً عالماً ذكياً متمسكاً بأهداب الفضيلة يتحلى بالصفات النبيلة وكان يتردد علي دائماً ولم يكن هناك ما يستوجب ذلك التردد سوى العلاقات الطيبة البريئة.

ولم أكن في يوم من الأيام أتصور أنه سيكون لكل منا علاقة عمل وارتباط مسؤولية بالآخر، حتى جاء دور تأسيس البنك وكان لا بد لي من مساعد يحمل عني بعض تبعات العمل فرشحته لذلك. وكان هذا الترشيح له مبرر فقد كان هو أيضاً مديراً لأحد فروع البنك العربي في القاهرة فطلبت من الشيخ سالم ابن محفوظ تعيينه كمساعد ومن الغريب أنه تلقى هذا الترشيح

Twitter: @abdulllah1994

بشيء من التردد، وكان تردده يزيد في إصراري وبالرغم من تكتمي سر تعيينه فقد تسامع بعض موظفي البنك الذي يعمل فيه فتقدموا إلي بالنصح بعدم الاعتماد عليه وذكروا أسباباً لذلك وطلبت منهم البرهان على صدق ما أدلوا به فقدموا لي مستندات من البنك الذي يعمل فيه ولكني وجدتها لا تصلح لإدانته بما نسبوه إليه. ورغم تعييني له وجدت أن المركز العام للبنك يتردد في إعطائه صلاحية تمكنه من أداء عمله أداءً كاملاً وقد سبب ذلك رد فعل سيء في نفسي ولم يكن لي حيلة في إلانة قناة المسؤولين في المركز العام إلا باضفاء الثناء العريض على صاحبي والتهويل من كفاءته وقدرته وأضفيت على شخصيته كل صفات الكمال، وإنني لأذكر في هذه المناسبة أنني عرضت على شخصية سعودية كبيرة موقف الشيخ سالم بن محفوظ من عدم الاستجابة لإعطاء هذا الرجل صلاحية كاملة فنصح لي بعدم التشبث بذلك، ولكني كنت حريصاً على رفع معنوياته باحلال الثقة في قلبه، لقد ظننت أنني تسببت في إقلاق مركزه الثابت في البنك العربي فلا بد وأن أثبت مركزه في البنك السعودي إنه فلسطيني ومهاجر وينفق على عائلة كبيرة كما ذكر لي وإن المروءة تقضي بأن نجعله يطمئن في حياته على حاضره ومستقبله وأسباب معيشته، وقد توفقت أخيراً ـ وعلى مسؤوليتي ـ في الحصول له على جميع الصلاحيات التي يرغب فيها ووقعت له عقداً طويل الأجل مع البنك، ثم جاء دور الحصول له على إقامة في مصر وقد عانيت في

Twitter: @abdulllah1994

سبيل ذلك مشقة أيضاً، ثم توفقت أخيراً لمنحه الإقامة وبدأت أعامله كصديق يتميز بالعلم والأدب إلى جانب الخبرة بالأعمال المصرفية. لقد كان أكبر مني سناً وأعرق نسباً في أعمال البنوك، وكنت أظنه أوسع خبرة وأن تجاربه في البنك العربي قد خلقت فيه الشخصية الإدارية التي تمتاز بالرزانة والروية والحكمة وحسن تصريف الأمور فكنت لا أبت في أمر إلا بعد مشورته وإذا مشينا قدمته علي وإذا جلسنا في مجلس صدرته في المقام وإذا عقدنا اجتماعاً أعطيته حق الرئاسة في المكان والحديث. ولقد فوجئت من البداية انني كنت مخطئاً في جميع تصوراتي عنه.

لقد بدا في صورة الرجل الذي تتحكم فيه عواطفه أما عقله ففي سبات عميق لا يستيقظ إلا على دقات طبول الخطر، وكانت عواطفه تقلق جسمه وتجعله كالريشة في مهب الرياح، يلقى الضيف الزائر من ضيوف البنك بحركات بهلوانية كأن يرفع يده في السماء ثم يهوي بها على كف الزائر ليحييه تحية حارة فإذا كان الضيف حديث عهد بالزيارة أو شخصية كبيرة أو وقورة يندهش لهذه التحية، وكان يتصور ما في نفس محدثه قبل أن يشرع في الإعراب عنه ويسارع في إجابته حسبما تصور ويبدأ الصراع في الكلام بينه وبين محدثه فهذا يتكلم في اتجاه وهذا يسرح في اتجاه معاكس ولا بد من وقوع معجزة تلزمه الصمت حتى يصغي إلى محدثه ويعلم طلبه، ويرتجل الأمور ارتجالاً ثم يريدني متابعته على كل ما يراه. وقد نبهته بلطف في البداية إلى أن هذا العمل يحتاج

Twitter: @abdulllah1994

إلى شخصية إننا يجب أن نعطي للبنك شخصية تتميز بالوقار والسرية والنظام شخصية تبهر الموظفين ليحسوا بخطورة العمل الذي يؤدونه والمسؤولية التي يواجهونها. وتبهر العميل حتى تحد من أطماع الطامعين واحتيال المحتالين شخصية تمكننا من تمثيل مركزنا في وسط البنوك لنقف منهم موقف المساواة ونحس بأنهم يحترمون مقامنا بينهم. ولكن عاطفته الطاغية لم توفر له القدرة على فهم ما أريد وقد أحسست أنني أصبحت مشغولاً بكبح جماح مساعدي حتى لا يفاجئني بشيء من التصرفات المرتجلة فأعجز عن إنقاذها ما لم أتيقن من سلامة العاقبة. ووقفها يضر بسمعة البنك باعتبار أن المتصرف شخص يمثل الصلاحيات الكاملة للبنك.

لقد أردت أن أرفع من معنوية رؤساء الأقسام ليتعاونوا مع الإدراة وقد لمست أن معظمهم يعلم من الاجراءات الشكلية للعمل ما يساعدنا على الاستفادة من هذه المعرفة فخصصت لهم اجتماعاً أسبوعياً ليفضي كل منهم بما لديه من مقترحات وآراء وأفهمتهم أننا سنجمع المقترحات التي تقدم كتابة في سجل خاص بصاحبها وأي مقترح أو رأي يستفيد البنك منه فائدة مادية أو إدارية أو في نظامه وسير أعماله ستقدم مكافأة لصاحبها تتناسب معها. ولمست أن هذه الاجتماعات حققت فائدة كبيرة فقد نسقت آراء رؤساء الأقسام ووحدت جهودهم وأزالت خلافات بسيطة كانت بدأت تدب بينهم وكان يمكن أن يتفاقم الأمر على

Twitter: @abdulllah1994

جهل منا بحقيقتها وتأخذ أشكالاً تتنافى مع المصلحة العامة وكنت في هذه الاجتماعات أتخذ مقعداً بين الموظفين وأحل مساعدي محل الرئاسة. ولكنه سخط لهذه الاجتماعات بحجة أنها تجعل لهؤلاء الموظفين شأناً وتدخلاً في أعماق الإدارة. ولقد نبهته مرات عديدة إلى أن الإدراة هم هؤلاء الأشخاص وأن كل البنوك الكبيرة تعمل مثل ذلك لتستنير برأي كبار موظفيها وهذا لا يتعارض مع استقلال المدير ومساعده بالبت وأن هذه المشاورات إنما تلقي ضوءاً على حالة العمل. لكنه استمر في عناده وقاطع هذه الاجتماعات وما كنت مستعداً لأوقف بسبب رأيه أي عمل يمكنني به أن أدعم نظام العمل وأقويه. وليته قاطع هذه الاجتماعات فقط بل وبدأ يبث روح الحزبية بين الموظفين وكان متذبذباً في الرأي حتى إنه يقرر شيئاً وقد أوافق عليه اما لسلامته أو لاتباع أخف الضررين بين ما أراد أو خلق نزاع فأجده ينكص على ما قررنا وقد أفهمته مرات متعددة أن لا يبت في أمر حتى يمعن الرأي فيه من جميع جوانبه فإذا بت واتخذ قراراً فيجب أن يلتزم ذلك حتى ولو تبين له خطأ رأيه لأن مثل هذا الخطأ يكون محدد الأثر من الناحية الموضوعية أما التذبذب في الرأي فإنه يهدم شخصية البنك وقد صادفتني أمور كثيرة تركت في نفسي أسوأ الأثر حتى لمست أن الثقة بدأت تتلاشى بيننا.

كما وضعت نظاماً للبت في أي عمل يقوم به البنك من نوع الالتزامات بأن يدرس أولاً عن طريق المستشار المالي كما يدرس

Twitter: @abdulllah1994

عن طريق المستشار القانوني وإذا كان علاقة بأنظمة النقد يستفتى فيه خبير النقد. ومتى استوفيت الدراسات يعرض الشأن في اجتماع يحضره مدير البنك ومساعدوه والخبراء وتدرس تلك الدراسات بالإجماع وتناقش بحرية تامة وقد وجدت فائدة عظيمة من هذا النظام فوائد جرت كثيراً من الغنم وجنبتنا غرماً ومشاكل ومواقف في منتهى الخطورة على بنك ناشىء جديد.

ومن المؤسف أن معظم نتائج الدراسات كانت تتأتى على غير هوى المساعد المحترم، الذي كان يلقى العملاء في الشارع فيعدهم بالمساعدات المالية التي لم يكن يحلم أحدهم بها. وكان اصطدامه دائمًا بالمستشار المالي السيد عبد المنعم خليل المساعد لأن المساعد يعد شخصاً بفتح حساب ويأتي المستشار المالي برأي من واقع دراسته لمستندات العميل ومن خبرته عنه بصفته خبيراً في وزارة العدل مطلعاً على شؤون وأسرار كثير من المؤسسات التجارية ولديه فرصة كاملة للاستعلام ومعرفة حقيقة العميل من الجهاز الذي يزامله في وزارة العدل - يأتي المستشارالماليفيقفل في وجه العميل الباب الخلفي الذي فتحه حضرة المساعد وتبتدىء المشاكل من نوع القصة المعروفة عن شخصين رأيا غراباً فقال أحدهما هذا عنز وقال الثاني بل هو غراب وأصر كل منهما على رأيه فألقى الذي ظنه غراباً حصاة عليه فطار ثم سأل صاحبه أهو عنز أم غراب فقال الآخر عنز ولو طار - وكان مثل العنز الذي يطير يتكرر في كل أسبوع مرة أو مرتين حتى استحكم النزاع

واستشرى وتفاقم بين السيد أحمد الخليفة المساعد والسيد عبد المنعم خليل المستشار المالي وكنت في كل مرة أقف بجانب الرأي الذي يقول إن الغراب هو الذي يطير وليس العنز ولم يستطع حضرة المساعد أن ينقطع عن حضور هذه الاجتماعات كلية وإن تأخر عن حضورها أحياناً ولكنه أخذ يدس للسيد عبد المنعم خليل دساً رخيصاً وللسيد محمد مصطفى كما دس قبل ذلك للسيد الدكتور أنطون صفير. وقد أحسست أن صلاح جسم هذه المؤسسة يقضي ببتر العضو الفاسد ولم تطاوعني نفسي على ذلك فقد شعرت بمسؤولية إنسانية تجاه هذا الرجل وقدرت في نفسي أن الكيان قد تم تشييده وأن العاصفة لم تزل في الطريق فيحسن أن أتجنب انتظارها وبدأت أفكر في طريقة للخلاص بسلام ولم يطل بي التفكير فقد جدت أمور ثلاثة ربطت أطراف بعضها ببعض كما يربط من ينشد السلامة أطراف بعض الأخشاب بحبل ثم يجعل منها سلماً ينجو به أما أخشابي التي ربطتها فهي:

١ ــ وجود الشيخ محمد باقبص ممثل المدير العام للبنك في القاهرة في زيارة.

٢ ــ لقد ظهرت سموم ذلك الدس بالنسبة لخدمة جليلة قام بها السيد محمد مصطفى والسيد عبد المنعم خليل فقوبلت بأسوأ ما يمكن من جحود وكفران كما لمست أن وجودهما أصبح غير مرغوب فيه بعكس ما كان يجب أن يكون الحال وأحسست أن هذا الدس يتم في ظلام دامس وأسلوب حقير لا يمكن مقاومته

Twitter: @abdulllah1994

إلا على حساب الكرامة.

٣ ـ لقد تبرع وزير التجارة السيد محمد رضا بمبلغ لشهداء بور سعيد وطلب مني أن أتولى تقديمه للسيد عبد المنعم القيسوني بصفته وزير المالية وتحدد موعد للمقابلة مع سيادته حضرها الشيخ محمد باقبص ليقدم تبرع البنك الأهلي التجاري باسم مديره العام أيضاً فتفضل سيادة السيد عبد المنعم فخصني شخصياً بجانب من الثناء يتعلق بإنشاء البنك وإدارته وقد خرجت من تلك المقابلة وكأن بيدي صك النجاة، لقد اعتبرت أن تلك الكلمات الطيبة من ذلك الرجل العظيم في وجه من يمثل البنك وأصحابه وأسرته جميعاً تصلح لأن تكون مسك الختام في الرواية فخرجت من ذلك الاجتماع وقد رتبت الخطة.

إنني مريض وقد نصح لي كبار الأطباء بالراحة، ويوجد من يمثل أسرة البنك بأوسع الصلاحيات ويمكنني أن ألقي إليه بمقاليد الأمر. وقبل أن أبارح القاهرة اتفقت مع السيد محمد باقبص على رفع صلاحيات السيد أحمد الخليفة. وودعته بهذا العمل أحسن وداع.

ولم تمض فترة حتى هبت العاصفة التي اقتلعت السيد عبد المنعم خليل والسيد محمد مصطفى وتسلل بين قتامها مصاص الدماء فوطد دعائمه في مقر إدارة البنك، وكان كل ما يهمني بعد ذلك أن لا ينشأ أمر من الأمور تتقاذفه الصحافة ويدك سمعة

Twitter: @abdulllah1994

البنك وسمعة البلاد السعودية بأذى وقد اجتمعت عدة مرات في مكتبي بجدة وفي مقر البنك بمديره العام وكنت أوصيه خيراً بالسيد أحمد خليفه وبوضع حد لتطاحن الموظفين لئلا يؤدي ذلك إلى ضرر يصعب تلافيه وإنني ما زلت أرثي لأحمد خليفه..

إنه رجل ضعيف...

أما السيد عبد المنعم خليل فقد تمكن أحمد خليفة من التضحية بمستقبله فدس له لدى رؤسائه في وزارة العدل وخرج من هذه الصفقة مذموماً مدحوراً. ولم يزل حتى الآن يعاني من جراء شباك السوء التي حاكها له خصمَه وقد اضطررت أن أقابل بعد عودتي إلى القاهرة السيد توفيق أبو علم وكيل الوزارة المساعد لشؤون الخبراء والسيد زكي شرف الوكيل الدائم لوزارة العدل. ونقيت لديهما موقف السيد عبد المنعم خليل من السوء الذي ألحقه به خصمه.

وإن ألطف رد فعل تلقيته على تركي للبنك تحية كريمة من السيد أحمد زندو الذي كان مديراً لمراقبة النقد حين لقيني في فندق سميراميس فقال:

«إننا نعتبر أن تركك للبنك جناية في حقنا».

لقد كان تفضلاً منه توجيه هذا التقدير إلي في أسلوب العتاب الرقيق وإنني أختم هذه الرواية بأن أسجل له شكري على تقديره، كما أسجل شكري لكل من ساهم في إقامة هذا البناء الذي نتمنى له الاستقرار والازدهار.

كلمة السر

إرادة بقاء ..

ما هو السر من هذا الكتاب المكتوب؟..

لماذا أنفق ما أنفق في كتابته من فكر، ووقت، وأعصاب، وتنقيب.... تنقيب بين ظلمات الماضي وركامه، بين تضاريس الزمن وحطامه.

ولماذا اجترار الآلام التي برئت وإحياء ذكرها؟..

لا ـ بل تصويرها في جسم ثم نفخ الروح فيها فإذا هي شاخصة للأبصار تقرأ وتسمع وتنقل....

هل سر ذلك هو التشهير بأحد.... أو التنويه بأحد؟...

هل تكمن وراء هذا روح انتقامية تتربص بفريستها حتى إذا وقعت أجهزت عليها؟....

هل هي رغبة طائشة في تجميد عداوات بعينها لتبقى حاملة طابع الحقد والضغينة ـ ذلك الطابع ـ الكالح المكشر عن أنياب بارزة عن اعتداء متحفز وشر متوقد ويبدو المكر الأسود من

Twitter: @abdullllah1994

حدقاته الحمر المستديرة التي لا تغمض لها عيني...

هل هو الشيطان يقوم على طريق مجدب قاحل، وعر المسالك بـزين سلوكه وينـثر على جـوانبه الأهـواء الطائشـة. والاغـراء الكريه...

انني أؤكد بأنني لم أدخل في حسباني شيئاً من ذلك. وليس في طبيعتي الحقد ولا التملق.... ولقد جليت أطيب الآثار في نفسي لأشخاص لفهم الخلود بردائه فلم يعودوا خاضعين لأسباب الصداقات. والحزازات الفانية. وبعكس ذلك بالنسبة لأشخاص يخشى ضرهم. ويرجى برهم.

فليس السر في كتابة هذا الكتـاب كسب صداقـات ولا عداوات. ولا مدح ولا قدح ولكنه شيء آخر أسمى من كل ذلك...

إنه ـ غريزة حب البقاء...

السر الذي تطمح إليه الكائنات الحية. إن كل كائن حي يريد أن يبقى اسمه، ويخلد ذكره وأن يحيا حياة متكررة في أبنائه وأحفاده والأجيال القادمة... أن يحيا حياة متكررة في تمثال يرمز إليه... أو رسم يعكس ظله... أو بناء يحمل اسمه... أو عمل يذكـر به... وكـذلك أردت البقـاء للبقاء... لمجـاراة الفطرة. ولقد أردته في محور بعينه وضمن دائرة كنت أطوف في فلكهـا...

لقد أردت أن أكون أستاذاً لأنشىء جيلاً يردد اسمي. وينقل أفكاري. وأحيا في كيانه وأضمن بقائي بتكرار حياته. وكافحت ما كافحت للبقاء في محيط هذه الدائرة وحول محورها استجابة للوراثة. والاستعداد الروحي. والفكري... ولكني خرجت من حدودها على كره... خرجت لا باختياري ورغبتي ولكن بسبب التأثر بشخصية أو أخرى أفضت بي إلى الخروج من تلك الدائرة التي وطدت نفسي للبقاء في محيطها بقاء غير محدود. فإذا تحدثت عن أثر هذه الشخصيات في حياتي هذه فإنني لست أقصدها بثناء أو ذم. وقد يكون حديثي عنها في مجموعه لا يلمس حقيقتها بوجه من الوجوه ولكنه حديث عن حقيقتي وانفعالاتي.. وما صرت إليه.

فإذا فاتني البقاء حيث (أردت) فليس أقل من أن أحيي ذكرى تلك (الإرادة) الضائعة - ذلك الصراع المحدود لبقاء معين. وكيف يتم إحياء تلك الذكرى من غير استعراض هذه (الإرادة).

كيف وجدت؟... وعلى أي صورة كان وجودها... ومقدار عمرها... ثم كيف انتهت... والأسباب التي قضت على وجودها...

إنها كائن حي - خلق، ورزق، ومات... وكنت أريد له البقاء - أن يحيا ويحيا دائماً - لأن هذه - الحياة الدائمة كانت جزءاً

Twitter: @abdulllah1994

من مقومات فطرته، ووجوده. . فارادة البقاء ـ هي (كلمة السر وراء التنقيب في ظلام الماضي وركامه وتضاريس الزمن وحطامه. . . لإحياء هذه الذكرى لتبقى كارادة مفقودة حين عجزت أن تبقى ـ إرادة موجودة ـ.

ثم انطلقت تلك الإرادة من جاذبيتها. . . من حدود فطرتها فأخذت تترنح ذات اليمين وذات الشمال حتى استقرت في حدود وهمية، وطفت على سراب بقيعة يحسبه الظمأن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

استقرت على غاية واحدة هي ـ العمل للحصول على مال يسد العوز وتقضى به الحوائج. وتصان به الوجوه ـ هي:

أن نعيش لنأكل.

لقد تشبثت في طريقها قبل أن تخلد إلى هذه النتيجة بجملة أسباب كريمة تتعرض لخدمة الصالح العام كان آخرها الرسالة الطيبة التي أردت تحقيقها بواسطة البنك الأهلي التجاري السعودي بالقاهرة. وكان من أمرها ما أوضحت بتأثير بعض الشخصيات التي انحرفت بها مع أهوائها. . .

ولم يبق بعد هذا إلا العزاء. . .

إلا الذكريات الطيبة لتلك الإرادة الفانية (إرادة البقاء).

إنها كلمة السر لهذا الكتاب. . .

Twitter: @abdulllah1994

خاتمة

في هـذه الحياة صفحـات تمت وكتبت وصفحات تمت ولم تكتب أو كتبت ولم تستوف، وصفحات لم تتم ولم تكتب.

فالأخيرة علمها عند ربي لأنها لم تزل وراء حجب الغيب والأولى لم يحل دون املائها أي حائل لأنها فترة دراسة، ونشأة بريئة ليس لها أي علاقات خارجية تتجاوب معها ولا مؤثرات تنقل صداها أما التي كتبت ولم تستوف، أو لم تكتب فتلك الفترة التي خضعت لقانون الحياة الصارم وفي حياة كل فرد زوايا لا يمكن أن يسلط عليها الأضواء، وإلا فإنها تجر عليه مشاكل لن يستطيع الافلات من نتائجها السيئة.

ولكن شيئاً واحداً قد حرصت عليه كل الحرص هو أن لا اتجاوز فيما كتبت الحقيقة كما هي أو على أقل تقدير كما تجلت لي.

وكما يتمنى الفرد أن تتكرر حياته في أبنائه وأحفاده، ويشعر لذلك بالغبطة والسعادة.

وكما يجد لذة في أن يحتفظ بصورته التي تمثل ملامحه وهيئته، ويكرر ذلك في كل مناسبة ليربط بين تلك المناسبة وبين شخصه،

Twitter: @abdulllah1994

ويحيي بها ذكرياته، فإنه يجد اللذة كل اللذة حين يجد حياته كتاباً مقروءاً.

وفي الحقيقة أن هذا العمل لم يخطر لي على بال، ولا فكرت في القيام به حتى طلب ذلك مني صديقي الأستاذ الكبير «عبد الله بلخير» ولم أفكر حين بدأت في تلبية طلبه أن جميع ذكريات الحياة ستبعث بعثاً جديداً قوياً واضحاً وتندفع في سلسلة حلقاتها آخذ بعضها ببعض، ولقد حاولت أن أحذف بعض الحلقات، وأريح نفسي من عناء تلك الذكريات، ولكني أحسست أن الصورة ستظهر مطموسة المعالم، مشوشة العرض، لا تصلح لاعطاء أي فكرة، ولا تعبر عن أي حقيقة ولا تصلح للانتساب لأي شخص.

وأحسست أيضاً أنه لا فرق بين حقيقة الحياة التي يحياها الإنسان، وتتكون منها أفعاله، وأخلاقه، وخواطره وطريقة استقباله لكل شيء في وجوده العام، وكل ما في ذلك من مؤثرات وآثار ناتجة عن الطبيعة والبيئة والعلاقات العامة ونوع العمل الذي يعمله وأسلوب المعيشة التي يعيشها.

لا فرق بين ذلك في نظامه الدقيق المحكم الموضوع وضعاً حساساً، وبنظام محكم مرسوم وبين التعبير عن تلك الحياة، ونقلها إلى كتاب مقروء كما كانت في وضعها الأصلي حقيقة واقعية. فإنك إذا حاولت أن تؤخر في حلقاتها أو تقدم، أو تضيف، أو تهمل، فإن التناسق ينعدم فيها انعداماً كاملاً كما

Twitter: @abdulllah1994

ينعدم معه قدرتها على الوجود.

ومهما كان في نقل هذه الحياة من حقيقة واقعية إلى حقيقة مقروءة من نقص وحذف تشير مواضعها إليها، ويحس القارىء بين سطورها أن هنا فجوات كان يجب أن تملأ، ومواضيع لم تشبع، فإن ذلك ما كان يجب أن يكون، ولكنها رغم ذلك ستعطي صورة صحيحة أمينة لصاحبها إلى حد ما. وذلك ما حرصت عليه.

وإنني أكرر شكري لباعث هذه الذكريات، وصاحب الفضل في ايقاظها من سباتها، واخراجها إلى النور والوجود صديقي الأستاذ عبد الله بلخير، فلقد كان له الفضل كل الفضل في انعكاس أضواء الحياة على هذه الخواطر حتى أصبح منها كائن محسوس ملموس مقروء.

والمهم في كل شيء أن يحصل على نعمة الوجود، أما ما هو المركز الذي يحتله بين الموجودات فذلك ما ليس يمكن أن يقاس بمقياس، ولا أن يوضع له نظام.

Twitter: @abdulllah1994

الفهرس

Twitter: @abdulllah1994

ص

في المدرسة:

Twitter: @abdulllah1994

ص

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

حول المؤلف والكتاب:

ليس لنا أن نقدم في هذه السطور الموجزة، لقرائنا الأعزاء، كل ملامح شخصية المؤلف المتميزة، ولا كل جوانب نشاطه وكفاحه المتعددة، بل نحن نكتفي ببعض الملامح والاشارات التي تكفي بنظرنا لتكون دليلاً لكل من يقلب متسائلاً صفحات هذا الكتاب..

فقد عرف الكثير من القراء المؤلف الأستاذ حسن محمد كتبي من كتبه التسعة ومقالاته الغزيرة في أكثر المجلات الإسلامية والأدبية. وقد تقلب المؤلف في العديد من المناصب الرسمية، واشتغل بالأعمال الخاصة، حيث نعرف أنه عمل بوزارة المالية ثم تولى وزارة الحج والأوقاف سنة ١٣٩٠ هـ، وأقام في القاهرة فترة أسس خلالها فرع البنك الأهلي التجاري السعودي هناك، ومن خلال ذلك كله كان يتحرك باستمرار حركة دائبة ليخدم أمته مما جعله يطوف في العديد من بلدان الشرق والغرب، حيث كان يقدم أفكاره للكثير من الشخصيات العالمية في أطباق ناصعة من النقاء والصدق والطهارة.

وهذا الكتاب، ليس فقط سيرة ذاتية عادية لرجل مصلح فذ، وأديب وسياسي ومفكر إسلامي بارز، بل هو نبع فوار يتدفق بالعبر والأحداث وتجارب الحياة، نقدمه إلى القراء في عالمنا العربي والإسلامي الواسع، ليكون لهم زاداً فكرياً وأدبياً ممتعاً يقطفون من بين أسطره أطيب الثمار.

دار الشروق
جدة